2020
2.1.2020

رواية

إريكا يونغ

الخوف من الموت

ترجمة: أسامة منزلجي

إريكا يونغ

الخوف من الموت

ترجمة: أسامة منزلجي

الخوف من الموت

روايــة

Author: **Erica Jong**

اسم المؤلف: إريكا يونغ

Title: **Fear of Dying**

عنوان الكتاب: الخوف من الموت

Translated by: **Osama Menzlchi**

ترجمة: أسامة منزلجي

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al–Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2018**

الطبعة الأولى: 2018

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © 2018, Erica Mann Jong,

all rights reserved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدماً.

الإهداء

إلى صديقتي العزيزة، جيري
وإلى *l'Ultimo Marito* (زوجي إلى الأبد)، كين

في مديح الخوف من الموت

«إنَّ الخوف من الموت تُثبت مكانة إريكا يونغ الراسخة».
- *ذا غلوب أند ميل* (كندا)

«لقد اكتسبت [يونغ] إعجابي بصدقها، وحسّها الفكه، وشغفها... إنها ككاتبة ما زال لديها الكثير لتقوله»
- *ذا غارديان* (بريطانيا)

«إنَّ يونغ تومض، تتحرك برشاقة وهي مُضحكة جداً بالإضافة إلى كونها ذكيّة وحكيمة... لقد ابتكرتْ صوتاً في السرد حميماً ومباشراً بصورة خارقة، حتى يكاد المرء ينسى أنَّ هذا الأداء البارع والواثق هو عمل أدبيّ. إنَّ يونغ منارة تضيء لأجيال عديدة من القرّاء، وروايتها الأولى بعد مرور أكثر من عقد من الزمان سوف تعِدُ بالكثير من الإثارة».
- بوكْليستْ (مراجعة تحمل نجوماً)

«منذ البداية اندفعتْ يونغ إلى المقدِّمة، قائدة جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى حيث يخشى أنْ يطأ... حتى وهي في سبعينيات عمرها، تبقى يونغ المُغامِرة المتهوِّرة، الشهوانيّة، التي يمكن لجبناء العالم أنْ يتبوّلوا عليها، لكنها لا تنوي أنْ تدع هذا يوقفها».
- *ذا أتلانتيك*

«إنَّ كتاب إريكا يونغ الخوف من الموت يتحدّى أفول الجنس».
- *ذا نيويورك تايمز*

«إنَّ أسلوب يونغ في الكتابة مُراوغ وجذّاب، تَكَدُّسُ المواضيع المُعقَّدة في قصةٍ سوف تجعل القرّاء يضحكون ويفكّرون».
- *RT لمراجعة الكتب* (أربع نجوم)

«إنَّ رواية الخوف من الموت تدعم رواية يونغ الكلاسيكيّة الخوف من الطيران. في هذه الرواية الجذلة، المُثيرة جنسياً والحكيمة بخفّتها، تستكشف يونغ بعض الحقائق العميقة عن التقدُّم في السن، والعائلة، والحب، والزواج بعد سن الستين. هذه الرواية هي مزيج رائع، ممتع في قراءته من التسلية والحِكمة. لقد أحببتُها!».
- سوزان تشيفر، صاحبة الكتاب الرائج
«العودة إلى المنزل قبل حلول الظلام».

«إنَّ الخوف من الموت، كتاب إريكا يونغ، هستيريّ ومؤثِّر، ساحر ويُثير الحزن، ويجعلني أرغبُ في المزيد لكي أعيش باستمتاع - إلى الأبد! إنَّ كتابة يونغ تضرب أوهامك، وسريرك، وعقلك. كم أحبّ هذا الكتاب!».
- **جودي كولينز**، مغنّية، وكاتبة،
ومن جيل الستينيات.

«لقد أحببتُ الخوف من الموت. وجدتُه غير مُحترَم، ومُضحكاً، ورقيقاً، وحكيماً جداً، وجعلني أشعر بأنني أكثر حياة».
- راشيل جويس، مؤلِّفة «الرحلة
البغيضة لهارولد فراي».

«لقد خرجت إريكا يونغ برواية جديدة تنطوي على ذكاء حادّ،

وبصيرة نافذة، ومُضحكة وقابلة للسرد بصورة سخيفة، هي الخوف من الموت. في روايتها الأخيرة، تقوم يونغ بزيارة أخرى وجديدة لوساوسها القديمة. لم أتمكن من ترك هذا الكتاب المُذهل الذي قُدِّرَ له أنْ يُصبح كلاسيكياً على الفور. في عام 1973، كان كتاب (الخوف من الطيران) هو الذي نحتاج إليه؛ والآن الكتاب الذي نحتاجه هو (الخوف من الموت)».

– جولي كْلام، مؤلّفة الكتابين الرائجين «الاحتفاظ بالأصدقاء» و«لقد تملّكتني في الحال».

«أيها المُعجبون بأدب إريكا يونغ، افرحوا! إنَّ روايتها الجديدة، ذات العنوان البارع والمناسب (الخوف من الموت)، هي حُلم يقول الحقيقة. وفيه، تواجه يونغ وذواتها الأخرى أصعب تحدّيات الحياة، بثبات ودفعة واحدة. وكما كتب الشاعر العظيم وليم بتلر يقول (إنَّ الشيئين الوحيدَين اللذين يستحقان الكتابة عنهما هما الجنس والموت)، وفي (الخوف من الموت) تتناول يونغ الموضوعَين. وطوال الوقت، تحكي أيضاً قصة زواج يزداد سعادة على الرغم من كل شيء. إنَّ هذا الكتاب الحكيم، المكتوب بنثر رائع يجعل المرء يترنّم، سوف يُبهِجُ حياة كل مَنْ يقرأه ويُثريها».

– روزميري دانييل، صاحبة الجائزة على كتابها «أسرار زونا روزا: كيف يمكن للكتابة (والأخوات) أنْ تغيِّر حياة النساء».

«إنَّ مقدرة إريكا يونغ على أنْ تتعامل مع كل هذه القضايا الحسّاسة كلها ومع ذلك تجعل الكتاب مُضحكاً لهو أمرٌ مُذهل. لقد استمتعتُ بقراءته».

– المخرج والممثّل *وودي ألن*.

«لقد نجحت إريكا يونغ من جديد! إنَّ (الخوف من الموت) حفلةُ قَصْفٍ كبيرةٌ، فاسقة، مكتوبة بجمال، يُثير صخباً بين روّاد الإنترنت،

وصداقات النساء، والأطفال الذين يتصارعون مع سن البلوغ، والآباء الذين يتجادلون مع الموت. إنَّ الخوف من الموت كتاب كبير، ودود، كريم سوف يُرضي عشّاق أدب يونغ الدائمين ويُبهِج قُرَّاءها الجُدُد».

- جنيفر واينر، صاحبة الكتاب
الرائج «مَنْ تُحب»

«إنَّ الخوف من الموت، المؤثِّر والشاعريّ بعمق، هو رواية ساحرة وتتفهَّم حقّاً مسيرة التقدُّم في السن. إنَّ إريكا يونغ، بإيرادها صورة مُذهلة في كل صفحة، تمنحنا سيرةً ذاتيّة روحيّة مُستترة تتّسم برُقيٍّ مُتواصِل، وزخماً سردياً أسَرَني من البداية وحتى النهاية هو ينبثق بالكامل من عمل يونغ السابق، ولكن بحماس جديد حادّ، وأعطانا كتاباً حكيماً، كتاباً للذوّاقة»

- جاي باريني، مؤلف كتابَي «المحطة الأخيرة» و«لماذا الشِّعر مهمّ».

تمرُّ الأيام وتتلاشى السنون، ونمشي بلا بصر بين المعجزات. اِملأْ عيونَنا بالبصر يا ربّ واِملأْ عقولَنا بالمعرفة؛ فلتمرّ بنا لحظات يُضيء حضورُك خلالها، كالبرق، الظلامَ الذي نمشي فيه. أعِنّا على أنْ نرى، مهما كان ما ننظر إليه، إنَّ الدغلَ يحترق ولا يفنى. وسوف نمدُّ أيادينا، نحن الطين الذي لمسه الله، نحو القداسة، ونهتف متعجّبين: «ما أشدّ مهابة هذا المكان ولم نكن نعلم ذلك!».

– من كتاب «*ميشكان تفيلاح: صلوات الإصلاح اليهودي*».

الجزء الأول

الخريف

-1-

زوجة سعيدة، أو هل توجد ممارسة جنس بعد الموت؟

في العموم أنا أتجنّب الغواية *إلا إذا عجزتُ عن مقاومتها.*

• الممثلة ماي ويست (نقلاً
عن أوسكار وايلد)

كنتُ أحبّ السيطرة التي أمارسها على الرجال. أمشي في الشارع، وكسّي الذي على شكل آلة ماندولين يتهادى ويتمايل أمام عيونهم الخلفيّة. والغريب في الأمر هو أنني لم أعِ تماماً وجود تلك السيطرة إلا بعد زوالها – أو انتقالها إلى ابنتي، وعيون الذكور كلها على جسمها العشرينيّ الصالح للزواج، ولإنجاب الأطفال. كم اشتقتُ إلى تلك السيطرة. وبدا أنّ ما حلّ محلّها – الزواج، الأمومة، حِكمة امرأة ناضجة (كم أكره هذه العبارة!) – لا يُساوي ثمن شمعة. آه، الشمعة! تقفُ مُنتصبة. تحترقُ من أجلي. ممتلئة بضجيج وبغضب يدلّان على كل شيء. أعلمُ أنه كان ينبغي أنْ أكون فتاة طيبة وأتلاشى وأوفّر على ابنتي ما تُسبّبه فورات شغفي من حرج، لكنني عاجزة عن ذلك بقدر عجزي عن أنْ أموت في الوقت المناسب. الحياة شغف. لكنني الآن بتُّ أعلم كم يُكلّفُ الشغف، لذلك أصبحَ من الصعب أنْ أكون خالية من الهمّ بعد الآن.

ولكن هل كنتُ خالية من الهم؟ هل أحدٌ خالٍ منه؟ ألم يكن الحب دائماً سيجاراً قابلاً للانفجار؟ ألم تقُل الغجرية روز لي[1] «الله حبٌّ، لكنني لم أفهم هذا إلا بالكتابة»؟ وألمْ تقُل فاني برايس[2] «الحب أشبه بورقة لعب - حالما تعرف سرّ اللعب، تفقد اللعبة متعتها»؟ لقد كان لدى تلك المتحرِّرات بعض الخبرة. فهل استسلمن؟ أبداً!

لن أخبركِ - بعد - عن عمري وكم مرّة تزوّجْت. (لقد قرّرتُ ألا أتقدّم في السن بعد سن الخمسين). إنني وزوجي نقرأ أوراق النعي أكثر مما نمارس الجنس. سوف أقول فقط إنه عندما حاصرتني مشاكل عائلتي الأصليّة وأدركتُ أنّه ليس في استطاعة زواجي أنْ يُنقذني. ووصلتُ إلى مرحلة من الضعف بحيث لم أعُد أتمكن من وضع الإعلان التالي على موقع .Zipless com، وهو موقع عن الجنس على شبكة الإنترنت:

امرأة سعيدة في حياتها الزوجيّة تتصف بطاقة جنسيّة زائدة تبحث عن رجل سعيد في حياته الزوجيّة ليُشاركها شغفها. تعال للاحتفال بالحب مرة في الأسبوع بعد الظهيرة. السريّة مضمونة مع امرأة عابثة، جميلة، واسعة الخيال وذكيّة. أرسِلْ عنوانكَ الإلكتروني وصورةً حديثة العهد. أنا أُقيمُ في منطقة نيويورك.

إنني أتحدّثُ عن امرأةٍ على شفا انهيار أعصابها! كان الفصل خريفاً في نيويورك - فصل الضباب الرقيق، والأعياد اليهوديّة، وعائد أرباح أطباق بخمسة آلاف دولار من أجل الأمراض الأنيقة. إنه وقت البدايات الجديدة (يوم التكفير)، وإعادة المُحاولة (رأس السنة)، وتخزين ثمار البلوط

---

1 - جيبسي روز لي (1911 - 1970): فنّانة استعراضيّة في مسرح المنوعات. أميركية. تمارس التعرّي، وممثلة، بالإضافة إلى كونها مؤلّفة قصص ومسرحيات. لها مذكرات مشهورة- المترجم.

2 - فاني برايس (1891 - 1951): فتاة استعراض أميركيّة، ومغنية هزلية، مثّلت في الإذاعة والمسرح والسينما - المترجم.

لمواجهة شتاءٍ مُجدِب (عيد القرابين). عندما وضعتُ الإعلان، نظرتُ إلى نفسي كامرأة راقية تُحاور العشّاق بطريقة هادئة. أما الآن فاستولى عليّ الرعب فجأة. بدأتُ أتخيّل أنواعاً شتى من القذرين، والفاشلين، والمساجين السابقين، والمُبتزِّين، والقتَلة المهووسين الذين يمكن للإعلان أنْ يجذبهم - ثم انهمكتُ في تلقّي مكالمات هاتفيّة من والديّ المريضَين وابنتي الحامل، الذين كنتُ قد نسيتهم تماماً.

مرّتْ بضع دقائق. وفجأةً أخذتْ الرُّدود تتدفّق من الإنترنت كتدفُّق القطع النقديّة من الآلة الشقّيّة. كدتُ أكون خائفة من النظر. وبعد بضع خفقات، لم أقوَ على المقاومة. وكأنني كنتُ آمل أنْ أربح جائزة اليانصيب. الردّ الأول عرضَ عليّ صورة بالألوان لقضيب منتصب - عينُه لونها أسمرّ مصفرّ غير مختونة مع قطرة من الندى تغمز عند الرأس. وتحت الصورة، على الحافة البيضاء، كُتِبَ «من دون استخدام الفياغرا». والإيميل المُرفَق كان مُقتضَباً:

يُعجبني أسلوبك. لطالما احترمت النساء الحازمات.
أرسلي صورة عارية والمقاييس.

الإيميل التالي بدأ كما يلي:

عزيزتي الباحثة،

أحياناً نعتقد أنَّ ما نريد هو الشهوة الجسديّة في حين أننا نشتاق إلى يسوع. إننا نكتشف أننا إذا فتحنا قلوبنا وسمحنا له بولوجه، يُصبح الرضا بأنواعه كافة ملكنا. ربما تعتقدين أنكِ تبحثين عن الحب، لكنَّ ما تسعين إليه هو الموت. في المسيح توجد الحياة الأبديّة. إنه المعشوق الذي لا يُخيِّب الأمل، والصديق المُخلِص إلى الأبد. ويُشرّفني أنْ أقابلكِ وأواسيك...

وذكر رقم هاتف 1-800-JESUS-4U.

ورميتُ الإجابات كلها في سلّة المهملات الافتراضيّة، حذفتها، وأغلقت الكومبيوتر. لا بدّ أنني جُننتُ حتى أذكر عنواناً إلكترونياً صحيحاً. وقلتُ في نفسي، لأُضلّلها، إلى هنا وانتهى الأمر. وأُجهِضَتْ فكرة رديئة أخرى. وتابعتُ حياتي الزوجيّة الروتينيّة. لطالما كنتُ متهوّرة، والمتهوّرون يعرفون كيف يتخلّون عن دوافعهم. كان الجنس يُعتبَر مشكلة - في كل سن. ولكن بحلول سن الستين - فجأة، تخلّيتُ عنه - كان قد أصبح نكتة. إذ لا يُسمَح للنساء بأنْ يكون لهن شغف في سن الستين. كان يُفتَرَض بنا أنْ نُصبح جدّات ونتراجع إلى منطقة اللّا جنس الهادئة. كان الجنس مُخصّصاً لسنوات العشرين، والثلاثين، والأربعين، وحتى الخمسين. أما الجنس في الستين فيُسبِّب الحرج. حتى وإنْ كان شكلك جيداً، فإنكِ تعرفين *الكثير*. تعرفين كل الأخطاء التي يمكن أنْ تقعي فيها، كل المُحتالين الذين يمكن أنْ تتعاملي معهم، وكل الأخطار التي تنجم عن العبث مع الغرباء. أنتِ تعلمين أنّ التعقُّل حُلم. والآن أصبح عنواني الإلكتروني مُتاحاً لكل مَنْ هبَّ ودبّ!

ثم إنني أعبدُ زوجي، وآخر ما أريد أنْ أفعل هو أنْ أُسبّب له الأذى. ولطالما علمتُ أنّ الزواج من شخصٍ أكبر مني بعشرين عاماً يُعرّضني لخطر قضاء سنوات أفولي من دون جنس. لكنه تخلّى عن أشياء كثيرة أخرى. كنتُ قد تزوجته وأنا في الخامسة والأربعين وكان هو في الخامسة والستين وكانت حياتنا سعيدة معاً. لقد عالج جراح زيجاتي المُبكّرة القديمة كلها. كان زوجَ أمٍّ عظيماً مع ابنتي. فكيف أجرؤ على التذمُّر من فقدان أي شيء في حياتي؟ كيف أجرؤ على الإعلان عن طلب الحب؟

كان والداي يحتضران وكنتُ أتقدَّم في العمر بصورة لا يمكن تخيّلها، ولكن هل كان هذا سبباً يُبرِّرُ سعيي إلى الحصول على ما سمّته صديقتي الحميمة إيزادورا وينغ بالـ «النكاح الحرّ»؟ حتماً. إما هذا أو النعيم الروحيّ. من الواضح أنْ مُؤسسي موقع Zipless.com قد احتالوا على إيزادورا من دون أنْ يدفعوا لها قرشاً واحداً. الشركة التي اشترت حقوقها السينمائيّة

بيعَتْ إلى شركة استغلّت الحقوق الرقميّة التي بيعَتْ إلى شركة استغلّتْ أجزاءً شهيرة. هذا هو عالم الكتابة – إنه متوحش كعالم التمثيل.

لقد كنت وإيزادورا صديقتين طوال الحياة. تقابلنا لنُناقش فيلماً سينمائياً لم يُنفَّذ أبداً. بل إننا امتنعنا عن شرب الخمر معاً. وكان في استطاعتي أنْ أتّصل بها طلباً للدعم المعنوي كلما احتجتُ إليها. كنتُ أعتبرها صديقتي الأفضل، صديقتي الموثوقة. كم أنا في حاجة ماسّة إليها الآن.

***

سوف أذهب إلى شقّة والديّ لأَعُوْدَهما، وأشعر بالرعب من هذا. لقد تدهورت حالتهما بشدّة خلال الأشهر القليلة الأخيرة. كلاهما كانا يَقضيان أيامهما في السرير، يُشرف على رعايتهما مُساعدون وأهل الخير. كلاهما كانا يستخدمان الحِفَاض – إذا كنا محظوظين. شقّتهما تفوح بعبق البول، والبراز، والأدوية. والبراز هو الأسوأ. إنه ليس برازاً صحيّاً كالذي يُفرزه الأطفال حديثو الولادة. يبدو مُمرِضاً. عبقُه الكريه ينفذ في كل شيء – في السجاد الشرقي، واللوحات الفنية، والستائر اليابانيّة. من المستحيل تجنّبه – حتى في غرفة الجلوس.

عندما وصلتُ إلى هناك، أدركتُ بارتياح جمّ أنَّ أمي تُمضي يوماً جيداً. إنها على طبيعتها الحيويّة. قالت فجأة وهي مستلقيَة على السرير، وترتدي مبذلاً نسائياً من الساتان البنفسجي وتُحرّك أصابع قدميها المدهونة باللون الأصفر:

«مَنْ ستتزوجين في المرة التالية؟».

أقول «أنا متزوجة من آشِر. إننا متزوجان منذ خمسة عشر عاماً. أنت تعلمين هذا».

تسألني أمي، وهي تتفرّس في عينيّ: «هل أنتِ سعيدة؟».

أُقلِّب التفكير في السؤال العصيّ على الإجابة. أقول «نعم، سعيدة».

تنظر أمي إلى خواتمي – إلى خاتم الذهب على طراز الفن الحديث،

وخاتم العقيق الأحمر المنقوش من اليونان، وخاتم الزبرجد الفيكتوري المثقوب من إيطاليا.

تقول «إذا تزوّجتِ من جديد، فسوف تحصلين على المزيد من الخواتم»، وتضحك ضحكاً صاخباً.

أمي في أواخر تسعينيات عمرها وخرفها المرح مُرصّع بفترات من الذكاء الخارق. وهي أيضاً أشدُّ ظرفاً بكثير مما كانت عليه وأنا طفلة. وإلى جانب العنق المُجعَّد، والذراعين الرخوين، والساقين الملتهبتين تأتي عذوبة موشّاة ببوح عنيفٍ للحقيقة. أحياناً تعتقد أنني أختها أو أمّها. في رأسها الأموات والأحياء كلّهم على قدم المساواة على قيد الحياة. لكنّها تنظر إليّ بحبٍ غامر أتمنّى لو أنني سلّمتُ بوجوده وأنا صغيرة. لكانت حياتي كلها اختلفتْ. أو هكذا أعتقد. والحقيقة هي أنها لطالما أثارتْ فيَّ الرعب وأنا صغيرة.

لا ينبغي أنْ يصل الإنسان إلى هذا العمر الرذيل. أحياناً أعتقد أنَّ وجود أمي يقتطع الكثير من سنيّ حياتي. إنني أُجبِرُ نفسي على النظر إليها. إنَّ وجنتيها شاحبتان وتعترضهما ملايين التجاعيد، وعينيها ترشحان وتكسوهما كتلٌ متخثِّرة مع لُطَخٍ لزجة، وساقيها كثيرتا العُقد وملتويتان، وأظافر قدميها السميكة والطويلة صفراء اللون ومُثلَّمة، ومبذلها يبقى مفتوحاً ليكشف عن صدرها المُسطَّح.

إنني أتذكّر كل الأوقات التي جلستُ في أثنائها في غرف المستشفى مع أمي خلال سنوات عمرها الأخيرة. إنني أُصلّي بعنفٍ لكيلا تموت. ولكن ألستُ في الحقيقة أُصلّي من أجل *نفسي*؟ ألستُ في الحقيقة أصلّي لكيلا أكون آخر مَنْ يقف على حافة الهاوية؟ ألستُ أُصلّي حقاً لكيلا أُضطرَّ إلى حفر قبرها وأسقط أنا فيه؟

مع تقدّمكِ في العمر، تزداد الخسائر من حولك بصورة مُذهلة. والناس الذين يدورون في فلكك يقتربون في العمر أكثر فأكثر من عمرك. ويموت الأصدقاء والأقرباء الأكبر سناً، ويتركونك مذهولة. ويموت المنافسون، ويتركونك مُنتصرة. والعشّاق والأساتذة يموتون، ويتركونك ضائعة. ويُصبح

صعباً باطِّراد أنْ تُنكِري موتك. هل نتمسّك بآبائنا وأمهاتنا، أم أننا نتمسّك بوضعنا ونحن أطفالٌ منيعون ضد الموت؟ أعتقد أننا نتمسّك بقوة تزداد باطِّراد بوضعنا ونحن أطفال. في المستشفى ترين أطفالاً آخرين - أطفالاً في الخمسين، والستين، والسبعين - يتشبّثون بآبائهم وأمهاتهم الذين في الثمانين، والتسعين، والمائة. هل هذا التشبُّث كله حُب؟ أم أنه فقط حاجة إلى التوكيد على مناعتك الخاصة ضد العدوى من مولوخ - ملاك الموت الرهيب؟ لأننا جميعاً نؤمن سرّاً بخلودنا الخاص. وبما أننا لا نستطيع أنْ نتخيّل فقدان الوعي الفرديّ، فإننا لا نستطيع أنْ نتخيّل الموت. كنت أحسب أنني أبحثُ عن الحب - ولكن ما كنتُ أسعى إليه حقاً هو تجسُّدٌ جديد. أردتُ أنْ أستعيد الزمن وأعود طفلة من جديد - وأنا أعرف كل ما أعرفه الآن.

وتسألُ أمي «فيمَ تفكرين؟».

أقول «لا شيء».

تقول «أنتِ تقولين لنفسك إنك لا تريدين أنْ تُصبحي عجوزاً مثلي. أنا أعرفك».

أبي نائم طوال هذا الوقت. جسده البالي لا يشغل إلا مساحة صغيرة بصورة مدهشة تحت الأغطية. وبما أنَّ آلة السمع مُعطّلة، فإنه لا يسمع حديثنا ولا يُريد ذلك. إنه يُفضّل أنْ يقضي نهاره في النوم. قبل ستة أشهر فقط، قبل أنْ يُجري عملية استئصال السرطان، كان رجلاً مختلفاً. كنت وأخواتي نبدأ يومنا بتلقّي خطابات تهديد منه، غالباً مكتوبة شِعراً.

ماذا تفعل عندما تبدأ أيامك بخطاب مكتوب بطريقة فوضويّة تتلقّاه من والدك البالغ ثلاثة وتسعين عاماً؟

أشعرُ كأنني الملك لير.
لديّ ثلاث بنات
جميلات وعزيزات على قلبي،
بارعات وظريفات،

يتجادلن منذ الآن.
مَنْ ستنال أكثر؟
مَنْ ستنال أقلّ؟
يا لها من فوضى رهيبة
بالنسبة إلى لير الطاعن في السن
يُعاني كآبة الشيخوخة.

يكفي شِعراً. وفي أسفل الصفحة خطَّ بيدٍ مرتعشة: «أعِدْنَ القراءة مراراً وتكراراً – لا مشاحنات!».

كيف استطاع والدنا أنْ ينتقل من براونسفيل إلى المأساة الشكسبيريّة؟

إليك نسخته من القصة: إنَّ كل ما قاله والدي لي كان «احصلي على عمل!». أردتُ أنْ ألتحق بمدرسة جويليارد للفنون التطبيقيّة. فقال والدي: «إنكِ تكسبين نقوداً أصلاً من العزف على الطبول – فما حاجتكَ إليها؟»، ورمى برسالة التحاقي. «ولهذا السبب صمّمتُ على أنْ تحصل كلٌ منكن أنتنَّ الثلاث على شهادة جامعيّة».

قال والدي هذا في مُحترَف والدتي الذي يُشرِف على هدسن. كانت متمددة على السرير كأنها الملكة لير، وهي تومئ برأسها. (هل كانت هناك ملكة زوجة لير؟)

كانت الأخوات لير جالسات حول سرير أمّهن. وكانت أمّهن قد أجرتْ توّاً عمليّة جراحيّة في المعدة وتستغلّ الموقف بالكامل. كانت تئنّ بين حين وآخر.

«إنَّ أمّكن تعاني من مرض كرون[3]، ومن إصابة في الشريان التاجي، ومن كسر في فقرة في أسفل العمود الفقري، واستُبدلت قطعتين في الورك، وقطعتين في الرُكبة. لا أستطيع أنْ أستمرُ في عملي كـ(ممرِّض أميركي)» –

3- مرض كرون: إصابة الأمعاء بالتقرّح، والالتهاب والانتفاخ – المترجم.

وكانت عبارة والدي المُثيرة للشفقة التي تصِفُ وضعه في العائلة هي «إذا لم تأتين أنتنّ الثلاث إلى هنا في كل يوم، فسوف أُغيِّر وصيتي».

قالت أختي الأكبر سناً، أنتونيا: «إيّاكَ أنْ تُهدّدني. عندما كنا في بلفاست في ذروة مشاكلنا» – طبعاً لقد اضطُرّتْ أنتونيا إلى الزواج من شاعِر إيرلندي – «نجرُّ آلة البيانو أمام الباب لكي نُبعِد العساكر، ونشتري الخبز خلال الساعات الأولى من الصباح قبل أنْ يبدأ إطلاق النار، ونُغطّي النوافذ بقطع الأثاث لكي لا يُصاب أحفادك بالقذائف – أين كنتَ أنت؟ كنا نمرُّ بمحرقة حقيقيّة ولا أحد هبَّ لنجدتنا. لن أسامح أيّاً منكم على ذلك!».

فجأة انتعشت الملكة لير: «ماذا تقصدين؟ لقد أرسلنا إليكم نقوداً!».

«لقد أرسلتما إلينا مبلغاً تافهاً لا يتجاوز خمسة وعشرين ألف دولاراً! ماذا كنتُ سأفعل بخمسة وعشرين ألف دولاراً بوجود أربعة أطفال وحرب دائرة؟».

قالت أختي الصغرى، إميليا، «لم يحدث أبداً أنْ أرسل إليّ أحدٌ خمسة وعشرين ألف دولار».

زعقتْ توني قائلة «كلا، لقد كانت الأعمال كلها بيد زوجك. لهذا لم تكوني في حاجة إلى خمسة وعشرين دولاراً».

«إنَّ زوجك لم يرغب في العمل! لا أحد رغب فيه! نحن تورّطنا فيه! وكنتما أنتما الاثنان مُسافرين حول العالم وبقينا نحن هنا، نعتني بالجميع! وبمحل بيع الكتب نفسه. وعندما توفّيتْ جدّتي، كنتُ وحدي معها! والوالدان انطلقا يجوبان أوروبا. أين كنتما أنتما الاثنتين؟ أنا لم أذهب إلى أي مكان».

قلت «هذا غير صحيح تماماً».

قالت أمي «يا بنات، يا بنات، يا بنات».

صاحت إيمي «لا أحد يتعاطفُ معي! لقد شعرتُ بأنني يجب أنْ أكون الابنة الطيّبة وألازم المنزل. لقد ضحّيتُ بزوجي المسكين التافه على مذبح محلّ بيع الكتب الخاص بالعائلة!».

ناحت توني قائلة «إنَّ ذلك الزوج المسكين التافه حظيَ بكل شيء! وأنت كذلك! ونحن لم ننلْ أيَّ شيء! يا لها من تضحية!».

«كنتُ مستعدة لأقدِّم مثل تلك التضحية».

«مستحيل! ما كان يمكن أنْ تفعلي ذلك. زوجك ما كان ليفعل ذلك!»، تلك كانت إيمي، الصاخبة أيضاً.

سألتُ «ألا تستطيع كل منكن أنْ تأخذ وجهة نظر الأخرى بعين الاعتبار؟».

صاحت توني «لن أفعل هذا إذا كانت كاذبة مُخادِعة!».

«إنَّ ضغط دمي يرتفع - يجب أنْ أخرج من هنا!»، وهرعت توني نحو الباب. فاندفعتُ نحوها وتملّقتها لكيلا تغادر.

«ولِمَ لا أغادر؟ سوف يتسبّب هذا في قتلي! إنَّ قلبي يخفق بشدّة!».

حينئذٍ كان أبي، الملك لير العجوز، قد انتقل إلى آلة البيانو وبدأ يعزف لحن أغنية Begin the Beguine من تأليف كول بورتر ويُغني معه لكي يطغى على الهدير الصادر عن الغرفة الأخرى.

لقد كنتُ حيث كنتُ دائماً - قطعة اللحم في الشطيرة، صانعة السلام المُتخصصة، الدبلوماسيّة، المُهرّجة، الأخت الوسطى.

انتقلتْ الأخوات إلى المطبخ لاستئناف المُشاحنة من دون وسيط. وولجتُ غرفة أمي، فوجدتُها مستلقية على وسائدها وتئنّ: «لِمَ يتشاجرن؟».

قلتُ «أنت تعرفين جيداً السبب. والدي هو الذي أثار الأمر».

قالت أمي «أبوك لا يمكن أنْ يفعل مثل هذا الأمر أبداً».

«إذن اجعليه يُنهيه».

قالت «لا أستطيع أنْ أدفعه إلى فعل أي شيء»، ومن ثم قبضَتْ على صدرها. وقالت، وهي تُدير رأسها جانباً. قالت «أشعر بالضعف»، وأنَّتْ بصوتٍ مرتفع.

دخلتْ أُختاي بسرعة.

أمرتني إيمي قائلة «استدعي الإسعاف!».

قالت أمي، وهي تنتحب، «لستُ في حاجة إلى إسعاف».

تبادلت أختاي النظرات. مَنْ منهما عديمة الشعور بالمسؤوليّة التي تجاهلت الاتصال بالإسعاف في اليوم المهم؟ لا أحد أراد تحمُّل المسؤوليّة.

قلتُ «إنني أعتقد حقاً أنه لا لزوم لذلك»، لكنَّ رعب أختيّ كان قد بدأ يُثير قلقي القديم. ماذا لو لم يكن إنذاراً زائفاً هذه المرة؟

سرعان ما وقفت سيارة الإسعاف أمام الطابق السفلي وأصبحنا داخلها، نميل فوق الملكة لير المتمدِّدة على النقّالة في الخلف. وكان أبي في المقعد الأمامي إلى جوار السائق، على استعداد لإبراز بطاقة الواهب الأساسي للدم عندما وصلنا المستشفى. رحنا ننتقل بين المنعطفات، بحثاً عن الطريق إلى مستشفى جبل سيناء. ولدى القيام بإحدى حركات الانعطاف السريعة انزلق السرير النقّال باتجاه المُرافِق الجالس خلف السائق.

قال «أخ!».

قلتُ «انتبه! ليس لديّ أمٌ غيرها!».

قالت إيمي «وهي أمي أيضاً!» – كانت دائماً تغضب مهما كانت المناسبة.

جلس والدي إلى جوار أمي طوال فترة العناية بها في المستشفى، وعندما عادت إلى المنزل، بدأ يُهدِّدنا بحرماننا من الميراث إذا لم نأتِ لنَعُودَها في كلّ يوم.

والآن، بعد مرور بضعة أشهرٍ فقط، أصبح من فرط الإرهاق بحيث لم يعُد يهدِّدنا وأصبحتُ أشتاق إلى ضراوته القديمة. فمنذ أنْ أُجريَتْ له عملية جراحيّة لإزالة انسداد القولون، أصبح مجرَّد شبح ما كان عليه أصلاً. أجلسُ على حافة السرير، وأراقبُه وهو نائم، وأتذكّر الحديث الذي دار بيننا في المستشفى في الليلة السابقة ليوم إجراء العمليّة الجراحيّة التي أنقذتْ حياته وأنهَتْها أيضاً.

سألني والدي في تلك الليلة «أتُتقنين الإسبانيّة؟».

أومأتُ برأسي إيجاباً: «قليلاً».

قال *La vida es un sueno* – «الحياة حُلم». وتابَع «إنني أصبو إلى ذلك النوم العميق». ومن ثم خُدِّرَ ويمكن القول إنّه لم يستعدْ وعيَه أبداً. وبعد مِضيّ ثلاثة أيام على إجراء العمليّة الجراحيّة بدأ يُبربر بكلامٍ غير مفهوم ويخدش الهواء. وبعد ستة أيام من إجراء العملية نُقِلَ إلى وَحدة العناية المُشدّدة مع أنبوب ممدود داخل بلعومه. وعندما شخّصوا مرضه بأنه ذات الرئة، وقفتُ إلى جواره في غرفة العناية المُشددة وغنّيتُ له «أعطيتُ حبيبي كرَزة» فرفرف بجفنيه. لم يخطر في بالنا أبداً أنه سوف يخرج سالماً من تلك المُعالجة. لكنه خرج. والآن يُمضي مع أمي أيامهما نائمَين جنباً إلى جنب في شقّتهما ولكن من دون أنْ يتبادلا اللمس أو الكلام. يسهر على راحتهما عناصرُ الإسعاف والبنات على مدار الساعة. وفي كل يوم تزداد ساعات نومهما وتقلّ ساعات يقظتهما.

إنَّ الإغريق القُدامى يؤمنون بأنَّ الأحلام يمكن أنْ تُشفيك من المرض. فإذا نمتَ في ضريح أسكليبيوس[4]، يمكنك أنْ تُشفي نفسك بالحُلم. لكنَّ صحّة والديّ لا تتحسّن. إنهما يغوصان عميقاً في مسيرة الموت. إنني أُدركُ وأنا أراقبهما كم أنني أنا نفسي غير مُستعدّة للموت.

مهما يبلغ أبواكَ من العمر أرذَلَه، فإنك لا تُصبحُ مُستعدّاً أبداً لخسارتهما.

حتى أُختاي حاولتا دون جدوى أنْ تتصالحا معاً بعد أنْ وصلنا الآن إلى هذه المرحلة الختاميّة. إننا نادراً ما نشتركُ في حدثٍ لا نرى فيه أحد المعارف المُسنّين خارجاً محمولاً على نقّالة.

لا عَجَبَ أنني وضعتُ إعلاناً أطلبُ فيه الحب. لقد وضعتُ إعلاناً أطلبُ فيه الحياة.

---

4 – أسكليبيوس: إله الطبّ والشِفاء عند الرومان القدامى – المترجم.

-2-

والدي (مطلوب فتى)

«في الموتِ وقارٌ على الأطباء ألّا يجرؤوا
على تجاهله».

• مجهول

ليس هناك من بديلٍ للّمس. لكي تكون حيّاً يجب أنْ تشتاق إليه. في اليوم التالي، عندما حانَ وقت عيادة والديّ قرّرتُ ألا أحاول أنْ أتحدث مع والدي، بل أنْ أكتفي بمداعبته، بتدليك ظهره، وأحاول أنْ أتواصل معه بهذه الطريقة.

ضغطت على جرس الباب فاستقبلتني فيرونيكا، المسؤولة الرئيسة في ذلك اليوم. كانت امرأة من جامايكا في ستينيات عمرها وصاحبة صوت وتاريخ عائلة يمكن أنْ يُحطّم قلبك. فقد مات ابنها. وابنتها لديها ماجستير في الجراحة، لكنها لا تزال تكافح، وترعى المحتضرين.

«كيف حال والدي؟».

تقول «لا بأس بحالته اليوم».

«أهو نائم؟».

تقول «لا هو نائم ولا يقظ. لكنه يوشك أنْ ينام بصورة ما...».

أذهب إلى جوار سريره وأباشر بتدليك خلف عنقه.

تقول أمي «مَنْ يوجد هنا؟ أنتونيا؟ أم إيميليا؟».

أقول «بل أنا، فانيسا». وأدلّك عنق والدي إلى أنْ يتململ.

يُغمغم: «أشعر بالحب في لمستك». وهذا يُشجّعني على الاستمرار إلى أنْ ينال التعب من ذراعيّ. وفي أثناء تدليكي له عادت بي الذاكرة إلى الوقت الذي جلس فيه على السرير وأنا في السادسة من العمر وأخبرني بأنه لن يترك أمي أبداً بسببي. وكان شجارٌ عنيف قد دار بينهما وأصابني الرعب من أنْ ينفصلا بالطلاق. وخفّفَ والدي من مخاوفي.

قال «لن أتركك أبداً».

لطالما اتّهمتْني أختي بأنني المُفضّلة لديه. ولكن ما فائدة ذلك لي؟ لديّ تاريخ من الحياة الزوجيّة في البحث عنه دون جدوى في الأزواج الخاطئين إلى أنْ تزوجتُ من شخص حسبتُ أنه يستطيع أنْ يكون بديلاً له. وها نحن قد أصبحنا كلنا عجائز وكذلك قصّتنا.

قبل نحو عام، عندما كان والدي لا يزال قوياً بحيث يُهدّدنا بحرماننا من الميراث، أتيت إليه فوجدته في مزاج حماسي.

سألَ «هل أخبرتكِ مرة عن عملي الأول؟».

«كلا».

«حسنٌ، لقد رحتُ أتجول في المناطق المجاورة بحثاً عن لافتات في واجهات المحال التجارية تقول (مطلوب فتى). وعندما عثرتُ على واحدة، دخلتُ مباشرة وقلت: (أنا الفتى المطلوب). وكنتُ أعلم حتى حينئذٍ أنَّ حماس المرء سوف يفوز. الأمر نفسه حدث في مجال الفن الاستعراضي. فالسبب في حصولي على العمل في مسرح جوبيلي عندما قمتُ بتجربة الأداء أمام كول بورتر كان شدة حماسي. فلم أكن من أفضل الموسيقيين. بل كنتُ فقط أفضل المتحمّسين».

قات أمي «ربما اعتقدَ أنكَ ظريف. هو أيضاً يضع لافتة تقول (مطلوب فتى). الجميع يعرفون هذا».

قال لأمي «أنت لا تعين ما تقولين»، ثم، في فورة من الغرور المحض، بدأ يقوم بحركات الوثب على السرير. قام بحوالي ثلاثين قفزة متوالية.

قالت أمي «انظري إلى والدك. إنه يظن أنّه إذا واظب على التمرين فلن يموت أبداً»، وكان ذلك صحيحاً. كان أبي يقوم بأداء التمارين الرياضيّة وكأنَّ حياته تتوقّف عليها. وطوال ثمانينيات عمره كان يقطع المسافة إلى محل بيع الكتب في كل يوم سيراً على قدميه، ثم يعود إلى المنزل لكي يقطع مسافة خمسة أميال أخرى على الدراجة الثابتة. كان مُفعماً باحتقاره لأمي بسبب حياتها التي تقضيها في الجلوس. وجوَّع نفسه حتى أصبح هيكلاً عظمياً.

أخبرني «تعلَّمي أنْ تنامي وأنتِ جائعة. كلما ازددتِ نحافة، عشتِ أكثر. وهذا مُثبَتْ». كان يأكل قليلاً جداً لكنه يلتهم الفيتامينات. كانت طاولة غرفة الطعام ممتلئة بخلاصة الأعشاب البحرية ومنشّطات الهرمونات البشرية وبأنواع الإضافات الرائجة كلها. ولكن حلّ اليوم الذي لم يعُد في استطاعته أنْ يأكل أي شيء بسبب الألم الذي بدأ ينتابه.

رافقناه أنا وأختاي لإجراء التصوير الطبقي، والصونوغرام، والأشعة السينيّة. جلس في غرفة تغيير الملابس الصغيرة في مكتب الاختصاصي في استخدام الطاقة الإشعاعيّة يرتعش مرتدياً البنطلون القصير والقميص الرياضيّ. بدا شديد الضآلة، شديد الخوف، شديد الانكماش. لم يظهر أي شيء في الصور. وأخيراً أودع المستشفى وصوّروا القولون، وهناك وجدوا الانسداد.

كان شديد التوق إلى إجراء العملية الجراحيّة. قال «استأصِلوه. اقضُوا على ابن الحرام». كان يظن أنَّهم إذا استأصلوا السرطان، فسوف يعود سليماً وكأنه ولد من جديد.

كم مرّة رأيتُ ذلك التوق إلى السكين؟ يقولون «استأصِلوه»، وكأنَّ

الخلود ليس أكثر من ورم. ولكن إذا لم يستطع الموت أنْ يمرّ من الباب الأمامي، فسوف يتسلّل من الخلف. واستأصَلوا السرطان من أحشائه، لكنَّ الخَدَر كان قد أغار على مخّه.

في اليوم الأول بعد إجراء العمليّة الجراحيّة كان مُشوَّشاً ولكن على ما يُرام. وكما كنا نفعل في الأيام الخوالي في الرحلات العائليّة بالسيارة، كنا نمرّ على الأحرف الأبجديّة غناءً بدءاً بنشيد «طوال الليل» وحتى «زيب-أدي-دوو-دا». ولكن في صباح اليوم التالي أمسك بصحيفة *ذا نيويورك تايمس* بالمقلوب بيد، وأخذ يختلق قصصاً غريبة تشرح العناوين الرئيسة. بعد ذلك، ظهر حارسان ضخمان في غرفته لأنه كان قد عضَّ إحدى الممرِّضات. فرحتُ أُكلّمه طوال الوقت وأُداعب يده فاستغرقَ في النوم. ولكن في اليوم الذي تلاه كان قد أصبح أشدّ توتراً. في أول الأمر اعتقدوا أنَّ ذلك سببه الأدوية التي يتناولها، الكلونوبين أو الهالدول أو بفعل المُخدِّر، لكنَّ مجموعة من الأطباء قررت أنَّ شيئاً «عضويّاً» هو الذي يجعله يرتعش، ويصخب، ويهتز، ويقبض على الهواء. فأوصلوه بالأنابيب، وأدخلوا القسطر في مجرى البول، وأخذوه إلى وحدة العناية المتوسطة، ثم إلى وحدة العناية المُشدّدة. وهناك صلّيتُ لأجله لكي يستعيد عافيته، وقد فعل ذلك بدرجة ما. والآن أتساءل عن حِكمة تلك الصلوات. إنني أعرف الآن أنَّ الحياة هي وحدة العناية المتوسطة لكل وحدات العناية المتوسطة. والعلاج الوحيد لتهيُّج الحياة هو الموت. وكما يقولون «العلاج أسوأ من المرض نفسه».

الآن يقول «كفي، إنني أتألَّم». هل يسمع أفكاري؟ أعتقد ذلك.

ويهتف «فيرونيكا! أريد أنْ أذهب إلى المرحاض». وتأتي فيرونيكا لكي تأخذه. وعندما يعود يبدو مُرهَقاً وينكمش إلى وضعيّة الموت من جديد.

أسألُ فيرونيكا لاحقاً «هل ينام طوال النهار؟». فتعتبر سؤالي طعناً في حِرَفيَّتها.

«لقد أخبرتك من قبل وها أنا أعيد القول. إنه لا يريد أنْ يستيقظ لأنه

مُبتئس ولا يريد أنْ ينام لأنه يخشى أنْ يموت في أثناء نومه. ولذلك كلما شعر بأنه ينجرف، يعتقد أنَّ عليه أنْ يلجأ إلى المرحاض. وهذا يحدث فقط خمسين مرّة في اليوم الواحد. إنه لا يستطيع أنْ يبقى ولا يستطيع أنْ يرحل. لقد أخبرتُ أختيكِ بالشَّيء نفسه. لِمَ لا تتوقَّفْنَ عن السؤال؟».

أقول «لأننا نحبّه».

تقول فيرونيكا «أنا أعلم هذا. ولذلك دعوه وشأنه».

«لكننا نريد أنْ نساعده».

«كيف ستساعدنه على الموت؟».

حقاً كيف؟ لو كان في استطاعتي أنْ أعطيه الجرعة الختاميّة من السُمّ الذي لا يُسبّب الألم، لفعلتُ. أم هل كنتُ سأفعل؟ عندما طلبَ جدّي أقراصاً منوّمة وهو في السادسة والستين، لم تواتني الشجاعة على إعطائه إياها. وما أزال أندم على جُبني حتى هذا اليوم.

كيف يمكن مُساعدة شخص يحتضر؟ لقد قرأتُ وأنا مذهولة قصصاً عن أناسٍ وصلوا نقطة معيَّنة من المرض أو من العمر وقرَّرُوا أنَّه حان وقت الموت. يبدو ذلك قمّة الشجاعة والقسوة على قدم المساواة. الشجاعة لأنَّ أيّ شيء ليس بديهيّاً يتطلّب شجاعة. والقسوة لأنه يجعل أولادك يتساءلون إنْ كانوا قد ارتكبوا ذنباً. ليس هناك من عمل تباشره لا يتضمّن أشخاصاً آخرين. إننا متضافرون. حتى ارتكاب الانتحار الأشد عقلانيّة قد يقع وقع الضربة الموجعة على شخص آخر.

تهتف أمي «فانيسا! أين أنتِ؟».

أدخلُ على أمي، فأجد أبي مكوّماً إلى جوارها، لا يكاد يأتي بأية حركة.

تقول، مُشيرة بيد هزيلة إلى أبي: «طوال تلك السنين وهو أقرب شخص في العالم إليّ والآن لا يريد أنْ يُكلّمني. ماذا في استطاعتك أنْ تفعلي؟».

كان والدي يشتكي دائماً، في أثناء انتظاره إجراء العمليّة، من أنَّ أمي خرِفة، أما الآن، على الرغم من لحظات فقدان الذاكرة، تبدو أعقل منه بكثير. إنها تستلقي إلى جواره طوال النهار، وتتحمّل أشدّ مظاهر رفضه لها. ولحُسن الحظ، لا تستطيع أنْ تركِّز على ذلك إلا على فترات متقطّعة.

ينهض والدي على عجل. ويصرخ «فيرونيكا!». فتهرع فيرونيكا إلى الداخل وترافقه من جديد إلى المرحاض.

تنظر أمي إليّ. تقول «لا أعتقد أنه في حاجة ماسّة إلى الذهاب. أعتقد أنه يريد أنْ ينفرد مع تلك المرأة في المرحاض».

أقول «إنها مُساعدة الممرضة».

تقول أمي «لا تصدّقي تلك التافهة. إنها فقط تتظاهر بأنها مُساعدة الممرضة لكي تتمكن من تجريده من ملابسه. إنني أعرف خدعها كلها. أنا لستُ ابنة الأمس. لكنني أتظاهر بأنني لا أعرف. وذات يوم سوف أطردها من المنزل».

لن تكون المرة الأولى. فعندما كانت أمي أوفر صحّة في العام الفائت، كانت تطرد الناس باستمرار؛ «اخرجي من بيتي أيتها البدينة الضخمة!»، وأحياناً تصرخ: «أيتها البدينة السوداء الضخمة» – أمي، التي لم تكن أبداً عنصريّة في أيام عزّها. وقلتُ لنفسي لقد أصبحت أكثر عقلانيّة الآن، لكنها أصبحت فقط أشدّ وهناً. كانت تقضي ما تبقّى لها من عُمر. وذات يوم، سوف تنهض وتصرخ كما كانت تفعل في الماضي وتطرد الغرباء كلهم.

كان والدي في المعتاد في الماضي، عندما كان أقوى، يصخب قائلاً «إذا رحلتُ مع الملائكة الراقين، فمَنْ سيعتني بها». كانت عبارة «الملائكة الرّاقين» تفتنني. مَنْ كان يقصد بهم؟ ملاك الموت؟ أم أنّه كان يتصارع مع الملائكة في أثناء نومه، كما فعل النبي يعقوب؟

وعندما تسمعه أمّي يتحدّث عن تلك الملائكة الغامضة كانت تصرخ «لا أحد مُضطر إلى الاعتناء بي! سوف أدفنكم جميعاً».

أحياناً أعتقد أنها ربما تعرف أكثر مما تبوح به.

لاحقاً تقول فيرونيكا «لقد شاهدتُ العديد من الأشخاص يموتون، لكنَّ والدك رجل عجوز صلب. سوف يُصارع بشراسة قبل أنْ يُغادر هذه الأرض. وأمك كذلك. إنها لا تكفّ عن مراقبتي. أتتذكرين تلك المرّة عندما سقطتْ عن السرير واضطررنا إلى نقلها إلى المستشفى؟ كانت تُبدي قلقها من أنْ أكون أُقيم علاقة مع والدك. لا أعتقد أنها تخلّتْ عن هذا. إنها أقوى مما يبدو عليها».

«كيف تتحمّلين مثل هذا العمل؟».

«ومَنْ سيؤديه إذا لم أفعل أنا؟ أختاك؟ سوف تنظّفين البراز عندما يجري من بين سيقانهما؟».

وأعود من جديد إلى أمي.

تسألني وكأننا لم نتقابل قطّ قبل ذلك، وكأننا لم نكن نتحدث قبل قليل: «متى وصلتِ إلى هنا؟».

أجلسُ على جانب السرير. والدي موجود وغير موجود، نائم، يقِظ، وينجرف بينهما.

«أتعلمين، عندما تصبحين عجوزاً، ترين أنَّ كل شيء تافه. كل الأشياء التي كنتِ مولعة بها لا تعني أيّ شيء. أنك قمتِ بها فقط لكي تشغلي نفسك. كنتُ أرى أنَّه أمر مهم أنْ أرقص أفضل من الباقين، أما الآن فأرى أنني كنتُ فقط أُخدعُ نفسي. لقد قمت بذلك فقط لأشغل نفسي».

«لا أعتقد أنَّ هذا صحيح».

«بل هو كذلك. حتى وإنْ كنتِ مشهورة، ما الفرق؟ إنَّ هذا لا يحميك من أنْ تصبحي عجوزاً وتموتي. إنَّ الناس يرونكِ وأنتِ تلجين مطعماً ويقولون (أليست هذه فلانة الفلاني؟). حسنٌ، ما فائدة هذا لكِ؟ أو لهم، في هذه النقطة. إنَّ كل شيء تافه».

«لكنكِ لا تزالين ترغبين في العيش، أليس كذلك؟».

«أقول لك الحق، لقد سئمتُ. سئمتُ كلَّ شيء. حتى الأشياء التي كنتُ أحبّها - كالأزهار مثلاً - سئمتُها. كل شيء ما عدا الأطفال. في النهاية، هذا كل ما يهمّ، أنْ تخلّفي وراءك أطفالاً على الأرض لكي يحلّوا محلك بعد أنْ ترحلي. لماذا تبدين شديدة الحزن؟ ما الأمر؟».

«أنتِ تعلمين ما الأمر. لا أحبّ أنْ أسمعكِ تقولين إنّكِ سئمتِ الحياة».

«أتطلبين مني أنْ أكذب عليك؟».

أقول في نفسي، في الحقيقة، نعم. أرجوك أخبريني أنَّ الحياة تستحق أنْ نعيشها. أرجوك أخبريني أنَّ كل النضال للنهوض من السرير، وارتداء الملابس، يستحق العناء. لا أريد أنْ أُصدِّق أنَّ الحياة ليست أكثر من شيء تافه. لا أعتقد أنّه ينبغي على الآباء أنْ يقولوا هذا لأولادهم. والأمر الغريب هو أنني ما زلت أتوقّع منهما أنْ يكونا آباءً.

تقول أمي «ما زلتِ تبدين شابّة».

أقول «لكل شيء سبب».

تقول أمي «إنها الجينات الجيّدة».

«الجينات الجيدة وعمليات شدّ الوجه».

تقول أمي «لا أُصدِّق أنكِ أجريت عمليّة شدّ الوجه».

أقول «كما تشائين».

قبل أنْ أبدأ بمراقبة احتضار والديّ، كان أشدّ ما فعلتُ بثّاً للرعب هو الخضوع لعمليّة تجميل. إنه طقس أنثوي كالإنجاب، يُضاف إلى كل الطقوس الأنثويّة الأخرى - كالتحول الجنسيّ، وشدّ القدم، ومشدّ الأرداف، والملابس الداخليّة. أعرفُ رجالاً أيضاً يُجرون عمليات تجميل الآن - بإرادتهم - لكنَّ الأمر مختلف بالنسبة إلى الرجال. النساء يشعرن بأنّه لا خيار أمامهن. ما زال السن يُعادل الهجران بالنسبة إلى

النساء. يمكن للرجل أنْ يبدو كما لو أنّه في المائة من العمر، وعنين، وأعشى، ***ومع ذلك*** يجد امرأة أصغر سناً منه لم تتمكن من تجاوز عقدة تعلّقها بوالدها. لكنَّ المرأة محظوظة لأنها تستطيع أنْ تذهب إلى السينما أو إلى صالة لعب البينغو مع عجوزٍ مثلها. لقد اعتبرتُ عمليّة التجميل أمراً إلزامياً كنزع شعر الساقين بالشمع.

أولاً أرسلتُ إلى الطبيب شيكاً بمبلغ ضخم بحيث لا يمكنني التراجُع. ثم أمضيتُ خمسة أشهر في حالة من الرعب الصِّرف. (آخر شهر كان الأسوأ). ثم استقلَلْتُ الطائرة وطِرتُ إلى لوس أنجليس.

وصلتُ في وسط الانزلاقات الطينيّة والأمطار الغزيرة (كان ذلك قبل نهاية القرن بفَصلَي شتاء). وحجزتُ غرفة يكتنفها الضباب في فندق يقع في ناطحة سحاب. في الطابق الخمسين الشاهق. (قد تتدخّل هزّة أرضيّة وتحُولُ دون إجرائي تلك العمليّة). وفي باكر صباح اليوم التالي، وبعد عمليات الغسل المُطهِّرة، ومن دون تناول طعام الإفطار، انتقلتُ بسيارة ليموزين إلى المستشفى. جاءتني صديقتي العزيزة إيزادورا وينغ لتمدّني بالدعم المعنوي، وانتظرتْني.

كانت غرفة مكتب الطبيب مُزخرفة بألوانٍ متنوِّعة وكل الممرضات كنَّ يحملن وجوه ***موناليزا*** مثاليّ نفَّذه الطبيب بنفسه. ورسمن ابتساماتهن التي تُشبه الأهلّة. وبعثنَ فيَّ الطمأنينة.

أخذوني إلى غرفة مدهونة باللون الوردي ومزوّدة بأضواء ناعمة وطلبوا مني خلع ملابسي. أعطوني جوارب مطاطة، وخفّاً من الورق، ورداءً أخضر بلون الجندب، وقلنسوة خضراء. وكنتُ قد استعددتُ أصلاً بدعك نفسي، وشعري، وحتى ***ظلّي***، بمحاليل حدّدها الطبيب. ارتديتُ تلك الملابس الخاصة بالعمليّة وتمدّدتُ على ظهري على كرسيّ منحنٍ، أشبه بمقعد طائرة خاصة بمَنْ يريد السفر عبر الزمن. ووصل الطبيبُ المُخدِّرُ والطبيبُ الجرّاح، يرتديان أيضاً لون الجندب الأخضر.

أتذكّر أنني كنتُ أنظر إلى عينَي المُخدِّر البُنيّتين الرقيقتين وأفكّر، وأتساءل إنْ كان مُدمناً على تعاطي المُخدّرات... ونتحدث عن أساليب التخدير. بدا أنه يعرف العديد منها. غرز إبرة في أحد العروق البارزة من يدي وكدتُ لا أشعر بها. حملني السائل عديم اللون بعيداً كأنني كلبٌ قُتِلَ قتلاً رحيماً.

كنتُ قد انتقيتُ طبيبي لأنني شاهدت عمله - أو بالأحرى لأنني شاهدتُ أنَّ عمله غير ظاهر. إنَّ مُعظم أطباء التجميل في نيويورك مُختصُّون بجعل الوجوه تبدو كأنما هبّتْ عليها ريح عاصِفة - عمليات شدّ الوجه التي سمّيتُها «*ذهب مع الريح*»، تراها على الأرض البور المتجمّدة في الحي الشرقي العلويّ. على نسوة نحيلات حتى العِظام وجناتهن ملتصقة بعِظامها وكأنهن مومياءات محفوظة جيداً. وكان طبيبي، البرازيليّ الأصل ويحمل اسماً ألمانياً نبيلاً (زوجي قال مازحاً إنَّ والده لا بدّ كان طبيب أسنان في أوشفيتز قبل أنْ يُغادر مُسرعاً إلى نصف الكرة الأرضيّة الجنوبيّ مع حقائب من الذهب المُذاب لحشو الأسنان)، وكان مشهوراً بقُطَبِهِ الدقيقة وغير المرئيّة. كان فنّاناً، وليس نجّاراً. في استطاعته أنْ ينظر إلى الجلد الرخو حول عينيك ويرى كيف يستأصل القدر اللازم، وليس أكثر مما ينبغي. في استطاعته أنْ يصنع ثنيات دقيقة غير مرئيّة تمحو خطوط القلق والتقدُّم في السن. كان في استطاعته أنْ يُعيد جبينك إلى عشرينيّات عمرك. وابتسم بعذوبة كما يبتسم أي شخص يتوقّع تلقّي أجوراً ضخمة. وهذا اليوم بالنسبة إليه كان يوم عمل يُساوي مائة ألف وثلاثمائة دولار. وانجرفتُ إلى أرض النوم.

تهاوى الزمن ومات. وأنا لم أمُتْ. (ولكن لو أنني متُّ، لما عرفت، أليس كذلك؟) استيقظتُ في الغرفة الخلفيّة من المستشفى مع ممرّضة تسألني عن حالي. كنتُ متيبّسة. مُكتّفة كدجاجة عيد الميلاد. ومع صداع يضرب بقوة، في كل جزء من رأسي.

«هل تريدين أنْ تذهبي إلى الحمّام؟».

«هل أستطيع؟».

«لا أرى مانعاً»، وأمسكتْ ذراعي.

توجّهتُ إلى الحمّام وأنا أترنّح، واستخدمتُ المرحاض لكنني تجنّبتُ النظر في المرايا. شعرتُ كأنني متُّ وحُنِّطتُ. والآن شعرتُ كأنني مومياء - وكأنَّ مخّي قد أُفرِغ من أنفي، وكأنَّ المُحنِّطين أفرغوا روحي أيضاً. وجررتُ نفسي عائدةً إلى السرير. أو السرير النقّال الذي جعلوا منه سريراً.

«كيف أبدو؟».

قالت الممرضة «لا بأس، إذا أخذنا الظروف بعين الاعتبار. هل أنت جائعة؟».

«أعتقد ذلك».

«هذه دلالة جيدة».

كان مذاق دقيق الشوفان الجاهز أفضل من أي وجبة إفطار تناولته في حياتي.

قلتُ في نفسي: إنني آكل. لا بدّ أنني على قيد الحياة.

الأيام التي تلتْ - من أكياس الثلج، والجمود، والإحساس بتوقّف الحياة - كانت كئيبة. وجثمَ انعدام الحس كالكابوس. لم أطق المكوث في الداخل. ولم أستطع أنْ أخرج. ولم أستطع أنْ أقرأ. كل ما تمكنتُ من فعله كان مشاهدة الألعاب الأوليمبيّة على شاشة التلفزيون. إنني مُقتنعة بأنَّ قضاء ساعات طوال في مشاهدة التلفزيون يعمل في الحقيقة على تخفيض نسبة الذكاء عند المرء. إنَّ التلفزيون لا يهتمّ بالمحتوى. بل بالأضواء الوامضة التي تلازمك داخل غرفة خالية.

استعدْتُ عافيتي على سماع لحنِ القفز الثنائي ثم الثلاثي بمزلجة الجليد في الهواء. وكان يمكن للمتزلجين أنْ يتزلجوا على وجهي، إذا أخذنا بعين الاعتبار ما كنتُ أشعر به. كل ما كان عليّ أنْ أفعل هو أنْ

أحدِّق إلى شاشة التلفزيون وأُغيِّر أكياس الثلج. طلبتُ إحضار مرق لحم ومثلَّجات من خدم الغرفة. وكنتُ قد رأيتُ أحلاماً تراءى لي فيها جلدي (بأكمله مع العضلات وشرايين الدم) وقد نُزِعَ عن جمجمتي. وذات ليلة، أيقظني هدير إطلاق إنذار الحريق وسُمِعَ إعلان مُسجَّل: «يبدو أنَّ هناك تجربة لإنذار الحريق. انتظروا المزيد من التعليمات من فضلكم». تكرّر هذا النداء على مدى ساعتين بين فواصل مدتها سبع دقائق كنتُ في أثنائها أتصل كالمجنونة بالمكتب الرئيس، وأحصل على إشارة مشغول. وعندما تمكّنتُ أخيراً من الاتصال به، أعلنَ البوَّاب أنه إنذارٌ زائف. لكنَّ الأمر كان يستحقّ العناء. فبعد زوال آثار الرضوض، لاحظتُ زيادة في تعرّضي للمغازلة.

إنْ كانت الحياة ليست أكثر من نكتة تافهة، فلِمَ أزعجتُ نفسي بإجراء عمليّة شدّ وجه؟

أصرّت أمي قائلة «لا أُصدّق أنكِ أجريتِ عمليّة شد وجه. أنتِ أذكى من أنْ تفعلي هذا».

أقول «يبدو أنَّ هذا غير صحيح».

تسأل أمي بسخرية «وهل منحك هذا زخماً جديداً في الحياة؟».

«ماذا تعتقدين، سيدة وندرمان؟».

تقول أمي «لا تنادني بالسيدة وندرمان». كانت عادة عائليّة قديمة. كان والدي يلجأ إليها ساخراً عندما يبلغ غضبه أوجه من أمي. لقد كان زواجهما كتيماً تتخلّله فترات من المُشاكسة، خلاف زواجي من آشر. كيف وصلتُ إلى هنا؟ كيف أصبحتُ فانيسا وندرمان؟ وماذا تريد فانيسا وندرمان؟ الحب، والجنس، والخلود – كل الأشياء التي لم نحظَ بها. ما هو المسار البياني للحياة؟ أريد! أريد!

ولكن ماذا أردتُ؟ أردتُ الجنس لكي أُثبتَ أنني لن أموت أبداً.

-3-

آل وندرمان هائجون

إنَّ المبدأ الوحيد الذي تؤمن به هوليوود
هو مبدأ الانتحال.

• دوروثي باركر

في أيام عزّهم عاش آل وندرمان حياة ساحرة في شقّة على السطح في ريفرسايد درايف كان يمتلكها ذات يوم جورج غيرشوين[5]. كانوا يُقيمون حفلات فخمة تُلمَح فيها وجوه شهيرة في غُرفٍ يملؤها الدخان. «نَقْرُ أنغام على البيانو في الشقّة المجاورة / تلك الكلمات المتلعثمة التي تُخبرك بما يعنيه قلبي». لقد حسبتُ أنَّ هذين البيتين كُتِبا من أجل والديّ؛ وقد أثارا حتماً مشاعري حول حفلاتهما – حيث كانت سيدات بأثواب الساتان والحرير يُدخنّ السجائر من حامل، ويقرعن كؤوس الشمبانيا، ويشربن بطريقة لم يعُد أحد يلجأ إليها، ويبدّلن الأزواج كما يُبدّلن أحذيتهن. ورجال بشعورٍ سوداء لامعة وشوارب على طراز

5- جورج غيرشوين (1898 – 1937): مؤلّف موسيقي أميركي لموسيقى الجاز. من أعماله «بورغي وبيس» و«رابسودي زرقاء». كان يتعاون مع أخيه أيرا غيرشوين ويستعين به في كتابة كلمات الأغاني – المترجم.

أدولف مانجو[6]. وكانت سيارات الليموزين متوقّفة تكتنف المبنى، في انتظارهم. وكان السائقون من السود ويعتمرون قلنسوات. وكانت الخادمات من السود ويتظاهرن بأنهنّ خنوعات. وكنَّ يعتمرنَ قبعاتهن عندما يغادرن إلى بيوتهن في آخر النهار.

عندما أنهت الحملة المكارثيّة نمط حياتهما الاستعراضيّ وعاد والداي من هوليوود في ذروة فترة اللائحة السوداء[7]، عثرا على شقّة غيرشوين وملأاها طوال ثلاثة عقود بالكريّات. وقد كانت أشبه بموقع تصوير فيلم سينمائيّ بقدر ما كانت شقّة. حتى أرضيّة الرواق صُقِلَتْ لكي تصلح للرقص الاستعراضي. وطُليت آلتا البيانو الكبيرتين بالورنيش الأبيض. وكانت غرفة المكتب تحتوي صوراً مؤطَّرة أُخِذَتْ من أفلامهما كلها ونُسخاً مكسوّة بالجلد لكل السيناريوهات. أما غرفة زينة السيدات في آخر الرواق فكانت قاعة شاسعة من المرايا حيث كان في استطاعتي أنْ أحدّق إلى انعكاسات صورتي مُضاعفةً عدداً غير محدودٍ من المَرَّات وهي تُصبح أشدّ خُضرة وغموضاً مع كل انعكاس.

لم أتوصّل أبداً إلى أنْ أعرف حقاً إلى أيّ مدى تأثّرا باللائحة السوداء. لقد كان لديهما الكثير من الأصدقاء الذين دُمِّرَتْ حياتهم بسببها، لكنَّ والديَّ كانا طموحين بشراسة – حتى في حقبة الثلاثينيات المُلتزمة – للتوقيع على العرائض غير المناسِبة. وقد تزامنت اللائحة السوداء مع نهاية أيام طيشِهما كممثِّلَين. على أية حال كان قد حان الوقت للقيام بعمل آخر.

وهكذا عادا وأنشأا هوليوود على ضفاف نهر هدسن. كانا قد نجحا

---

6 – أدولف مانجو (1890 – 1963): ممثل أميركي في السينما الصامتة والناطقة. اشترك في أفلام تشارلي تشابلن – المترجم.

7 – خلال فترة التطهير المكارثيّة في أميركا أوائل خمسينيات القرن الماضي، كان يوضع كل شخص ممَّن يُشك في أنه شيوعيّ أو يدعم الشيوعيين ضمن لائحة سوداء لكي يخضع للتحقيق والمحاكمة. وقد تضمّنت تلك اللائحة أسماءً لشخصيات كثيرة بارزة ومعروفة من مفكّرين وكتّاب وممثّلين ومُخرجين ورجال سياسة وجيش – المترجم.

بذكاء في الفرار بنقود هوليوود (على الرغم مما قالته دوروثي باركر عن أنها تبخّرتْ كتبخُّر الثّلج في راحة الكفّ)، وأخيراً ازدهر محلّهما لبيع كتب المسرح ودفاتر تواقيع المشاهير، ولهواة اقتناء الكتب. كان والداي في مجال الأعمال - تجارة الكتب النادرة التي يحتلها أشخاص مملّون وسيدات من زيجات في بوسطن - فَذَّين. كان لديهما ميلٌ إلى كل ما هو استعراضيّ وإلى الاختلاط بالناس. وكثيرٌ من الأزواج جمع بينهما الحب في حفلاتهما. وكأنَّ حبّهما كان مُعدياً.

بالنسبة لثلاث بنات صغيرات يلبسن أثواباً من المخمل الأسود وينتعلن أحذية ميري جين الجلدية التي يجب تثبيتها بأزرار، يُراقِبْن من مكان وقوفهنّ على منتصف الدرج المؤدي إلى تلك الحفلات - بدا لنا أنَّ والدينا كانا مَلِكَ ومَلِكةَ الهدوء. بدا لنا أننا لن نتوصّل أبداً إلى أنْ نعيش حياة مُبهِرة كحياتهما. وبدا أنَّ ذروة الطموح هي أنْ نكبُر ***ونُصبح*** كوالدينا.

الآن بتُّ أعلم أنَّ العديد من الأطفال لديهم الشعور نفسه. وأنَّ المحظوظين منهم هم الذين يتجاوزون ذلك الشعور. أما توني، وإيمي وأنا فلم نتمكن أبداً من تجاوزه. ولهذا السبب كانت حياتنا شاقة جداً. لم نكن نجوع أو نشرب ماءً مُلوّثاً، لكننا كنا عالقات مع ذلك فيما يُشبه الفقر العاطفي.

إنَّ ما يخطر في بالي دائماً، وأنا جالسة على سرير والديّ، هو أنَّه حان الوقت لخلع ثوب المخمل الأسود والتوقف عن الجلوس على منتصف الدَرَج.

في إحدى حفلات والديّ قرّرتُ للمرة الأولى أنْ أُصبح ممثّلة. والسبب كان ليبوريللو خان. كنتُ في السادسة عشرة عندما قابلتُ ليب خان (في ذلك الوقت لم أفهم التورية) ليب - الذي كان والده مغني أوبرا في دار أوبرا متروبوليتان - كان قد سُمّيَ في الأصل باسم صديق دون جوان الحميم. كان شيئاً قذراً يُمارَس على طفلة. كان اسم ليب

نكتة، لذلك حاولَ أنْ يُحوّل حياته إلى نكتة. وكبُرَ وأصبحَ أحد أولئك الرجال المرحين في منتصف العمر، الذين يبدون ممتلئين ومُسالمين ويبرعون في جذب الفتيات المراهقات إليهم. كان أول رجل يجعلني أعرف أنني جميلة، وكان شديد الرقّة والمهارة حتى أنه سرعان ما جعل كل الصِبية في السادسة عشرة الذين كنتُ أعرفهم يبدون كالبلهاء. (ولم يكن ذلك أمراً صعباً).

قابلتُ ليب في إحدى تلك الحفلات الأولى التي شربتُ فيها الفودكا (بتقليد مُحاكٍ لأمي). كنتُ أرتدي ثوباً منفلتاً بلون زهري قرنفليّ وذا ذيل كأثواب الحريم (كانت الموضة في تلك الأيام هي ذيل الحريم)، ومع كل مشروب، كان ثدياي يبرزان أكثر على صدري المرتفع. وكان ليب يُحدّق إلى ثدييّ ويقول «يجب أنْ تأتي إلى صالة الشاي الروسيّة وتتناولي الغداء معي». وكانت صالة الشاي الروسيّة تعني في تلك الأيام عالم الاستعراض المُبهرج. والآن تحوّلت إلى صورة زائفة بلا ملامح - ككل شيء آخر يتّصل بهذا العالم المتلاشي.

كان ليب مُنتجاً مهمّاً في برودواي يُنتج كل شيء من أعمال شكسبير وحتى أعمال بينتر. شخصيّة *مهمّة*. وعدني بإسناد دور جولييت إليّ في إنتاج جديد لمسرحيّة *روميو وجولييت*، وعلى الرغم من أنَّ الدور أخفق، إلّا أنَّ علاقتي بليب لم تُخفِق.

هل كان يمكن، من دون ليب خان، أنْ أُجهِض وأنا في السادسة عشرة، وأترك الدراسة وأنا في الثامنة عشرة، وأنتقل إلى حي فيليج، وأظهر بدور آنْ في عرض أُقيم في الشارع لكتاب «مذكرات آنْ فرانك» وأنا في الثامنة عشرة (الدور الذي ضلّلني وجعلني أعتقد أنَّ المسرح هو مهنة معقولة)؟ كلا. كلا. كلا. وعندما أعود بتفكيري، أرى أنه كان ينبغي أنْ أمكث في والدن (التي كانت الحياة فيها مُنطلقة بحيث تتسع لممارسة أنواع الدجل كافة)، وأُنهي دراستي الثانوية، وألتحق بكليّةٍ تُعنى بالفنون مثل بيننغتون أو بارد، ولا أتورّط في علاقة مع ليب خان - ولكنْ كيف كان

لي أنْ أعلمَ هذا في ذلك الوقت؟ لقد بدا ولعُه بي كأنه مفتاح الحياة التي أردتُها.

كان أحد أولئك الرجال الممتلئين الجذّابين. يهتز بطنه عندما يضحك وهو عارٍ. ثدياه كبيران كثديّ. ولكن لديه أيضاً عينان تذوبان رقّة ورموشاً سوداء حريريّة طويلة، ويرتدي سترة من الجوخ الرائع، وله لحية وشارب مشوب بالشيب (مما جعله يبدو جديراً بالثقة)، ويدخّن غليون ميرشوم[8]، ويفوح منه عبق التبغ المُعسَّل وعطر أولد سبايس (جذّاب جنسياً، إذن). كان يمضغ علكة بنكهة القرفة - وكنتُ أجد ذلك شيئاً غريباً وغير مؤذٍ. لم أرَ أنه بدين. بدا لي أشبه بفولستاف[9] - بما أنه كان في استطاعته أنْ يقطف مقاطع طويلة من شكسبير. لقد كان هو إنجازي بدل تقديمي أطروحة تخرُّجي.

«ولكن، صمتاً! ما هذا الضوء المنبثق من تلك النافذة؟... إنه الشرق، وجولييت هي الشمس...».

تخيّلي أحدهم يقتطف هذا على مسمعك بينما أنتِ تتغيّبين عن المدرسة لكي تشربي الفودكا وتأكلي فطائر بليني بلحم الدولفين في صالة شرب الشاي الروسي - ودائماً تعتقدين أنّ أحد أصدقاء والدك سوف يلمحك مع ليب! لقد كان الخوف من الفضيحة جزءاً من الإثارة.

بما أنَّ ليب كان السبب في تركي مقعد الدراسة وأنا في السابعة عشرة، بعد أنْ أجهضتُ وأنا في السادسة عشرة، يمكن القول إنه كان مُتحرِّشاً بالأطفال دمَّرَ حياتي. ولكن لم يكن هذا رأيي في ذلك الوقت. لقد كنتُ غاية في السعادة لأنني أصبحتُ بالغة وممثّلة. وافترضتُ أنَّ تقديم الخدمات الجنسيّة يتلاءم مع هذا المجال. في الحقيقة، كان ليب هو الذي دبَّرَ عملية الإجهاض - في تلك الأيام حين كان الإجهاض عملاً

8 - الميرشوم: معدن سيليكات المغنيسيوم الذي تُصنع منه الغلايين - المترجم.

9 - فولستاف: أو سير جون فولستاف، البدين الممتلئ في مسرحية شكسبير «*هنري الرابع*» - المترجم.

غير شرعيّ - بمساعدة أحد أولئك الأطباء المُختصّين بعالم المسرح الاستعراضي وكان يفتح عيادة قريبة من صالة شرب الشاي الروسيّ.

مهما كان شعوري بأنني بالغة وأنا أتسلّل هاربة لكي أقابل ليب في قاعة شرب الشاي الروسيّ ومن ثم أذهب إلى فرشته (كما كان يسميها)، الكائنة عند تقاطُع شارع برودواي والشارع الخمسين في شقّةٍ قديمة كئيبة - كان يستخدمها أيضاً كغرفة مكتب - تخيّلي مدى خوفي من أنني هاربة لكي أُجري عمليّة إجهاض من غير عِلم أبويّ. كم شعرت بأنّني وحيدة! على الرغم من أنَّ ليب رافقني وأمسك بيدي. بل ودفع التكاليف. وأعتقد أنّه حصل من أجلي على دور آنْ فرانك لأنه شعر بإحساس شديد بالذنب.

أيٌّ من هذه المشاهد يجب أنْ أُقدِّم؟ مشهد عيادة الطبيب القذرة التي أُجريَتْ فيها العمليّة؟ أم شقّة ليب الكئيبة، الشبيهة بالكهف وتواجه فناءً مملوءاً بأعشاش الحمام القذرة؟ أم مشهد ليب وهو يرقص عارياً وبطنه يهتز؟

لم تكن ممارسة الجنس معه ممتعة، ولكن في ذلك الوقت لم يكن لديّ ما أقارنها به. ولكن كان يعرف كيف يلعق الكس - ربما كان بذلك تعويضاً عن كون أيره ليس دائماً جاهزاً للعمل في تلك الأيام قبل ظهور الفياغرا. لقد عوَّضَ عن رخاوة قضيبه بحقيقة الشّعر الصلبة. ثم جاء دور آنْ فرانك، التي مثَّلَتْ في تلك الأيام كل براءة، وجمال، وحقيقة - ذروة رغبة كل ممثلة ناشئة.

إنني أرى نفسي في السادسة عشرة، أمشي يداً بيد مع ليب في طريقي إلى عرين طبيب الإجهاض، وأنا متأكّدة من أنني بحلول الليل سأكون في عِداد الموتى. (حينئذٍ كان الجميع قد سمعوا عن فتاة ماتت - أو أُصيبَتْ بالعُقم - بعد إجراء عمليّة إجهاض فاشلة).

لم تكن هناك أيّة ممرّضة، أو موظَّف استقبال. كانت عمليات الإجهاض تُجرى حينئذٍ في غياب الشهود أو التخدير. لبستُ رداءً خاصاً

(من أجل شدّ الوجه لاحقاً)، وتمدّدتُ على طاولة وقدماي الحافيتان داخل رِكابٍ بارد، وقبلتُ بامتنان جرعة الويسكي التي عُرِضَتْ عليّ، وسقطتُ في ثقبٍ أحمر من الألم الشديد إلى درجة أنني ما زلتُ أشعر به حتى هذا اليوم. وما زلتُ أتذكّر التقلُّص الرهيب في رحمي، وأتذكّر أنني تقيّأتُ وكدتُ أختنق بقيئي، وأتذكّر الطبيب وهو يُسكتني. وعندما سألتُ عن ليب أخبرني الطبيب أنه «ذهبَ لحضور اجتماع» – الذي لم تكن له أية صِلة في تلك الأيام بجمعيّة السيارات – لكنه أرسل سيارة لأجلي.

أكاد أرى نفسي حينئذٍ، شاحبة، أرتجفُ، خالية من أي أمل في الحياة، في المقعد الخلفي لسيارة كاديلاك ليموزين، أحاول أنْ أتحلّى بالشجاعة، أحاول ألّا أبكي على أمي، أحاول أنْ أشعر بأنّني بالغة وأنا أتناول وجبة الغداء مع ليب في صالة الشاي الروسيّة. ولكن بلا جدوى. كنتُ مشوّشة. مرتاحة، نعم، لكنَّ رأسي كان ممتلئاً برؤى أطفال مواليد لونهم ورديّ، وقلبي كعشٍّ فارغ، وغضبي مدفونٌ في مليون عُذرٍ لغياب ليب (لقد كان لديه اجتماع، وصفقة يجب أنْ يعقدها، ومسؤوليات يجب التهرُّب منها لأنَّ ألمها لا يُطاق). كنتُ رئيفة به أكثر من رأفتي بنفسي.

كانت أياماً طيّبة من الخيارات. إما أنْ أُصبح ممثّلة أو أُنجِبَ أطفالاً. إما أنْ أستسلم لوداعة الحياة المنزليّة، الناعمة، والمُدمِّرة للروح في نهاية المطاف، أو أنْ أُصبح امرأةً مُفوّهة ذاتَ عينين يُزيّنهما الكحل أرقى بكثير من أنْ *أعترف* بحاجتي إلى إنجاب طفل. إما كيت هيبورن أو ربّة المنزل السعيدة – ولم يكن هناك حلٌّ وسط. إنَّ كلَّ خَيارٍ يتوفّر للمرأة ينطوي على ألم ونكران الذات. وجيل ابنتي، الذي أدار ظهره لأساليب الحياة المتألّقة من أجل إنجاب أطفال متألّقين، تعلّمَ هذا بالتدريج. إنَّ امرأةً من غير دَخْلٍ تُصبح عبدةً في عالمٍ يعبُد شيطان المال الجشع. وو-هوو! كان يمكن أنْ أخبرهم هذا. ولكنّ هل كانوا سيُصغون؟ هل البنات يُصغين للأمهات أو للأمهات القدوات؟ كلا. لا تستطيعين أنْ تقولي أي شيء لأحد! تذكّري هذا والزَمي الصَّمت. إنَّ نصفَ الأُبوّة يدور حول إبقاء

فوهتك، كما يُسمّي البريطانيون الفم، *مُغلقة*. إنه عالم مونتي بايثون[10] – وقد أعاد كلٌ من لويد بلانكفاين وجيمي دايموند كتابة موعظة الجبل: «لا تُدِرْ خدك الآخر إلا إذا أردتَ أنْ تُنشَل». وهذا ما حصل.

ولكن ربما أنا التي تُعيد كتابة التاريخ. الآن وقد بلغتُ الستين واختفت بيوضي ومسيرتي كممثّلة، يصرخ كل طفلٍ لم أَلِده في وجهي كشبح على متن غيمة مزروعة بالأطفال الأشباح. ولكن ماذا كنتُ أعلمُ؟ هل كنتُ أعلمُ أنَّ والديّ سوف يطعنان في السن ويمرضان؟ ما كنتُ لأُصدِّق أنَّ ذلك ممكن. حينئذٍ بديا ممتلئين بالقوة.

قبل وقت ليس بالبعيد قرأتُ في مجلة تايمز أنَّ ليب خان قد توفي. قلتُ في نفسي: عظيم، الآن لا أحد سوف يعلم. أصبح سرّي في مأمن معي. وطبيب الإجهاض توفي منذ زمن بعيد.

وهكذا نشأنا في عالم هوليوود الخرافي حقبة الأربعينيات، ومن ثمّ عُدنا إلى نيويورك في حقبة الخمسينيات الرائعة. وتذكّرنا جميعاً أولاد نجوم السينما في سيارات الليموزين يُطالبون بهدايا عيد الميلاد. وتذكّرنا أزياء عيد هالوين المُستعارة من استديوهات التصوير. وكان لا يزال في استطاعتنا أنْ نشمّ عبق أشجار الأوكاليبتوس في ويستوود ونسمع هدير أمواج المحيط في ماليبو وترانكاس. لقد كنا أطفال كاليفورنيا نُقلوا ليُزرعوا من جديد في نيويورك لكنَّ العمليّة لم تنجح. وأحياناً أعتقد أنَّ هذا هو السبب في أننا نحن الثلاث نشتاق إلى مناظر البحر المتوسط. وقد عثرتْ توني على ما أرادت ووقعتْ إيمي في علاقة حب يائسة في إيطاليا. وكنتُ أنا متآلفة مع الشاطئين منذ زمن بعيد. كنتُ أتنقّل جيئة وذهاباً بين نيويورك ولوس أنجليس ككرة البينغ-بونغ خلال مُعظم حياتي المهنيّة. والمكان الذي شعرتُ فيه بألفة أكثر كان الهواء الذي يفصل بينهما. لم أكنْ أنتمي إلى أي مكان. وما زال هذا هو شعوري في الغالب.

---

10 – مونتي بايثون: اسم فرقة كوميدية سريالية بريطانية وعروض سيرك – المترجم.

عندما تزوَّجْتُ من آشر، انتقلتْ مسيرة حياتي كممثّلة إلى ذلك المكان الذي تنتهي إليه مسيرات حياة النساء كممثلات عندما يقتربن من سن الخمسين. لم تُقدَّم لي أعمال مهمّة، لذلك تركتُ المهنة. رفضتُ أنْ أقوم بدور الأم، ثمّ الجدّة، ثم العجوز الشمطاء المجنونة. أصبحتُ زوجة آشر بكلِّ كامل. وبما أنَّ آشر بدا ثرياً ظاهرياً، كان عملي كزوجة مُرهِقاً. استقبلنا ضيوفاً في مقاطعة ليتشفيلد، وعلى الشاطئ، وفي مانهاتن، وفي لبيرون. كنتُ المُضيفة المثاليّة ومُنظِّمة مناسبات – وهذه مهنة بحدّ ذاتها، ربما المهنة الأقدَم – ولكن من أجل تلك الأخرى. ومرّتْ الأيام. وما إنْ يترجّل المرء من قطار مسيرة العمل، لا يعود من السهل جداً ركوبه من جديد. لقد تخلّيتُ عن صِلاتي كلها.

طبعاً، لو أنني بقيتُ أعمل، لما اضطُررتُ إلى وضع إعلان لطلب الممارسة الجنسيّة. عندما تكونين نشطة في أداء مهنتك، يظهر الرجال بشكل روتيني. قد يكونون أقلّ من رجال – ممثلين – لكنهم يعرفون كيف ***يظهرون*** كرجال. هذه هي حرفتهم. إنهم بارعون جداً في العلاقات العابرة والخطرة. العلاقات الدائمة تُخيفهم. من هذه الناحية سارت الأمور كلها معي سيراً حسناً ما دمتُ ***أنا*** الخائفة من العلاقات الدائمة.

عندما أعود بذاكرتي إلى كل تلك العلاقات العابرة والخطرة التي أقمتها في مجال العمل، ينتابني الشك في مقدرتي على أنْ أُقيم مثلها الآن – حتى لو أنني بقيتُ في العمل. إنَّ مباشرة علاقة يتطلَّب قدراً من التفاؤل – تفاؤلٌ ربما فقدته. يجب أنْ تؤمني بأنَّ ثمة رجلاً آخر سوف يقوم بأداء أفضل. وهذا الوضع يزداد صعوبة باطّراد مع تقدّمك في السن.

إنني أكره أنْ أتقدّم في السن. لا أرى أيّ شيء جيد في ذلك. إنَّ منحدر الحياة مملوء بالصخور. آفاقك مُبهمة وكتل الثلج الأسود تظهر في كل مكان، تتربّصُ بكِ لجعلك تنزلقين. ربما كانت موجودة من قبل لكنكِ لم تلاحظيها. والآن هي تكمنُ لكِ عند كلّ منزلَق.

اتّخذتْ مسيرة فانيسا واندرمان الفنيّة مساراً عظيماً منذ أنْ قامت بدور

آن فرانك فصاعداً. لعبتُ دور جولييت، وفيولا، ومس جولي، وماغي القطة[11]، وعدداً كبيراً من أدوار الفتيات المقتولات في السينما. أحياناً كانت النساء في الغالب من الضحايا. (في الواقع، هذا الوضع لم يتغيَّر بقدر ما كنا نأمل). ولكن بالموت كنتُ أكسب عيشي. إلى أنْ طعنتُ في السن ولم أعُد أصلُح للقيام بدورِ الجُثّة الجذّابة.

لا شك في أنني كنتُ أمرُّ بمرحلة صعبة. أردتُ أنْ أنتعش. لم تكن تلك وسيلة جيدة للعيش - أو للموت.

ثم وصلتني رسالة إيميل، ردّاً على طلب الجنس الحرّ، أثارتْ استيائي:

يُعجبني أنّكِ وصفتِ حياتك الزوجيّة بأنها سعيدة
لطالما رأيتُ أنَّ المرأة السعيدة في حياتها الزوجيّة
تصلح أنْ تكون أفضل عاشقة. لا أستطيع أنْ أحتفي
بإله الحب مرةً في الأسبوع لأنني أُقيم بعيداً عن نيويورك،
ولكن ربما أنجح في ذلك مرة في الشهر. هلّا قابلتِني
لتتناول مشروباً في مطعمي المفضّل في نيويورك
ولكي تتفحّصيني؟ لا ارتباط، فقط مشروب. لا تخشي شيئاً،
أنا أيضاً سعيد في زواجي.

احتفظتُ بالإيميل المكتوب في كيس نقودي على مدى أسابيع. مجرّد احتفاظي به جعل الأمل حيّاً داخلي بصورة مُبهمة - كأنَّ حياتي الجنسيّة لم تنتهِ بعد، وكأنَّ ما زال لديّ أمل. ثم كتبتُ، بتهوُّر، ردّاً إلى عنوان الإيميل المذكور:

إنَّ هـ. م. و. تحبّ أنْ ترى صورتك.

---

11 - ماغي القطة: المقصود بها شخصية ماغي في مسرحية تنيسي وليامز «*قطة على سطح من الصفيح الساخن*» - المترجم.

في الحال تقريباً تلقّيتُ صورة لرجل بنيّ الشعر وسيم ذي لحية يشوبها الشيب وعينين زرقاوَين واسعتين. بدا في الأربعين من العمر. قال في إيميله «اتصلي بي». وظهر رقم هاتف.

وفعلت. بدا لطيفاً. ودار بيننا حديث ممتع وإنْ كان مرتبكاً قليلاً.

سألني «هل تُقابلينني في المرة التالية التي أحضر إلى نيويورك؟».

قلتُ «ولِمَ لا؟».

«لِمَ لا تقولي نعم أو لا؟».

«نعم».

كان عليّ أنْ أختار هذا أو الثلج الأسود.

لن يكون آشر سعيداً إذا استسلمتُ لفكرة الانتحار. الجنس أفضل من الانتحار، وهذا لم يكن حتى جنساً – كان مجرد جلوس لتناول مشروب.

تقابلنا في ملهى «21»، تحت سقفٍ من دُمى لأعضاء ذكريّة جنسيّة. لم أكن أعلم أين أنا. وطبعاً، كنتُ متوترة الأعصاب. ورحتُ أتساءل هل أستعمل اسمي الحقيقي أم لا أستخدمه. وحملتُ وردة بيضاء كما اتفقنا كعلامة تدلّ على هويتي.

دخلَ رجل وسيم، طويل القامة، ذو عينين زرقاوين مُذهلتين، يحمل أيضاً وردة بيضاء. أخذ يتلفّت حوله في صالة الملهى إلى أنْ وجدني، جالسة في الركن. وجذب كرسيّاً.

قال «لا بدّ أنكِ هـ. م. و.».

«أنا هي».

«وأنا هـ. م. م. – الرجل السعيد في زواجه».

«هذا ما أرى».

قال «أنا سعيد لأنكِ أتيتِ». ثم سادت فترة من الصمت. لم نعرف ماذا نقول بعد ذلك.

«هلّا ذكرتَ لي اسمكَ الحقيقي؟».

«نعم: ديفيد. وأنتِ؟».

«لستُ مُستعدّة لذِكره».

«فبماذا أناديك؟».

«سمِّني سيرينا. قد يكون له تأثير ساحر».

«آمل ذلك. أخبريني لِمَ وضعتِ ذلك الإعلان. يحدوني الفضول لمعرفة السبب».

«حسنٌ، إنني أعبدُ زوجي، لكنّه أكبر سناً مني بكثير، وأنا أرى أنَّ الناس يموتون تباعاً من حولي».

«والممارسة الجنسيّة قليلة وأنتِ تشتاقين إليها، صح؟».

شعرت بالذنب حتى وأنا أومئ برأسي موافقة، ولم أُدلِ بأيّ جواب ولم أفعل شيئاً.

سألتُ «أخبرني عن نفسك».

«زوجتي مريضة. سوف أشعر بأنني نذل إذا تخلّيتُ عنها، لكنَّ حياتي كئيبة جداً. كنتُ آمل أنْ أتخلَّصَ من الكآبة. لا أريد أنْ أتورّط مع أي شخص يعرفها أو يعرفني، ولكن بما أنني أحضر إلى نيويورك بين حين وآخر... شاهدتُ الإعلان وفكّرتُ في المُجازفة. في الواقع أنا أشعر بالرعب».

«وأنا أيضاً». أيُعقل أننا كنا متلائمَين مع بعضنا؟

«هل أُحضرُ لك مشروباً؟».

«من فضلك».

نادى على النادل وانتظرنا إحضار المشروب - نبيذ أحمر لأجلي، وبوربون من أجله.

قال «أنتِ جميلة، وأنا متأكّد من أنني شاهدتُكِ من قبل».

«مستحيل».

«لماذا مستحيل؟».

«لقد أمضيتُ حياتي كلها وأنا ربّة منزل في الحيّ الشرقي الأعلى» كذبتُ. لم تكن لديّ أية نيّة في كشف هويتي.

«لماذا تعتبرين هذا شيئاً سيّئاً؟».

«في نيويورك يعتبرون أنَّ من الإجرام ألّا تفعل شيئاً في حياتك».

«أنا واثق من أنكِ أنجزتِ أشياءَ كثيرة في حياتك. ما كنتِ بدوت بمثل هذه الحيوية لو لم تفعلي».

«شكراً لكَ. هل أبدو حقاً حيوية؟ أحياناً أشعر كأنني شبه ميّتة».

«الجميع يجب أنْ يبدوا ميتين جيّدين هكذا».

«ما الذي يأتي بكَ إلى نيويورك؟».

«إنني أجمع المال من أجل شركتي، أقابل مدراء التمويل الاستثماري، وما شابه».

«رجال بملابس رسميّة؟».

«نعم، وبعض النساء ببدلات رسميّة، ولكن لا أريد أنْ أتحدَّثَ عن هذا. أستطيع أنْ أؤدّي تلك الأعمال وأنا نائم».

«عمَّ تريد أنْ نتحدّث؟».

«عمّا أتى بنا إلى هنا – الخيال».

«أترغب في أنْ تحدّثني عما تتخيَّل؟».

«أفضِّلُ أنْ أُريكِ».

«أُفضّل أنْ أعرفكَ أولاً».

«إنَّ هذا في الغالب يُدمِّر الخيال».

«سوف أُجازف».

«اسمعي، لِمَ لا تأتين إلى جناحي في البالاس – القريب من هنا – وسوف آخذك إلى المكان. هناك سيارة في انتظاري».

فكّرتُ في الأمر. تولّاني القلق. إنه غريب تماماً عني، وفكرة ممارسة الجنس مع شخص غريب تماماً تُرعبني.

«لكنّكَ شخصٌ غريب تماماً عني».

«إذنْ تعرَّفي عليّ».

تصارعتُ مع نفسي. لو كنتُ في العشرين، لقبلتُ التحدّي، أما الآن فتبدو فكرة مرافقة رجل غريب إلى غرفةٍ في فندق حماقة صِرف. هل أُجازفُ بكل الأشياء العظيمة التي تقاسمتها مع آشر من أجل رجل غريب بكل معنى الكلمة؟

قلت «إنَّ والدي يحتضر».

«وهذا سبب آخر يدفعك إلى أنْ تعيشي».

«اسمعْ - اذهبْ إلى جناحك واطلبْ وجبة الغداء وقد أنضمّ إليك هناك إذا واتتني الشجاعة». هل أنا جاهزة للمجازفة أم لا؟ في المعتاد أنا بارعة في طرح كل المجازفات من رأسي، أما الآن فأفكّر في مقدار الخسارة المُحتَمَلة.

«عظيم. الجناح رقم 2733».

غادر. وهرعتُ إلى مرحاض السيدات، وتبوّلت، وأصلحتُ زينتي، ثم أسرعتُ نحو جادة ماديسون قبل أنْ أغيِّر رأيي. ثم درتُ حول المكان ثلاث مرات وأنا في حالة من التشوُّش، أُتساءلُ، هل أنا جاهزة لخوض المغامرة أم لا؟ وتُعاودني روح التهوُّر. سوف أذهب إلى جناحه. ماذا لديّ أخسره ما عدا كل شيء؟

عندما وصلتُ إلى هناك، وجدتُ نادلاً يمدّ مائدة من كافيار الدولفين الأبيض، والسلمون المُدخَّن، والشمبانيا. الجناح شاسع ومُشمس. وديفيد ممتنٌّ لأنني أتيت. وبعد أنْ يغادر النادل، يُقبّلني باحتشام على خدّي. تخدشني لحيتُه.

قال، وهو يبتعد بسرعة، «لا ارتباط».

جلسنا متقابلَين على المائدة وشربنا نخباً من شمبانيا كروغ المُعتّقة. وأعدَّ لي خُبزاً مُحمَّصاً مع الكافيار.

قلتُ في نفسي وأنا مرعوبة، ماذا أفعلُ هنا؟ ومع ذلك، استأنفنا الحديث العابر وكأننا التقينا توّاً في حفلة كوكتيل.

«طوال حياتي وأنا أحلم بمقابلة امرأة تشاركني تخيُّلاتي».

«كلنا نحلم بهذا».

«لكنَّ بعض الأخيلة أشدّ غرابة من غيرها».

«أنا واثقة من أننا جميعاً متشابهون في مجال التخيلات».

قال «ليس بالضرورة». ثم حدّقَ إليّ وتابع قائلاً، «هل أجرؤ؟».

«تجرؤ على ماذا؟».

«أجرؤ على مشاركتك؟».

«لا أرى مانعاً».

«ربّما ينبغي أنْ نكتفي بتناول طعام الغداء وننتظر حتى زيارتي التالية».

«موافقة. على أية حال لا أستطيع أنْ أمكث طويلاً هذا اليوم».

قال «أوه – لا يهم».

نهضَ وذهب إلى غرفة النوم في الجناح. ومضت بضع لحظات. عندما عاد كان يحملُ عالياً بذلة من المطاط الأسود مُزوّدة بسحّاب عند منفرج الساقين وعند الصدر. بدا في وقت واحد مرتبكاً وخبيثاً. رفع جبينه متسائلاً وكأنه يُقلِّد جاك نيكلسون. وأضفتْ عليه لحيته سِمة شيطانيّة عندما رفع جبينه هكذا. «ما رأيك؟».

«ستلبسها أنت؟ أم أنا؟»

«أنتِ. وهناك إضافات تتماشى معها».

«إضافات؟»، لم أتخيّل أي شيء. لم أفكّر في الحال في الأغلال والسلاسل والسياط، على الرغم من أنَّ المركيز دو ساد لا بدّ احتفظ بمثل تلك الأشياء في لاكوست – قلعته المُدمَّرة في لوبيرون.

قال «كما تعلمين، الإضافات».

ثم فهمت. إنه يقصد تلك الأدوات على الطراز القوطي. وعاد ذهني عبر الزمن إلى الوقت الذي قمت فيه بدور جوستين لساد، الفتاة ذات الاثني عشر عاماً وتعمل خادمة والتي قامت الراهبات، والرهبان، والفرسان، *والكونتات* – إلى آخره، باختبار *virtu* (فضيلتها). وكان أحد المخرجين قد حوّل قصة ساد «*جوستين*» إلى فيلم فرنسي قذر.

لقد كان ساد ثوريّاً، طبعاً، يكنُّ بُغضَ الثوريّ للمؤسسات. هل كان الرهبان يدعون إلى الفضيلة؟ إذن هو سوف يدعو إلى الرذيلة. وكما نعلم، كان عضواً في المؤتمر الوطني وكره النفاق بقدر كراهيته لمصدره الرئيس، أي الكنيسة الكاثوليكيّة. وبسبب ذلك أمضى خمسة أعوام في سجن الباستيل وثلاثة عشر عاماً في المصحّ العقلي في شارنتون. ومعظم كتبه ألّفها وهو في السجن – مكان رهيب بالنسبة إلى خليع مثله ليكتب. إنَّ الحريّة، في الأصل، تشوّش الذهن.

في الصورة الفوتوغرافيّة الوحيدة المعروفة له – التُقِطَتْ عندما كان في العشرين – كان يحمل وجهاً عذباً. ربما أنقذ السجن حياته في تلك الفترة الزمنية الدمويّة عندما كان الأرستقراطيون يُعدَمون على المِقصَلة. وهذا زاد حتماً من إنتاجه الأدبيّ.

أوه، لقد قمتُ بممارسات جنسيّة ساديّة مع مخرج ذلك الفيلم – كان شخصاً اسمه كريستيان فلوفييه دانجو، ادَّعى أنه كونت، ينحدر من صُلب أحد أقرباء ساد البعيدين. كان عملاً أضجرني كثيراً – وخطراً إلى آخر مدى. لعلَّ الفتيات اللواتي لم يسمعن بـ«المركيز المُقدَّس» أو حتى بـ *L'Histoire d'O* قصّة أوه[12] أُثِرنَ جنسيّاً بتلك الممارسات – خاصة إذا حَصَلْنَ على المال والجوائز إلى جانب آلام المؤخِّرة واحمرار

12 – قصة أوه: رواية إباحيّة تأليف كاتبة أطلقت على نفسها اسم آن ديكلوزي وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً كشفت عن اسمها الحقيقي، بولين ريج. والقصة تحكي عن رجل يأخذ حبيبته إلى قبو ويمارس معها كل أساليب الجنس الشاذ والسادي. والرواية تحوّلتْ أيضاً إلى فيلم شهير – المترجم.

البظر. لكنني فضّلتُ أكثر بكثير الأضواء الخافتة والموسيقى الناعمة – والحنان، وإنْ كان زائفاً.

كلنا لدينا أشياء معيّنة نفضّلها. أنا أُفضّلُ الجنس الرقيق، النوع الذي يأسر الرجل إلى الأبد قبل أنْ يلمسكِ هناك في الأسفل. لكنَّ مُعظم الناس يشعرون بالذنب من الجنس بحيث يريدون أنْ تتضمّن ممارسته الجريمة والعقاب.

قلتُ بنعومة «لا أعتقد أنّني أرغبُ في هذا».

ناشدني ديفيد «أوه، فقط جرّبي. لن تعرفي حتى تجرّبي».

لا أعرف هل أضحك أم أبكي. إنني لا أستغرب أي ممارسة إنسانيّة، لكنني لا أريد ذلك الزيّ. الله وحده يعلم ما هو غطاء الرأس المتماثل. وكنتُ قد جرّبتُ سلفاً الممارسة الساديّة – عندما كنتُ ممثّلة مبتدئة – مع مخرج اتّضحَ أنّه فاشل. وعنيف أيضاً.

قلت، وأنا أنهض لأغادر: «أعتقد أنني أعرف. شكراً جزيلاً لك على المشروب».

قال همساً «أيتها العاهرة، كيف تضلِّلِينَني هكذا؟».

«حسبتُ أنَّ هذه مجرد دعوة إلى *الغداء*».

«وأنا حسبتُ أنكِ *جادّة*».

«هذا ما حسبته أنا أيضاً، لكنني لم أعِدْكَ بأي شيء».

قبض بشدّة على ذراعي حتى آلمني: «أستطيع أنْ أحصل على فتيات أصغر منكِ سناً».

«أنا متأكّدة من أنك تستطيع – اتركْني!».

«أنتِ في الخمسين على الأقلّ».

«شكراً لك، سوف أقول هذا لطبيب التجميل الخاص بي. وأنا واثقة من أنه سوف يسعد بهذا».

ونجحتُ بصورة ما من بلوغ الباب من غير أنْ يلمَسَني من جديد.

ركضتُ نحو المصعد وأنا أتصبَّبُ عَرقاً. لم يلحقْ بي. هبطتُ إلى البهو. ومشيتُ مسافة من الطريق هرولةً، مُعتقدة أنَّ سيارة ليموزين فارهة تتبعني. قعقع كعب حذائي العالي على الرصيف. بدأتْ أنفاسي تنقطع.

كيف استطعتِ أنْ تكوني بهذه الحماقة؟ أنتِ تعلمين أنَّ العالم ممتلئٌ بالمجانين الذين تعلّموا كيف يُخفون جنونهم مؤقّتاً. تسعين وراء عاشق فتلتقين بمجنون!

ثم استوقفتُ سيارة أجرة وذهبتُ لأَعُوْدَ أبوَيّ.

يهذي والدي قائلاً «أنا أبلغ المائة وثلاثة وتسعين عاماً وشبه ميّت. القصة نفسها».

كانت فيكتوريا قد جعلته ينهض ويجلس على الطاولة ليشرب الشاي وهو غاضب.

سألتني أمي «ماذا ألمَّ بوالدك؟».

قلت «أنتِ المتزوّجة منه، لا أنا».

قالت «لكنّه كثير التذمُّر. لم يكن هكذا أبداً».

أذهبُ وأُقبّل والدي على رأسه. يقول بلهجة الطرد «القصة نفسها. أنا أعلم لِمَ أتيتِ إلى هنا».

«لمَ؟».

«من أجل المال».

«غير صحيح. لا أريد مالك».

قال والدي «هراء»، وبدأ يعبث لكي يُغلِق أداة السمع.

قالت فيرونيكا «إياكَ أنْ تُغلِق أداة السمع، سيد ووندرمان. لقد جاءت فانيسا لكي تعودك».

«لِمَ؟ أنا شبه ميّتْ. يجب أنْ أقفز من النافذة». وينهض ويمشي نحو نافذة غرفة الطعام، لكنَّ فيرونيكا تمنعه.

قالت «يجب أنْ تُحصي نِعمَك. انظر إلى المشرَّدين في الشارع. إنَّ حياتك طيّبة. يجب أنْ تنطوي على قدرٍ من الامتنان».

زمجر والدي «امتنان، ابتذال[13]».

قالت أمي «على الأقل ما زال في استطاعته أنْ يستخدم القافية المتشابهة».

صرخ والدي «دعيني أعود إلى السرير! لقد طالت مدة استيقاظي!» كان أشبه بالشاعر ديلون توماس وهو يصبّ جام غضبه على خفوت الضوء، وأشبه بإيفان إيليتش[14] وهو يرتدي كيسه الأسود.

قالت أمي «إنه ينام طوال الوقت، أنا لا أفهم».

في أفلام السينما تجري أحاديث مُطوّلة، وجادّة، قبل الرحيل، لكنَّ ليس هذا ما يحدث في حياة الواقع – أم ماذا؟ لقد هرب والدي من أمي بالطريقة الوحيدة التي أُتيحتْ له. وكان يهرب منها بالنوم كما كان قد هرب ذات مرة منها بالعمل.

قلت «أنا أفهم». لم يكن قد مضى على وجودي هناك أكثر من خمس دقائق وبدأتُ أتوق إلى المغادرة.

أتذكّر زيّ المطاط فأبدأ فجأة بالضحك.

تسألني أمّي بينما كان والدي يمشي بخُطى متعثّرة في الرواق نحو غرفة نومه، كأنه سجين وهو يرتدي البيجاما المُخطَّطة «علامَ تضحكين؟».

«لا شيء».

«ما هو هذا اللا شيء. *أخبريني*».

«إنني أفكِّرُ في أننا إذا كنا مُضطرين إلى رؤية العالم بوصفه مأساة أو ملهاة، نستطيع أنْ نختار رؤيته كملهاة. هذا مُمتع أكثر».

---

13 – الكلمتان لهما لفظ متشابه بالإنكليزيّة gratitude, platitude – المترجم.

14 – إشارة إلى قصة ليو تولستوي «موت إيفان إيليتش» – المترجم.

قالت أمي «أتّفق معك». أشتاق إلى أنْ أخبرها عن زيّ المطاط. سوف تفهم الناحية العبثيّة منه. حتى وهي في حالتها الراهنة.

عندئذٍ اهتزَّ هاتفي. استرقتُ نظرة إليه. كانت الرسالة من ذلك العاشق ذي بذلة المطاط – أو هذا ما اعتقدتُ على الأقلّ.

كتب يقول «يا لك من عاهرة!»؛ أصبح رقم هاتفي النقّال في حوزة ذلك السافل.

فجأة سألتني أمي «هل أنتِ سعيدة، يا حبيبتي؟». لقد أصبحت ملاكاً بقدر ما كان والدي شيطاناً.

أسألها «ألا أبدو سعيدة؟».

قالت أمي «تبدين قلقة. يمكن للأم دائماً أنْ تعرف».

ذهبتُ إلى الغرفة المجاورة واتصلتُ بصديقتي إيزادورا. قلت عبر الهاتف «إنني أعود والديّ وأحتاج إلى مشروب».

«هذا آخر ما تحتاجين إليه... ما الذي يجري؟».

«إنَّ والديّ يحتضران وقابلتُ رجلاً يريد مني أنْ ألبس زياً من المطاط لكي أُثيره».

انفجرتْ إيزادورا في نوبات من الضحك. «لا بدّ أنني قابلته ذات يوم – أو أخاه التوأم. إنك لستِ في حاجة إليه بقدر عدم حاجتك إلى مشروب».

«تعالي – قابليني لنحتسي القهوة. يمكننا أنْ نتبادل الملاحظات».

عندما ظهرت إيزادورا في مقهى الإسبريسو الذي نتقابل فيه دائماً، فوجئتُ من جديد بشعرها الأشقر المُتموّج وابتسامتها العريضة، وكأنها في الثلاثين، وليس في الستين. إنَّ مشاهدتها تُحيي في داخلي شعوراً بأنَّ التقدُّم في السن ليس بالأمر المُريع.

إيزادورا وأنا نحب أنْ نلتقي في مقهى صغير من المُفترَض أنّه يُقدِّم

أفضل قهوة إسبريسو في المدينة. إنه مكان صغير في الحيّ الشرقي الأعلى لكنَّ المقهى ممتاز حقاً. وطلبنا كلتانا قهوة مع الحليب.

سألت إيزادورا «بذلة من المطاط؟».

قلت «بذلة من المطاط».

«كيف عرِفتِ إنها لن تُعجبك؟».

قلت «أعرف. هل سبقَ لكِ أنْ ارتديتِ واحدة؟».

«أرفضُ أنْ أُجيب على أساس أنَّ الجواب قد يُجرّمني. أعلمُ أنَّ مُعظم الناس الذين قرأوا كتبي يعتقدون أنني جرّبتُ كل شيء. أنا أدعهم يعتقدون هذا».

«ولكن هل هذا صحيح؟».

«ما رأيكِ أنت؟».

قلت «أعتقد أنكِ مجرد فتاة يهودية لطيفة تتظاهر بأنها جنيّة جنس».

ضحكتْ إيزادورا. «في نقطة معيَّنة من حياتي ربما كنتُ بائعة حب، لكنني تعلّمت الكثير - ولن أُخدَع الآن أبداً بموقع مثل Zipless - على الرغم من أنني ذكرتُ اسمه. إنَّ الجنس على شبكة الإنترنت مُبالَغٌ فيه كثيراً».

«لماذا؟».

«لأنَّ معظم الناس يستنتجون أنَّ هناك خلطاً بين الخيال والواقع. يعتقدون أنهم يعلمون ماذا يريدون، لكنهم لا يعلمون».

«وما الذي يُريدونه فعلاً؟».

«التواصُل. ممارسة الجنس البطيء في عالم سريع. لا يمكن الحصول على هذا من امرأة ترتدي زيّاً من المطاط. أو من رجل».

وأفكّر في الأمر. إيزادورا على صواب. كلنا نريد التواصُل، وسرعة إيقاع ثقافتنا تجعل العثور على هذا أمراً صعباً باطِّراد.

قالت صديقتي العزيزة «إنَّ ما تريدين حقاً هو المتعة. أخبريني عندما تعثرين عليها - إنك تبحثين عنها في كل الأماكن الخاطئة!».

-4-

نبض قلب

«إذا تخلّصتُ من شياطيني، فسوف أفقد ملائكتي».

• *تنيسي وليامز*

هناك نساءٌ عندما تقابلينهن تعلمين على الفور أنَّ في استطاعتك أنْ تضعي ثقتكِ فيهنّ فيما يخصّ حياتك. لقد كانت إيزادورا صنو روحي، وحاميتي، وعرّابة ابنتي الجميلة، ذات الشعر الأحمر والقوام الممشوق.

قالت «لن تندمي على أنكِ أنجبتِ ابنة» – وكانت على صواب. بل إنني باركتُ زوجي السابق المجنون لإعطائي ابنتي. لقد كانت الأمل المُشعّ وسط عاصفة حياتي، ابنتي التي أحببتُ أكثر من أي مخلوق بشريّ على الأرض، ابنتي التي في استطاعتها أنْ تجعلني أشدّ غضباً من أي مخلوق بشريّ على الأرض، ابنتي الحبيبة الممثّلة التي في وسعها أنْ تدفعني إلى الضحك حتى البكاء، ابنتي شوكة قلبي وبلْسَمُه. الآن هي حامل بخمسة أشهر. وعندما اتصلتْ بي هاتفياً، قفزتُ.

«ماما، هلّا قابلتني عند الطبيب؟».

«في أيّة ساعة؟».

«عند منتصف الظهيرة بالضبط».

وصلتُ إلى هناك في الحادية عشرة والنصف (تجنُّباً لأي تأنيب من ابنتي) وانتظرتُ وصول ابنتي شديدة الاستعجال، التي وصلتْ في الثانية عشرة وعشر دقائق. وسألتني «لِمَ أتيتِ باكراً جداً هكذا؟».

«لكيلا أتأخّر وأُثير غضبك».

تضحك: «أنتِ لا تُغضبينني أبداً».

تُعلنُ الممرضة «غليندا؟».

تسألُ غليندا «هل تستطيع أمي أنْ ترافقني».

«طبعاً».

هل حان الوقت لأخبرك عن والد غليندا؟ لقد كان شاعراً وكاتباً مسرحياً عشقته في وقت ولادة غليندا - قبل أنْ تقود غيرته من حبي للطفلة إلى تخلّيه عنا نحن الاثنتين. أنا أعلم أنّه لم يرغب في التخلّي عنا وكثيراً ما وجدتُني آمل في أنْ تنجح هذه الطفلة الحفيدة بصورة ما في الجمع بيننا من جديد كصديقَين. إنه شاهد مهمّ على حياتي وحياة غليندا. لأنّه بسبب غليندا، لن آسف على فقده. كان اسمه رالف، لكنّه غيَّره فأصبح رومي، آملاً بصورة ما في أنْ يوحي بأنه شاعر فارسيّ ودرويش. ولما كان ينطوي على مسحة من الصوفيّة، آمنَ بأنَّ كل ما يحتاج إليه العالم هو السلام. وكثيراً ما اقتطفَ أبياتاً من شِعر الروميّ - خاصة تلك التي تجري على النحو التالي:

قد نعتقد أننا نعرف أنفسنا.
قد نولَد مُسلمين، أو يهوداً، أو مسيحيين.
لكننا لا نرى إلا الفروق
إلى أنْ تبرأ قلوبنا.

كان مثالياً جداً، وآمن بأنَّ في استطاعته أنْ يجعل العالم مكاناً أفضل عبر الشِّعر. وغلينداً تُشبهه من نواح عديدة.

دخلتُ مع غلينداً إلى غرفة الفحص، حيث ثبّتت الممرضة جهاز كشف نوع الجنين إلى بطن ابنتي وفجأة ضجّتْ الغرفة بهدير نبض قلب حفيدتي السريع. هذا المخلوق المُقدَّر له أنْ يعيش بعد رحيلنا نحن الاثنتين ملأ الغرفة بإرادته الهادرة في العيش.

تسأل غلينداً الدكتورة وايلدر اختصاصيّة التوليد والأمراض النسائيّة، الجميلة في أربعينيات عمرها، «هل يبدو الأمر طبيعياً؟».

«إنه طبيعيّ تماماً. هيا، دعيني أتفحّص وضعك»، وتمدّ يدها داخل ابنتي؛ «لا مشكلة».

تقول غلينداً، التي مرّتْ بفترة حمل رهيبة: «اللعنة». انتابَها الغثيانُ الصباحيّ ليلاً ونهاراً وعلى مدى خمسة أشهر، وظهر عليها الطفح الجلدي، وتورّمت يداها وقدماها، ناهيك عن نوبات الرعب الجينيّ خلال الأشهر الثلاثة الأولى. إنَّ غلينداً وزوجها هما من الأشكيناز وكان عليهما أنْ ينتظرا إجراء الفحوص الجينيّة كلها. وتصرّفت غلينداً كالأبطال طوال تلك الإجراءات كلها، لكنّها الآن ترغب في أنْ تنتهي. إنها تُصلّي كي يُلهِم الله الأطباء بتوليدها قبل الأوان. لم يتوفّر لها هذا الحظ. وزن الطفلة الآن يبلغ خمسة أرطال أو أكثر لكنها ليست مستعدة للولادة. في عائلتي، كلنا ولدنا أطفالاً ضخاماً.

قالت غلينداً «لا تقولي لي إنَّ فترة حملي كانت عظيمة!». ثم قالت لطبيبتها «إنَّ أمي دائماً تقول إنها تعشق الحمل. وهذا يُغيظني».

«إنَّ حالات الحمل كلها مختلفة، يا حبيبتي».

قالت الطبيبة «أمك على صواب».

تُحدِّقُ غلينداً إليّ كأنها لا تُصدِّق أنني كنتُ على صواب بشأن أي شيء. «كيف يمكن أنْ تكون على صواب بعد أنْ سمَّتني باسم ساحرة؟».

قلت «لم يكن أمامي خيار إلا بين اسمك واسم أوزما. لقد أردتُ لكِ أنْ تعيشي حياة سعيدة في أرض أوز».

تقول الطبية «ساحرة طيّبة. ساحرة الغرب الطيّبة».

أدارت غلينداً عينيها الخضراوين داخل مِحجريهما.

«دكتورة وايلدر، أريدُ إجراء تخدير الأم الجافية[15] حالما أبدأ مرحلة المخاض».

تقول الطبيبة «لم نعُد نُعذِّب النساء».

«عظيم». لا أطيق مجرد تخيُّل غلينداً تتألَّم. لكنني أعرف أنَّ أحوال المخاض لا يمكن التنبّؤ بها. أتوقّع أنْ يظهر طفل غلينداً مباشرة على الرغم من أنني أنا نفسي أجريتُ عمليّة قيصرية بعد تسع ساعات من المخاض. إنني لا أنصح بها. ليس لديّ ما أقول وأنا أعلم. إنَّ نصف الأمومة هو سكوت – كما قلتُ من قبل. كل ما أستطيع أنْ أقول هو أنني كنتُ أتمنى لو عرفتُ هذا باكراً. أحياناً أعتقد أننا يجب أنْ نُعطي كل أم جديدة وسادة مُزخرفة بكتابةٍ تقول إنَّ كافكا ربما كان قد كتب على طاولة مكتبه كلمة: *Warten* (انتظرْ).

بعد إجراء الفحص، ذهبتُ مع غلينداً لتناول وجبة الغداء. قالت غلينداً «لن أحمل أي طفل بعد الآن. لقد أخبرتُ سام بهذا وهو يوافق».

«لستِ مُضطرة إلى إنجاب طفل آخر. طفل واحد يكفي. لا بأس في الأطفال الوحيدين. أنتِ مثلاً». أنا أعلم أنَّ غلينداً سوف تغيِّر رأيها مرّاتٍ عديدة بهذا الشأن وبشأن كل شيء آخر.

قالت «لا أعلم كيف بقيَ الجنس البشري على قيد الحياة».

«أمرٌ مُذهل، أليس كذلك؟».

---

15 – الأم الجافية: الغلاف المُغلِّف للدماغ والحبل الشوكيّ.

أتذكَّر أنني قلتُ الشيء نفسه بعد أنْ ولدْتُها. كنتُ جالسة في غرفتي في المستشفى أشاهد مناظرة بين سياسيّ يمينيّ وكاهن كاثوليكيّ حول آثام ارتكاب الإجهاض، فرميتُ شاشة التلفزيون بتفّاحة تناولتها من صينيّة غدائي. لم ينكسر شيء. ولم يتغيَّر أي شيء أيضاً.

نظرتُ إلى المخلوق الصغير الجميل داخل المهد الشفّاف وبُهِرتُ بكمالها. مُصفرّة، نعم. مُتدثّرة بغطاء من الكتّان الوردي والأزرق، وتعتمر فوق شعرها المُجعّد المائل إلى الحُمرة قلنسوة منسوجة صالحة للجنسين كالقلنسوة اليهوديّة - لكنها مثاليّة من أصابع قدميها وحتى جمجمتها الرقيقة. لقد كانت في وقت واحد جميلة ومُرعبة. لم أرغب إلا في أنْ أُحضِر لها الجنّة. أردتُ لها أنْ تُقيم في الأرض التي ***حلمتُ بها ذات مرة في تهويدة.***

كان المُطالبون بحقوق المرأة من جيلي يقولون «لو أنَّ الرجال يحبلون، لأصبح الإجهاض سرّاً مُقدَّساً». ماذا حدث لكل لأولئك النسوة الحيويات؟ أين هنّ الآن ونحن في أشدّ الحاجة إليهن؟ هل متن؟ كيف تحولت عبارة «مناصرة قضايا المرأة» سُبَّة؟ كل ما أردنا كان تحويل عالم جائر إلى آخر أكثر عدلاً.

لم تكن غليندا في حاجة إلى الاقتناع بأي من هذه الأشياء. لقد بدا أنها شربت مناصرة قضايا المرأة مع الحليب. وفي سن السادسة عشرة تركت المدرسة لكي تنضم إلى مجموعة الممثلين المراهقين في السينما. وفي السابعة عشرة فازت بجائزة توني على دور جولييت المُغنية في برودواي. وفي الثامنة عشرة حلّقتْ فوق سماء ويست إند في دور بيتر بان. وفي التاسعة عشرة لعبتْ دور ملكة إنكلترا إليزابيث الأولى في شبابها في فيلم رائع. ولكن بعد ذلك بوقت قصير نُقِلَتْ إلى هيزلدن لمعالجتها من الإدمان على تعاطي المُخدرات.

نُقِلَتْ إلى هيزلدن وكأنه منزلها الروحيّ. ومنذ تلك اللحظة اكتشفتْ

الصفاء، ولم ترغب في أنْ تفقده من جديد. أصبحتْ مرشدة لأطفال آخرين في البرنامج. وأصبحتْ الرصانة بالنسبة إليها أشدّ أهميّة من أي شيء آخر. كنتُ مُعجبة بعنادها أكثر من إعجابي بتمثيلها – الذي كان ممتازاً.

قالت في أثناء تناولها سلطة الدجاج في مطعم سارابث: «ماما، يجب أنْ تعملي».

«وأنتِ أيضاً».

«سوف أفعل، حالما يولَد الطفل. ولكن أنتِ لا تستطيعين أنْ تتوقفي عن التمثيل؛ إنه مسار حياتك».

«لا أريد أنْ أقوم بدور الجدّات. أريد أنْ أكون جدَّة في الواقع، لا على الشاشة. هل لديك أية فكرة عن مدى سُخف الأدوار المعروضة على النساء؟ إنَّ المأساة هي أنّه في الوقت الذي تتحسّنين باطِّراد في أداء عملك – تزداد الأدوار سوءاً. وللمرة الأولى في حياتك تشعرين بالثقة في براعتك – مباشرة قُبيل أنْ يرموا بك إلى القمامة»

«إذن أنتجي أفلامك بنفسك. العبي دور الملك لير بوصفه امرأة. ادفعي آشر إلى تمويلك. سوف يُحبّ ذلك. سوف يُنفّذ أي شيء يجعله يتفوّق على والده». كان والد آشر قد خسر كل شيء، وهذا أحد الأسباب التي دفعتْ آشر بقوة إلى التهافُت على جمع المال والسلطة.

«الملكة لير؟ لكنَّ أمي هي الملكة لير. سوف يتوجّب عليّ أنْ أنتظر إلى أنْ تموت!».

«كلا، أقصد الملك لير بوصفه امرأة. اقبلي الأدوار الجيدة وقومي بها. إنْ كانَ توزيع الأدوار لا يعترف بالألوان، فلماذا لا يتغاضى عن جنس الدور؟ إننا في عالمٍ جديد وشجاع. لا تقبلي الأدوار الرديئة التي يعرضونها عليك لتلعبيها. اصنعي أدوارك بنفسك. اسرقي من شكسبير أو من مارلو أو من شو أو ألِّفي أدوارك بنفسك. اعملي مع صديقتكِ

إيزادورا! إنَّ الدكتور فاوستوس بوصفه امرأة يستحضر صورة أدونيس بدل هيلين الطروادية. لستِ مضطرة إلى الاستسلام. إنني أكرهك عندما تستسلمين. وآشر أيضاً كان يكره هذا. لقد أخبرني قبل أيام بأنه يعتقد أنّكِ مُحبَطَة ويُريد منك أنْ تعودي إلى العمل. إنه يُحبّك حقاً».

سألتها «أفتش عن أدوار وأنا في الستين؟».

«إنَّ سن الستين حالياً هو سن الأربعين الجديد».

«والثمانون هو سن الستين الجديد. وماذا يجعل منكِ وأنت في الخامسة والعشرين؟ في الخامسة من عمرك؟».

«ربما. ذهنياً على الأقلّ. إنَّ ذهني منذ أنْ حملت بدا كأنه غاص في فجوة. اسمعي، إنني أحتاج إلى عدم استسلامك. كيف يمكن أنْ أبلغ الستين إذا لم تُريني الطريق؟».

«أنت على صواب».

«لا تقولي إنني على صواب ومن ثم تنسين ما قلتُ. إنكِ تُصبحين أشبه بجدّي وجدَّتي».

«إنهما في تسعينيات عمريهما ويلبسان الحفاض – ولكن أعتقد أنَّ التسعينيات هي السبعينيات الجديدة».

ينبض هاتفي النقّال مُنبئاً بوصول نص رسالة. أحذفها حتى قبل أنْ أنظر إليها.

تسأل غلينداً «ما هذا؟». لا أُجيب.

أقول «كلما ذهبتُ لأعودهما، أرغب في الانتحار».

«لقد عاشا حياةً طويلة، غنيّة، وأنجبا بنات يُحببنهن، وحقَّقا نجاحاً يفوق أقصى أحلام أي شخص، ولم يُصابا بأي مرضٍ خطير. ليس هناك ما يُبرِّر شعورك بالذنب».

«إذن ما سبب شعوري الشديد بالذنب؟».

«لأنكِ مجنونة. والحقيقة هي أنكِ لستِ في حاجة إلى الشعور

بالذنب حيال أي شيء – حتى حيالي. لقد أنقذتِ حياتي، ماما. ولن أنسى هذا ما حييتُ. والآن ينبغي حقاً أنْ تعودي إلى العمل».

«كفى – أنتِ أنقذتِ حياتك بنفسك. ما كان في استطاعتي أنْ أنقذك لو كنتِ عازمة على تدمير نفسك».

«بل أنتِ، يا ماما – أنت، أنت، أنت. لكنني أرغبُ حقاً في أنْ تعودي إلى العمل. أنت التي في حاجة *ماسّة* إلى عملك؟».

أعادني امتنان غلينداً إلى الوراء تسعة أعوام إلى فصل خريف آخر – خريف رعب أموميّ.

أتذكّر رنين جرس الباب أربع مرات مُفاجئة ومُلحَّة. (وحدها غلينداً ترن الجرس أربع مرات، لذلك أعلمُ أنَّ ثمة خطباً. لقد لحقت غلينداً بي مباشرة ومن المُفترَض أنْ تكون في لوس أنجليس تصوّر فيلماً) تُجيب مُدبّرة المنزل. تندفع ابنتي الجميلة ذات التسعة عشر ربيعاً إلى داخل الشقّة وهي تجهش.

تقول «ماما، أعتقد أنني سأموت. يجب أنْ تُصغي إليّ!»

تبدو نحيلة كهيكلٍ عظميّ، يداها ترتعشان، وشعرها ينسدل لزجاً على وجهها الهزيل.

أول ما خطر في بالي هو أنْ أقول «لا يمكن أنْ يكون الأمر بهذا السوء»، لكنَّ شيئاً ما لجمني. لا أريد أنْ أصدِّق أنَّ ابنتي مُدمنة – ماذا تفعل الأم؟ لكنني أُدركُ أنَّ حياتي وحياتها معاً ربما تتوقّفان على تصديقي لها. لذلك أقوم بما تفعله الأم: ألزم الصمت.

«ماما – لم أعُد أنام أبداً – إنني شديدة التوتُّر. ثم أتناول أقراصاً لكي أهدأ. أخشى أنْ أتحول إلى أحد أولئك الذين لا يستيقظون أبداً. إنني أتحول إلى عاهرة مدمنة مخدرات. أنت لا تعرفين كم من السهل أنْ تُصبحي عاهرة مُدمنة في لوس أنجليس».

لم أُحبّ الكوكايين أبداً، لذلك من الصعب أنْ أُتخيَّل هذا كله، ولكنْ لديّ أصدقاء كُثُر مات أولادهم ويمكن أنْ يُصدقوها. لديّ أصدقاء قفز أولادهم من فوق الأبنيّة، واستنشقوا غاز ثاني أوكسيد الكربون، وهشّموا سياراتهم، وقطعوا شرايين أيديهم.

«أعتقد أنني في حاجة إلى الالتحاق بمركز لإعادة التأهيل. أحتاج حقاً. إنه يُرعبني. سوف أخسر العمل في السينما. ولكن إذا لم أفعل سوف أفقد حياتي».

ضممتُها إلى صدري، وشممتُ رائحة القيء الحامضة تفوح منها. إنني أتذكَر رائحتها وهي طفلة وليدة، ورائحة رأسها العذبة بزيت الشعر، ورائحة براز الأطفال الوردي العذبة. كيف يمكن أنْ يبتعد أطفالك إلى هذه الدرجة عن بدايتهم؟ إلى أين يذهبون في عهد المراهقة؟ ليس إلى أرض أوز حتماً. وبدأتُ في الحال أُجري مكالمات هاتفيّة. وبحلول ليل ذلك اليوم، استقلَلْنا أنا وابنتي الطائرة المتوجّهة إلى مينيسوتا.

على الرغم من أننا في شهر تشرين ثاني، إلا أنَّ الطقس في مينيسوتا كان مُصقِعاً. دائماً يوجد صقيع في مينيسوتا. كنا نطالب بأمتعتنا وإذا برجل طويل القامة وممتلئ ويرتدي سترة مُقلنسة يقترب منا.

يهمس بفم أدرد «غليندا؟». بشرته حمراء اللون، ورأسه حليق تماماً وعليه وشم. معظم أسنانه مفقود.

«أنا فانيسا، وهذه غليندا».

قال «أنا سائقكما. اسمي كال. و.».

استقلَلْنا سيارة الستيشن واغون وانطلقنا شمالاً. بدأ الثلج يهطل غزيراً. وأمسكتُ بيد غليندا.

«أنا خائفة، ماما».

قال كال الأدرد بهدوء «لا داعي إلى الخوف. أنتِ في المكان المناسِب. أنتِ حيث تنتمين».

إنني أتساءل إنْ كنا سنخرج من الفيافي الشماليّة المتجمّدة. وانطلقت السيارة أكثر فأكثر. لم يكد كال يتكلّم – إلا عندما سألنا إنْ كنا في حاجة إلى التوقف في حانة أو إلى الحمّام.

سألتُ «حانة؟».

قال «بعض الناس يحبون أنْ يسكروا للمرة الأخيرة».

قالت غلينداً «كلا، أرجوك. إنني لم أرغب أبداً في أنْ أسكر للمرة الأخيرة».

أقول «يمكنني أنْ أستخدم الحمّام».

توقفنا أمام أحد المطاعم الصغيرة عليه يافطة تومض بأضواء النيون تقول: ***مطعم للماما والبابا – لدينا كل ما ترغبون في أكله.***

أذهب وأستخدم المرحاض وأتساءل إنْ كنتُ سأجد كال وغلينداً عندما أعود. فاح الحمّام برائحة ورد اصطناعيّة وبراز. كانت على جدرانه رسوم كارتونيّة ظريفة لكلاب وقطط.

لدى وصولنا، بدا كأننا ولجنا منطقة أعشاب متجمّدة في أميركا. كان مدخل المبنى يقع أسفل درب مكسوّ بالثلوج. وبدا المكان مُقفراً، ومع ذلك بعد أنْ أمضينا عشر دقائق ونحن نضغط على زر الجرس، حيّانا ممرِّض وسيم أبيض الشعر. قبضتْ غلينداً على يدي.

قال «يجب أنْ أتحدث مع غلينداً وحدها الآن. وعليك أنْ تنتظري في الخارج».

«لا تذهبي، ماما».

«أعتقد أنني يجب أنْ أفعل».

يقول ذو الشعر الأبيض، الذي خاطبه المُستشار باسم جيم. ر. «أنا في حاجة إلى معرفة السبب في حضورك إلى هنا، وأعتقد أنكِ سوف تتكلّمين بارتياح أكبر في غياب أمّك».

قالت «حسناً».

انتظرتُ في الخارج داخل أحد المهاجع، وأنا أُتمتمُ الصلوات همساً، يملأني الندم. كيف سمحتُ لتلك الطفلة أنْ تذهب إلى لوس أنجليس وحدها؟ كيف انهمكتُ هكذا في مشاكلي. ومكثتْ غلينداً مع جيم. ر. مدة ساعة أو نحوها بينما أفكاري تتخبّط. ثم خرجت، بعينين حمراوين، وأنف يسيل. مشيتُ مع جيم على طول الرواق نحو مركز المعالجة لكي أوقّع على بعض الأوراق. وأُخِذَتْ غلينداً إلى غرفة صغيرة فيها سرير ومغسلة. ودخلت ممرضة أخرى وأخذت تُفتّش أمتعتها.

قالت «لِمَ لا تنامين قليلاً؟ سوف نعتني بك جيداً».

«اذهبي، ماما، سأكون بخير، أعدك».

بدا كأنَّ المبنى الذي نحن فيه يقع معظمه تحت الأرض. هل سنتحول إلى أقزام ساكني جحور hobbits هنا؟ أنا أحبّ الـ هوبيت. لقد رافقني أحدهم على طول رواق تحت الأرض إلى أنْ وصلنا إلى مجموعة من الأبواب – كلها موصدة. أين جُحري الترابيّ؟ أين الهوبيت الودودين؟ إنَّ غرفتي متقشّفة – تحتوي سريراً واحداً مُثبّتاً إلى الأرض، كما هو حال المصابيح. الحمّام يضمُّ مجموعة من أوراق التنظيف ومنشفتين صغيرتين بيضاوَين، بحجم الهوبيت. خلعتُ ملابسي وزحفتُ إلى السرير. إنني أرتعش.

أُتمتم «ساعدني يا رب. يا رب، كن معنا أرجوك، أرجوك».

خلال أوقات كثيرة في حياتي شعرتُ بأنني وصلتُ إلى الدرك الأسفل، أما هذا فهو الأسوأ. إنَّ غلينداً هي مستقبلي، وكل أحلامي التي لم أُحققها. إنني أحتاج إلى أنْ تعيش غلينداً أكثر مما أحتاج أنْ أعيش أنا نفسي.

عندما أستيقظ عند الساعة الخامسة صباحاً، أجد أنَّ غرفتي تطلّ على بحيرةٍ متجمّدة. وثمة أكواخ أُقيمتْ على الجليد. وأشخاصٌ مُكومون

على أنفسهم يعبرونها، تاركين آثار أقدامهم على الثلوج. إنه أشد الأماكن التي عرفتُها هدوءاً. هنا تستطيعين أنْ تُصغي إلى أفكارك. أرتدي ملابسي بسرعة - ملابسي كلها غير مُناسِبة طبعاً - وأمشي إلى الخارج وأخوض في الثلوج. حذائي الرقيق يطحن الثلج وأشعر البرودة تنفذ من خلاله. ومع ذلك، أعثر على درب بين أشجار التنوب فأتبعه قدر استطاعتي على تحمُّل البرد. ثم أعكس اتجاهي وأعود من حيث جئت. وفي ردهات المبنى حيث توجد غرفتي، أعثر على نارٍ مشتعلة في موقد من الحجر وقهوة وكعكاً مُعدّان. أُحضِرُ بعض القهوة وأجلس أمام الموقد وأشربها. أختار كتاباً عنوانه «*الصفاء*» من إحدى الطاولات. ويبدأ بالكلمات التالية: «عندما نكفّ عن الاعتقاد بأنَّ الأمور الجيدة مستحيلة، يُصبح كل شيء ممكناً».

سألني الرجل الخمسينيّ «ألم تجدي ما يُثير اهتمامك؟».

أرفع بصري. كان شعره أشقر بلون التبن، وكانت ذقنه غير حليقة، وبدل يده اليُمنى هناك جدعة. أمعنتُ النظر إليها بتركيز.

قلت «آسفة لأنني أُمعن النظر».

«تريدين أنْ تعرفي كيف تسبّبتُ في هذا؟ حسنٌ، كنتُ تحت تأثير جرعة قوية من الكوكايين وأهلوس متخيلاً أنَّ الله يأمرني بقطع يدي. فقطعتها بساطور صيني لتقطيع اللحم - دون وعي - وعثر عليّ ابني ودمي يتدفّق، واللحم يتدلّى كالخيط. والآن أعتقد أنَّ هذا كان أفضل ما حصل لي في حياتي. وبالمناسبة، اسمي دوغ»، ومدَ لي يده اليُسرى. وتصافحنا.

«لأنه أنقذ حياتي. أيقظني. بعض الناس لا يستيقظون إلا بهذه الطريقة. ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟».

«ابنتي».

«حسن، لقد جاءت إلى المكان الصحي. وأنتِ؟».

«أجد أنه أشدُّ ما زرتُ من أماكن هدوءاً».

«وهذا يُبرِّر الضجيج العالي في رأسك، أليس كذلك؟».

«ماذا تفعل طوال النهار هنا؟».

ضحك دوغ. «صدّقيني، لن تَمَلّي. هناك مهامٌ يوميّة، اجتماعات، وجبات، التحدّث مع الناس، الكتابة عن حياتك من أجل مستشارك. الأيام تمرّ سريعاً. إنني هنا منذ شهرَين حتى الآن. ولم أرغب مرة في العودة إلى منزلي. لكنني أعتقد أنني سأعود».

«هل تخشى أنْ تُصاب بانتكاس؟».

«لهذا السبب منحنا الله مُذكِّراً مرئياً» (وهزَّ جَدَعَتَهُ) «بعضنا لا تفيد معهم المذكّرات المرهفة».

«أحقاً تؤمنُ بالله؟».

«وهل أمامي خيار؟ لو لم يكن هناك إله، لكنتُ الآن ميّتاً. ولما كان أحد عثر عليّ إلا بعد فوات الأوان. يجب أنْ يتوفّر سببٌ ما لحملي هذه الجَدَعَة، ألا تعتقدين هذا؟ لا شك في أنها تجذب انتباه الجميع. اسمعي – الجميع هنا لديهم مشكلة مع فكرة الله. إنهم يأتون إلى هنا بعد أنْ بيَّنوا لأنفسهم أنهم يعجزون عن عيش حياتهم ومن ثم يبدؤون بالتساؤل إنْ كان الله موجوداً أم لا. وهذا هو الدليل». ويهزّ جَدَعَتَهُ.

أقول «ربما قُدِّرَ لك أنْ تقود جوقة إنشاد».

يقول دوغ «المسيها».

يُباغتني العَرض. ثم أُدركُ أنَّني أرغبُ حقاً في لمسها. إنَّ كتلة اللحم ناعمة كقائم الدرابزين.

قال دوغ «شكراً لك»، وتناول قهوته بيده السليمة ومشى مبتعداً.

عندما أرى غلينداً لاحقاً، يكون إحساسي بجَدَعَة دوغ لا يزال يسكن أطراف أصابعي.

«كيف تشعرين، يا حبيبتي؟». كنا جالستين في غرفة التلفزيون الصغيرة خلف وحدة المعالجة.

«ليلة أمس أيقظوني ثلاث مرات لكي يفحصوا قلبي وتنفّسي. أعتقد أنهم كانوا يخشون حدوث تشنّجات. وابتلعتُ أيضاً العديد من أقراص الفاليوم لكي أهدأ ويبدو أنَّ زوال مفعول الفاليوم أسوأ من تأثير الكوكايين. وليلة أمس انتابني خوفٌ حقيقيّ».

«لكنّكِ نمتِ؟».

«بين فترات الصحو».

كنتُ حريصة على ألا أذكُر إلا القليل عن إعادة التأهيل. إذا أخبرتها عنه بهدوء، فقد أدفعها إلى الهرب. لم أُعطها أية آراء حول أي شيء. أحاول أنْ أكتفي بالإصغاء.

«سوف أُصبح شديدة البدانة وأنا هنا، ماما. إنَّ الطعام عالي السُعرات الحرارية. الأمر مُقرِف. الجميع يأكلون الحلوى طوال الوقت».

«هناك صالة لممارسة التمارين الرياضيّة وبركة سباحة».

«لا يُسمح لي باستخدامهما إلا بعد العلاج».

«أيْ قريباً».

«ليس قريباً جداً. ثم إن الجو مُصقِع. هلّا أرسلتِ إليّ سترة مُقلنسة وحذاءً؟».

«طبعاً».

«وهلّا اتصلتِ بكل هؤلاء الناس وأخبرتهم بأنني مريضة وأنزل في المستشفى ولكن لا تُخبريهم عن مكانها؟» وناولتني لائحة بأسمائهم مكتوبة.

«نعم».

قالت غلينداً، كأنها طفلة صغيرة: «أحبّك، ماما. حقاً أحبّك».

أتذكّر غلينداً عندما كانت طفلة. في سن الأشهر الخمسة كانت دميتها المُفضّلة شيئاً اسمه «القافز المرِح». كانت تدفعه عن الأرض بساقَين لا

تقدران على المشي بعد فيقفز ويقفز على مدى ساعات. كانت تتمتع بحيوية وفرح هائلين. وحتى في ذلك الوقت كانت تنتشي نشوة عارمة.

طوال فترة طفولتها بدت كأنها تعيش فقط على الأدرينالين. كانت تحكي لي حكايات. وكانت تُسلّي الجميع بحواراتها الفرديّة الغريبة وأغنياتها؛ كانت تسحر الجميع. ثم، في سن الثالثة عشرة، أصبحَتْ مراهقة وبدا كأنني فقدتُها. سوف تقع أزمات - مخدرات، كحول، تهديدات بالانتحار - ثم سوف يبدو أنَّ هذا كله قد عبر بسلام. كان هناك أطباء نفسيون كلّفونا غالياً، لكنهم لم يعرفوا أنها كانت تعاني من مشكلة إدمان المُخدّرات. ثم، في السادسة عشرة، عُرِضَ على غليندا لعب دور في فيلم وعثرتْ أخيراً على شيءٍ أعجَبَها. وبدا أنَّ التمثيل قد جعلها تستقر، ولم يكن في استطاعتي أنْ أوقفها على أية حال، لذلك تركتها تخوض التجربة. ولطالما انتابني الخوف عليها، لكنها اندفعت إلى التمثيل وحقّقت النجاح. وافترضتْ بحماقة أنها سيطرت على إدمانها المخدِّرات. وأنا أيضاً أصبحتُ ممثلة في سن السادسة عشرة. حسبتُ أنَّ ذلك أمرٌ طبيعيّ.

«أتعلمين متى عرفتُ أنني أُعاني من مشكلة، ماما؟».

«كلا، أخبريني».

«في الصيف الفائت حاولتُ أنْ أمشي خلال قنال هولندا. كنتُ منتشية بالكوكايين واعتقدتُ أنني أستطيع أنْ أقتل نفسي وأنا في تلك الحالة. لكنني لم أستطع. بعد ذلك، حضرت عدداً من الاجتماعات في أميركا الشماليّة، لكنني لم أواظب عليها. لقد كرهتُ فيها هيئة السلطة العليا المُنافقة. كنتُ أستغرقُ في النوم أثناء الاجتماعات. لم أكن مستعدة لها. ثم عندما جاءت عروض السينما الكبرى وانتقلتُ إلى لوس أنجليس أصبح الوضع أشدّ سوءاً. كنتُ أستيقظ وأجد نفسي على الشاطئ في ماليبو ولا أعلم كيف وصلتُ إلى هناك. كنتُ أجد نفسي أتجوّل في الظلام على الطريق العامة على طول ساحل المحيط الهادئ. كان كابوساً».

«لِمَ لم تُخبريني؟». حتى وأنا أسأل هذا، كنتُ أبحثُ عن سُبُلٍ لعدم التصديق. وككل الآباء، أردتُ أنْ أُنكِر الحقيقة. ثم قلتُ لنفسي: اخرسي وأصغي. فقط أصغي. إنْ كان الحب هو الإصغاء، فقد جاء دوري لأصغي إليها مهما بلغ شعوري بالذنب.

كنتُ أشعر بالخزي. بل إنني لم أُدرك مدى سوء الوضع. لم أعتقد أنكِ ستتفهمين. أنا نفسي لم أفهم. وأخيراً وصلتُ إلى نقطةٍ رغبتُ عندها في الموت طوال الوقت. وبتُ أفكّر في سُبُلٍ للموت. وصرتُ أتعمّد تناول جرعات كبيرة. ولم أمُتْ. حينئذ قرّرتُ أنْ أعود إلى الوطن.

«غلينداً، أنتِ في مكان آمن الآن. أعدكِ بهذا».

«آمل من الله أنْ يكون كذلك. أعلم أنني لم أعُد موضع ثقة في الخارج. أعلم هذا».

«هذه معرفة مفرطة».

«هل ستبقين ليلة أخرى؟».

«لا أعرف ما هي القواعد هنا. إنْ كان في استطاعتي، فسوف أبقى. لديّ اجتماع مع المستشار هذا الصباح».

«يقولون لك إنَّ الأمر اختياريّ، لكنَّ الحقيقة هي أنه لا يمكنك المغادرة إذا أردتِ».

لا أقول شيئاً.

تقول غلينداً «من المُفترَض أنَّ في استطاعتك أنْ تُحضِري سيارة إلى المطار في أي وقت، ولكن هذا غير صحيح. أنتِ في منطقة المروج المتجمِّدة، فيافي أميركا الجرداء».

«تذكرين يا غلينداً كيف أنك لطالما أردتني أنْ أصحبك إلى منتجعات صحيّة خالية من الكحول؟».

«نعم».

«فما رأيكِ في هذا؟».

«لقد أردتُ منكِ أنْ تُبعديني عن الغواية. أردتُ أنْ أكون في مأمن».

«إذن؟».

«أتريدين أنْ تقولي إنَّ هذا هو المكان المناسب لي؟».

«ما رأيك؟ القرار ليس لي، إنه لك».

مستشارة غلينداا اسمها ريه-لين وهي قصيرة القامة وبارزة العضلات وسمراء. لها بُنية رافعة أثقال. غرفة مكتبها مملوءة بالحيوانات المُحنَّطة وببطاقات معايدة جميلة. وهي ترتدي قميصاً رياضياً ورديّ اللون في وسطه رسم لقلب أحمر من البهارج.

قالت «كنتُ عاهرة ومُدمنة متشردة. لو كان في استطاعتي أنْ أستعيد وعيي، لاستطاع أي شخص آخر. اسمعي، لقد تحدثتُ إلى غلينداا في صباح هذا اليوم الباكر وقرأتُ عليها نصّ مقابلة الانتساب التي أجرتْها ليلة أمس. وإليك ما يحدث في مصلحتها: إنها تعرف أنها في حاجة إلى مساعدة. لقد طلبَتْ المساعدة. وإليك ما هو ليس في مصلحتها: أنَّ معظم الناس لا يتقبَّلون ذلك. وأفضل ما في وسعك أنْ تفعلي هو أنْ تنظري إلى علاقتك الخاصة بالأشياء وتدعيها تبرأ على طريقتها الخاصة. نحن جميعاً مختلفون. وأقترح أنْ تضعي برنامجاً عائلياً هنا - إذا أردتِ. واحصلي على بعض الدعم من جمعية مكافحة الكحول».

«كيف تعرفين فُرَصَ الخلاص المُتاحة لغلينداا؟».

«لا أعرف. لا أحد يعرف. أمرٌ جيد أنْ تطلب العون. ولكن بعض الأشخاص يُجلبون إلى هنا رُغماً عن إرادتهم ويبرؤون على أية حال. لا سبيل إلى التكهُّن. إنَّ المعجزات تقع. والأمر ليس في أيدينا. إذا أردت تطمينات، فقد أتيتِ إلى المكان الخطأ».

«المكان الصحيح»، «المكان الخطأ»، «ليس في أيدينا»، «المعجزات تقع». ما هذه اللغة التي يتحدثون بها هنا؟!

أردتُ أنْ أعلم. «ماذا في وسعي أنْ أفعل لتقديم المساعدة؟».

«لقد سبق أنْ أخبرتُك. بعد ذلك، يجب أنْ ترتاحي».

«لن أرتاح أبداً في حياتي».

«ربما لهذا السبب حان الوقت لتبدئي».

أسأل «هل أستطيع أنْ أمكث يوماً آخر؟».

«طبعاً، ولكن لن تتمكني من رؤية غلينداً كثيراً. تستطيعين أنْ تقومي بزيارتها بين حين وآخر».

«أريد فقط أنْ أبيتَ ليلة واحدة لكي أُصفّي ذهني».

قالت ريه-لين «فكرة جيدة».

لم يخطر في بالي أبداً أنَّ فكرتي عن الملاذ ستكون غرفة مُزوّدة بسرير نقّال مُثبَّتْ إلى الأرض وممسحة حمّام من الورق على الأرض. لا هاتف، لا تلفزيون، لا راديو. لكنني أحببتُ غرفتي. لا أحد يصل إليّ هنا. لا أختاي، ولا أبواي، ولا زوجي، ولا أصدقائي. في استطاعتي أنْ أتأمّل في حياتي.

ما الخطأ الذي ارتكبته في حق غلينداً؟ عندما كانت طفلة صغيرة ورحل والدها عنّا، قرّرتُ أنْ أُصبح أمّها وأباها. هو يرفض أنْ يُعيل الطفلة؟ حسن إذن، اللعنة عليه. أنا سأعيلها. وحينئذٍ حصلتُ على دور بلير العاهرة في مسلسل السهرة التلفزيوني «*عالم بلير*» وكنتُ أكسب مبالغ كبيرة من المال. ولكن ما لم أدركه هو أنَّ غلينداً كانت في حاجة إلى أكثر من المال. احتاجت إلى أب. الأم والمُربّية لا تكفيان. كنتُ منهمكة في كسب لقمة العيش، وفي التعامل مع حياتي الرومانسيّة، بحيث لم يكد يتوفّر لديّ وقت للاهتمام بحياة غلينداً. كنتُ طوال الوقت أشتري لها أشياء لا تريدها ولا تحتاج إليها.

إنني أنتمي إلى جيلٍ يؤمن بأنَّ الأبناء يمكن أنْ يتحمّلوا كلّ شيء. كنا نتزوّج ونُطلّق كما لو أننا ننتقل من شقّة إلى أخرى. لكنَّ الحقيقة هي أنَّ الأبناء لا يتحمّلون كل شيء. كانت غلينداً تعتبر كل شيء مسألة

شخصيّة، وتعاني من المشاكل كلها. كان ينبغي أنْ أُصغي إليها، لكنني كنتُ أعمل طوال الوقت.

لقد تشبّثتْ بي شخصيّة بلير في مسلسل «*عالم بلير*». كانت بلير هي العاهرة المُخطِّطة الأصليّة – امرأةً مِزواج ومع كل طلاق تزداد ثراءً على ثراء. طبعاً الجميع اعتقدوا أنها في الحقيقة أنا. في عيون الجمهور كنتُ *فعلاً* بلير. الأشرار دائماً يبقون في الذاكرة أكثر من الملائكة، وبلير كانت الشريرة الكبرى. كانت أشبه بالملكة في قصة «*بياض الثلج*». وأنت تُصدّق حقاً أنها قادرة على تسميم التفّاح.

لم يخطر في بالي أبداً أنني نظيرة ميريل ستريب في ريفرسايد درايف، لكنني أحببتُ اشتراكي في مسلسل تلفزيوني. لقد نظّمَ ذلك حياتي. إنكِ تذهبين إلى الاستديو باكراً ويزدحم النهار كله بالعمل. تقومين بالبروفات في الصباح وتسجّلين بعد الظهيرة. ولا يتوفر لك وقت للاهتمام بحياتك الخاصة. والشخصية التي تلعبينها تستنزف قِواك. لقد كانت بلير شخصية مضطربة عقلياً بشكل تامّ. فلم يكن لديها ضمير، ولا تأبه البتّة لحاجات الآخرين. أحبّتها النساء لأنها كانت نقيض كل ما تعلّمن أنْ يكنّ عليه. والرجال افتُتِنوا بها للسبب نفسه. وآشر وقع أسير حبي في أثناء قيامي بدور بلير. أعتقد أنه أُصيب بخيبة أمل عندما اكتشفَ أنني لستُ شريرة على غرار الشخصيّة. بعض الرجال يحتاجون إلى نساء قويات الشخصية لكي يُبرهنوا على رجولتهم. وقد كان لآشر أم قويّة الشخصيّة وأب مُخيِّب للآمال. وكان يحبّ تحدّي مغازلتي بوصفي بلير. لكنني تحت مظهري الخارجي القويّ كنتُ رقيقة، مثله. هل خاب أمل آشر عندما اكتشف هذا الأمر؟ إنْ كان قد فعل، فهو لم يُظهِره. وحرصتُ أنا على إخفاء جانبي الرقيق.

استعرتُ سترة مُقلنسة وحذاءً طويل العنق من أحد العاملين على أحد المكاتب بالقرب من غرفتي وغامرتُ بالخروج إلى البرد من جديد. كانت أنفاسي تخرج بخاراً أبيض أمامي، والدرب تغطيه إبر الصنوبر البنيّة حول البحيرة، وكانت قدماي تغوصان وسط الإبر. كانت أشجار

الصنوبر على طول الدرب تسموُ عالياً فوق رأسي وكأنني في حكاية خرافيّة، والبحيرة المتجمّدة ابتلعتْ ضوء الشمس الواهن داخل سطحها القاسي. كان الصيادون في الثلج لا يزالون هناك، ينتظرون بصبر. ولو أنني أجلس في أحد تلك الأكواخ الصغيرة القائمة فوق الثلوج وأنزلُ خيط سنارة داخل البحيرة المتجمّدة، فهل يمكنني أنْ أصطاد شيئاً يمكن أنْ أقتات عليه؟

إنني أفكّر في الأشياء التي أخبرتني بها ريه – لين وأتذكّر كل تلك الليالي التي عادت فيها أمي إلى المنزل من الحفلات محمولة. لم نكن نعتبرها مدمنة كحول، لكنَّ الحقيقة هي أنه لم يكن لديها طريقة أخرى للاحتفال إلا بالسُكر. وأتذكّر خلال فترة في باريس مع عائلتي عندما أسرفتُ في الشرب – وأنا في الثامنة عشرة – أنني دخلتُ الحمّام وتمدَّدْتُ على الأرض ووضعتُ خدّي على الآجرّ الأبيض البارد. وعجزتُ عن تحريك أعضائي. لقد شُلِلْتُ. ولم أُوْلِ الأمرَ أية أهمية، ولا حتى أمي، التي كانت قد مرّت بمثل تلك الحالة مرّاتٍ عديدة، ولكن حين أستعيد ذكراها، يبدو لي أنه كان ينبغي أنْ أنظر إليها بجدّية. كان يمكن لوالدَيّ أنْ يقولا «هراء!». كانا يكرهان الذين لا يشربون. كانت أمي تعتبر الفودكا مارتيني إكسيراً سِحرياً. إنه يُحول النهار إلى ليل، والحزن إلى فرح، والعواصف إلى شمس ساطعة.

حتى بعد أنْ أجرَتْ أول عملية جراحية لها في الورك، كانت تحاول أنْ تدفع أنتونيا إلى أنْ تُحضِر لها فودكا إلى المستشفى. ولم يكن لديّ أي سبب يدعوني إلى الشكّ في أنَّ غلينداً وُلِدَتْ مع ميل إلى معالجة مشاكلها بمواد تغيِّر المزاج. أنا نفسي كنتُ كذلك. كيف كان يمكن لحياتي أنْ تبدو لو أنني توقفت عن شرب الخمر؟ في ذلك اليوم في الغابة، قرّرتُ أنْ أفعل هذا. لم أُخبر غلينداً بالأمر عندما قابلتُها قبل أنْ أطير عائدة إلى الوطن. وبعد ذلك بثلاثة أسابيع سجّلتُ في برنامج عائليّ وقابلتُ من جديد مستشارة غلينداً.

قلت «الناس هنا هادئون جداً. إنهم يدفعونك إلى الاعتقاد أنَّ لديهم عرضاً خاصاً يُقدّمونه. أنا أيضاً أريد أنْ أُصبح هادئة».

قالتْ ريه-لين «رغبتكِ مُجابة إنْ كان هذا ما تريدين».

ليت الأمر كان بهذه البساطة. وفي طريقي على متن طائرة إلى الوطن أُدركُ أنَّ العالم الخارجيّ كلّه يتآمر لدفعي إلى الشرب، لكنني لا أشرب. وهذا أمر صعب. أشجار الصنوبر والصمت في مركز التأهيل يجعلانه أسهل. وعلى متن الطائرة أظلّ أعتقد أنَّ كأساً واحداً فقط سوف يُعيد إليّ هدوئي مع عِلمي أنّ هذا غير صحيح. وأنجح في المقاومة - والله وحده يعلم كيف فعلتُ. استمرَّتْ مقاومتي سنواتٍ عِدّة بينما غليندا تدعم استقامتها. ومن ثم انجرفتُ عائدة إلى شرب كأس النبيذ بين حين وآخر - خاصة وأنْ غليندا غائبة.

تسألني غليندا عبر الطاولة «أين أنتِ بحق الجحيم، ماما»

«في غابة مينيسوتا، قبل سنين عديدة».

«أليست جميلة؟ إنني أكره المعالجة لكنني أحببتُ المكان. كدتُ لا أرغبُ في مغادرته عندما قالوا إنَّ في استطاعتي ذلك».

«أعلم. لقد أُصِبتِ بالرعب من فكرة الذهاب إلى ذلك المكان وأُصِبتِ بالرعب من فكرة مغادرته».

«صرتُ أتمنى الآن لو نعود إلى هناك - من أجل الاسترخاء في عطلة الأسبوع - ولكن لدينا هذا لنفكّر فيه» وربَّتَتْ على بطنها بيدٍ متورّمة.

«إنني أحبّك من كل قلبي، يا غليندا».

«وأنا أيضاً، ماما».

«دعينا نصرف الشيك ونشتري ملابس للطفل».

قالت غليندا «نعمممممممم!».

نغادر المطعم وننغمس في العلاج بالتبضُّع.

حتى في أسوأ اللحظات بين الأمهات وبناتهن، يكون التبضُّع هو

علاج كل شيء. إنني أحبّ أنْ أرى غليندا تبدو جميلة في ثوبٍ جديد. ليست هناك من مشكلة تقريباً لا يحلّها ثوبٌ جديد. إلى أنْ تأتي الفاتورة.

لكنَّ العلاج بالتبضُّع ليس سهلاً مع ابنةٍ حامل بخمسة أشهر وتزداد انتفاخاً. لا شيء يسير على ما يُرام وأنتِ في مرحلة نمو الطفل من الحمل. كلنا ينتهي بنا الأمر إلى ارتداء الأكياس الفضفاضة البالية أو الجينز بعد اقتطاع الجزء الأمامي واستبداله بمادة مرنة – أو كساء يناسب امرأة عملاقة. أو أي schmattas (خرقة) مرنة. مَنْ الذي قال لو أنَّ الحملَ مسرحيّة لحذفتُ الفصل الأخير منها؟ ربما كلنا قلنا هذا. فالنوم يُجافيكِ، ولا تستطيعين أنْ ترتدي ملابس تبدين فيها أنيقة، ولا تستطيعين أنْ تقودي سيارة، وتتمايلين في مشيك كما البطّة بدل أنْ تنسابي كأميرة. ويخيّل إليك أنه لن ينتهي. فقط فقدان الذاكرة يدفع أي امرأة إلى تكرار المُحاولة. على الرغم من أننا نحب أطفالنا حباً يفوق الخيال، وكلَّ توقُّع. إنَّ الطبيعة أمٌّ فائقة البراعة.

وهكذا ننساب داخل مخزن لبيع الملابس غالية الثمن ونشتري ملابس للطفل صنعَتْها سيدات مُعدمات لكي يُطعمنَ أطفالهن وتلمع بيافطات بالفرنسيّة والإيطاليّة، تحمل في مُعظمها أسماء رجال هم أنفسهم لم يرتدوا في حياتهم ملابس أطفال.

الجزء الثاني

الشتاء

-5-

المال هو الأصل

هبّوا املؤوا كأس الطلى قبل أنْ
تفعم كأس العمر كفّ القـــدر
أحسُّ في نفسي دبيب الفنـــاء
ولم أصِب في العيش إلا الشقاء

• من «رباعيات عمر الخيّام»[16]

عندما قابلتُ آشر فريليش كنتُ في الخامسة والأربعين وأعيشُ مع ممثلٍ شاب يصلح أنْ يكون ابناً لي. كانت ابنتي في الثالثة عشرة وراشدة أكثر من عشيقي البالغ السادسة والعشرين. وأحببتُ أنْ أعتبر أنَّ نيكوس هو التجسيد الأميركي اليونانيّ لشيري بطل رواية كوليت[17]، لكنه في الواقع كان مرتاحاً في مطعم فندق أستوريا حيث نشأ أكثر مما كان وهو

16 – ترجمة الشاعر أحمد رامي – المترجم.

17 – رواية كوليت «شيري» تتحدث عن الشاب شيري الذي يعيش مع مومس سابقة تكبره في السن بمقدار عشرين عاماً اسمها ليا، وكانت تنفق عليه بوصفه عشيقاً مؤقتاً، ولكن حين تُزوِّجُهُ أمُّه من فتاة في مثل سنّه يكتشف أنه في الحقيقة يحبّ ليا وهي تحبّه، ويحاول أنْ يُخطِّط للهرب معها، لكنها ترفض أنْ تفعل وتطلب منه أنْ يعود إلى زوجته الشابة، لكنه لا يستطيع أنْ يتخلّى عن حبه لها، وينتحر – المترجم.

يرتدي مجوهراتي في صالون استقبال بالقرب من غابة بولوني. وكنتُ قد انجذبتُ إليه فقط بسبب شبهه بجيمس دين وبسبب قضيبه الذي لا يتعب. وبصورة ما انتقل من كونه علاقة عابرة إلى علاقة دائمة. لكنني كنتُ منشغلة في المسلسل ولا يتوفّر لدي الوقت لطرده بلباقة واستعادة نسخة المفتاح.

قابلتُ آشر في عرض مسرحي خيري لصالح مرضى الإيدز. كان هناك آلاف الممثّلين المثليين الشبّان والوسيمين، ومن بينهم آشر - الذي قام بدور الأب ذي الشعر الفضي. وفاز بقلبي بوسامته وطول قامته وعينيه البنيّتين الذهبيتين ولأنه تذكّر كل الأفلام التي اشتركتُ فيها - بل وتذكّر أفلاماً أخرى لي أُفضّل أنْ أنساها! كان رجلاً من النوع الذي ما كان يمكن أنْ أوليه أي انتباه في أيام صباي - القوي المسؤول، الذي يمتلك أسهماً وسندات وشركات تقوم بأعمال سريّة كصناعة الأنابيب وتنقية المياه. وبالنسبة إلى شخص يحب المسرح والسينما، كان يتمتع بموهبة متأصّلة في مجال الأعمال. كان أرمل محروماً (وكان قبل ذلك قد تزوّج وطلّقَ بقدر ما فعلتُ)، فاحش الثراء، ولكن ليس هذا ما أحببتُ فيه - أنا التي لطالما دعمت الفاشلين الفنانين. ما أحببتُ فيه أنه ذكّرني بوالدي. بل إنهما كانا يشتركان في كونهما مولودين من برج الأسد - 10 آب - وكلاهما يتمتعان بالطاقة العنيفة نفسها وبالحس الفكاهي لمنطقة جبال كاتسكيل. كان آشر أبعد ما يمكن عن النوع الذي يُعجبني حتى أنني أخبرتُ طبيبتي النفسية حينئذٍ - وكانت امرأة ضخمة بشعر شائب اسمها بوبو بريسلر (اسمها الأصلي بربارة نيويرث، تؤلّف كتباً حول مساعدة الذات جنسياً: وأشهر مؤلفاتها كتاب «***كيف تعالج نفسك بنفسك جنسياً***») - بأنني لا يمكن أنْ أُصاحبه. ولم تُصدِّق هرائي.

قالت «بل ***تستطيعين*** أنْ تعشقي رجلاً يعبدك! فقط التفتي نحوه». (وكثيراً ما سرقتُ قولها هذا واستخدمتُه مع صديقات استشرنني عندما قابلنَ رجل أحلامهن من غير أنْ يُدركن. كنت أقول «التفتي نحوه»).

إيزادورا شعرت بالشيء نفسه. «إذا لم تتمسّكي به، سأفعل أنا». وفهمتْ على الفور أنني أحاول أنْ أبتعد عن رجل ممتاز.

واتّضحَ أنَّ نصيحتها وتحليلي كانا صائبين. لقد كان آشر مسلِّياً، رقيقاً ـ عذباً، وسخيّاً في بذل الهدايا. كان يشتري المجوهرات وكأنها كعك بالشوكولاتة. وكان يشتري أيضاً كعكاً بالشوكولاتة. في الغالب يُقدِّمه لغليندا التي تولَّعتْ به على الفور، واشمأزَّتْ منه حالما تزوَّجتْه، ومن ثم ارتبطتْ به طوال حياتها. وآشر أيضاً أحبَّ غليندا. كنتُ أعتقدُ أحياناً أنه يعشقها أكثر من عشقه لي.

في أول الأمر حاول نيكوس أنْ يُثير جلبة حول نفقته[18]، لكنَّ آشر أرسلني إلى مُحاميه ذي الحذاء الأبيض، توماس بريدويلْ، المُحترم، (أُقسِمُ)، الذي قال إنَّ مثل تلك القضية لم تمرّ أبداً تحت أسقف محاكم نيويورك. واستعدتُ مفتاحي. وأدهشتُ نفسي أكثر من دهشة أي شخص آخر عندما تخلّيتُ عن عشيقي الممثّل المُخادِع العاطل عن العمل من أجل مليادير لطيف. كان ذلك بالنسبة إليّ سلوكاً فظّاً جداً حتى أنَّ أصدقائي تسلّوا جداً بحيث أنهم لم يغاروا. في أول الأمر على الأقلّ.

ألم تكن أمي تقول دائماً «إنَّ الزواج من رجل ثريّ سهل كالزواج من الرجل الفقير»؟ حسن، الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إليّ. إلا إذا كنتُ أنا التي تُسدّد الفواتير. وشعرتُ بالعجز عن التحكُّم في نفسي. ثم إنَّ جيلي كان يعتبر أنَّ ارتداء البنطلون سوف يمنحنا المساواة الماديّة. هيهات! عندما قابلتُ آشر اضطررتُ حقاً إلى تغيير أسلوب تفكيري في الرجال. وفي نفسي أيضاً.

ولكن أين كمَنَتْ المشكلة؟ لقد كانت المشكلة تكمن لفترة وجيزة في اللب. فقد انتقلتُ مع غليندا إلى شقّة آشر المؤلَّفة من طابقين وأربع عشرة غرفة وتشبه المتحف وتقع في الجادة الخامسة. شعرتُ بأنني أنتقل من الظلام إلى النور، وأنا أطير جيئة وذهاباً إلى ميلانو مع آشر

18 – النفقة التي تدفعها العشيقة لعشيقها السابق – المترجم.

وأملأ المكان بقطع الأثاث المُستقبليّة، والتي سوف نُقْرِنُها بأعمالٍ من الفن الحديث. لكنَّ آشر لم يتحمّل تغيير أي شيء. لقد كانت زوجته الأخيرة – المُقدَّسة والميتة – قد عملتْ على تزيين الشقة على امتداد السنين. وإجراء أي تغيير سوف يكون بمثابة قتلها من جديد.

كرهت طريقتها في التزيين. أثاث فرنسي ممتاز طراز القرنين السابع عشر والثامن عشر، وسجاد الأوبوسون المنسوج يدوياً، وأقمشة غوبلان الباريسيّة، والمزهريات المزخرفة والثُريَّات، ولوحات فنيّة من الدرجة الثالثة إنتاج القرن الثامن عشر تنتمي إلى مدارس مختلفة. وكان لدى المرحومة زوجة آشر، المأسوف على شبابها، من المال أكثر من تمتّعها بالذوق السليم، ولكن ماذا في وسعي أنْ أقول؟ لقد كان رفض أسلوبها في التزيين أشبه برفضها هي. كانت قد ماتت ببطء متأثّرة بسرطان الثدي. فكيف أُسدِّد إليه ضربة قوية أخرى؟

كان آشر كريماً ومُحبّاً. وما افتقرَ إليه من تقنيةٍ جنسيّة عوَّضه بالحماس. وكان يجد متعة فائقة في السلوك الحميم اليوميّ للعلاقة الزوجيّة. ولكن هل كانت حقاً علاقة حميمة؟ وبعد مرور فترة من الزمن، جعلتني الحياة مع آشر أفهم لماذا قال فرويد إنه حتى هو لا يستطيع أنْ يُحلِّل شخصيّة امرأة جميلة أو ملياردير. لقد دفع مال آشر الناسَ إلى مُداهنته طوال الوقت، مما جعله قلقاً ومتغطرساً في وقت واحد. ومع ذلك، صمّمتُ على إنجاح الزواج. كنتُ قد خضتُ ما يكفي من العلاقات المُخفِقة. أما هذه فيجب أنْ تدوم.

ثم كانت هناك مشكلة أولاده.

كان ديكي (المعروف باسم ريتشارد) في الأربعين من العمر ويعمل مع والده. لم يكن يُسيء الظن بي كما كانت زوجته، أنيتا، الثرثارة الوضيعة، الجشعة، الطمّاعة التي كانت متيقّنة من أنني تزوجت آشر فقط من أجل ماله. ثم كانت هناك ليندسي، الابنة السحاقيّة التي في نظر والدها لا يمكن أنْ ترتكب أي خطأ. كان دائماً يدعو الله كي تحدث معجزة

ويُحاول أنْ يزوّجها. لم يأتِ أبداً على نُطق كلمة *مثليّة*. فهل كان يعتقد أنَّ شريكتها، لولو، مجرد رفيقتها في الغرفة؟ هكذا يبدو. كانت ليندسي مقبولة لكنَّ شريكتها كانت تعتمد على إرثٍ ضخم. وعلى الرغم من أنَّ لدى الفتاتان رصيدين سخيّين من المال، إلا أنَّه بدا أنَّ ظهوري على مسرح الأحداث يمكن أنْ يقضي على إرث الجميع.

هذا لا يعني أنني كنتُ في حاجة إلى مال آشر عندما تزوجت منه. لقد كنتُ حينئذٍ أكتب سيناريوهات أفلام وأُحقق النجاح. وبعدما انحدرتُ إلى الحياة الزوجيّة، وأصبحتُ مُنتجةَ حياتنا الاجتماعيّة ومُخرجتَها، أصبح المال من الضروريات. من الطبيعي أنَّ احتياجاتي امتدّتْ حتى ملأتْ دخل زوجي. وبدل التبضُّع من محلات لوهمان، صرتُ أشتري من فالانتينو. وبدل شراء الكافيار من محل زابار، بتُّ أشتريه من محل بتروسيان. وبدل أنْ أقوم بالطبخ بنفسي من أجل حفلاتي، استأجرتُ طبّاخاً خاصاً. الشيء الوحيد الذي لم أقُمْ به هو أنْ أستأجر سكرتيرة لتنظيم الحفلات. كنتُ أفعل ذلك بنفسي. كان ينبغي أنْ أفعل شيئاً إلى جانب التبضُّع.

لم يجعلني أيٌّ من هذه الأشياء أكثر سعادة. إنَّ روح الاستهلاك الواضحة في نيويورك في حالة تصاعُد مستمر. ومهما كنتِ مُسرفة، هناك دائماً مَنْ يفوقك في ذلك.

لقد فهمتُ هذا كله منذ طفولتي في هوليوود. لا شيء منه كان حقيقياً. ولا شيء منه كان يهمّ حقاً عندما ينتابك الأرق في الساعة الثالثة فجراً وتصعد الشياطين من الأعماق لتسكنك. أما بالنسبة إلى آشر فشكّلَ الأمر جزءاً من مسابقة أطول قضيب التي كانت حياته. زوجة جميلة، وطائرة نفّاثة خاصة، وشقّة من طابقَين في الجادة الخامسة، ومزرعة في كونكتيكت، ومنزل على شاطئ «الويست إند» في لونغ أيلند، ودارة في كيب فيرات، وطبّاخ يعمل لحساب جورج سوروس. كل هذه الأشياء مهمّة لأنها تبثّ الخوف في قلوب الرجال الآخرين وتجذب النساء.

تلك كانت رموز الهيمنة التي دفعتْ الثدييَّات الكبرى إلى تقبيل أعضائك السفليّة. وطبعاً عندما فعلوا انتابك شعور ساخر ومُرتاب.

في الحفلات الخيريّة التي اضطُررنا إلى حضورها، كنتُ أتسلّى أحياناً بتخيُّل المُشاركين كلهم على هيئة قرود أو سعادين يعتني كل منهم بالآخر، كاشفين عن مؤخّراتهم المُحمرّة، يركعون أمام أشدّ المليارديرات عملاً للخير ويلتقطون (ويأكلون) ما عليهم من براغيث. كانت طقوس العناية شديدة الوضوح. لم يكن في الإمكان بأية حال فتح حديثٍ راقٍ لأنَّ من المستحيل سماع ما يقوله أي شخص. ولكن بمجرد مراقبة رقص الثدييَّات الأخرى تعلم مَنْ هو الشخص المهمّ ومَنْ ليس كذلك. كان أفراد الكومبارس الذين يجمعون المال والمُخرجون المُنفّذون للأعمال الخيريّة على استعداد للتذلُّل حتى من أجل الحصول على قروش قليلة نسبياً. وبما أنهم وُلِدوا راكعين، لم يتمكَّنوا من الانتظار ريثما ينبطحون على وجوههم، وكان أصحابهم من كبار المليارديرات يعلمون ذلك.

كان آشر يقول «ها هو الفرنسي الزائف من المتحف يقتربُ منا. دعينا نبتزُّ ماله». ثم أراقب سيمون دي سينالونغا وهو يتذلّل متظاهراً بأنه لا يفعل ذلك، ويدعونا معاً إلى مائدة الغداء، ويُحاول أنْ يُحدِّد موعداً ليأتي إلى شقّتنا ويُقيِّم اللوحات الفنيّة، وطوال الوقت يتظاهر بـأنه لا يهتمّ إلا بالفن.

كان آشر يحبّ أنْ يجعل من سيمون قرداً، يحبّ أنْ يُراقبه وهو يُدقّق النظر في فلذة الألماس على ثوبي الأحمر من فالانتينو، ويحبّ أنْ يراقبه وهو يحاول أنْ يُحصي عدد الأحجار الكريمة على قلادتي. كنا أشدّ اتّحاداً ونحن في الأماكن العامة وتحت ومض أضواء آلات التصوير. كان عَرْضَنا الأفضل. وشككتُ في أنْ ينطبق هذا على العديد من الأزواج في الحفلة الذين كانوا يتبادلون الغزل الزوجيّ علناً، ومن ثم يذهبون إلى المنزل ولا يُكلّم أحدهم الآخر أبداً – كطفلين في الثانية من العمر داخل صندوق الرمال منهمكين في لعبٍ منفصل.

ظهر سيمون بلحيته الصغيرة المُشذَّبة، مرتدياً بذلة مُفصّلة من الجوخ، ويتكلّم بلكنة لا يستخدمها إلا مُدراء المتاحف ومعلنو مقطوعات الموسيقى الكلاسيكية، وأخذ يتحدّث عن الجناح الجديد الذي كان يُنشئه في سنترال بارك. وتظاهر آشر بأنه مفتون بما يقول.

غرّد قائلاً «هل أنتَ مستعدٌّ لتسميته جناح فريليش؟».

قال سيمون «حسب الظروف».

سأل آشر «كم سيكلِّف؟».

«المسألة لا تتعلَّق بالمال».

«بمَ تتعلَّق إذن؟».

«هل أستطيع أنْ أصحبكما لتناول الغداء في غرفة الأمناء؟».

قال آشر «اتصل بي»، وأشاح وجهه.

بالكاد كنا أصبحا خارج مسمعه عندما قال آشر «ذلك القرد يقول إنَّ الأمر لا يتعلَّق بالمال».

«هسسس، سوف يسمعك».

«فانيسا، سوف يتملّقني حتى وإنْ أهنته في وجهه. إنَّ أولئك الناس معدومو الإحساس. وحساسيتهم لا تتعدّى حساسيّة كرسي مرحاض لعين. إنهم ليسوا أكثر من آلات حاسبة إنسانيّة تحملُ أسماءً إيطاليّة. لا يمكن إهانتهم. صدّقيني، لقد حاولت».

كان آشر بارعاً في الإزعاج. في الحقيقة، كانت تلك واحدة من أفضل صِفاته. ليست لديه مُحرَّمات. اللهم ربما فقط زوجته الراحلة، التي لا يمكن أنْ ترتكب أي خطأ. شيء مُذهلٌ كيف يمكن للأزواج الملائكة أنْ يتحوّلوا بعد أنْ يموتوا.

مع استلام ديكي فريليش تدريجياً الأعمال اليوميّة، قرَّرَ آشر أنْ يُصبح فنّاناً. ولا شكّ في أنه كان يعرف عدداً كبيراً من الفنانين يسعون إلى أنْ يكون زبونهم. لِمَ لا يستطيع أنْ يُصبح واحداً منهم؟ ليس لوحة يوم

الأحد التي رسمها معبوده وينستون تشرشل ما أراد ولا منشئات الفولاذ الخاصة بصديقه آرثر كارتر[19]، بل أراد أنْ يُقيم أعمالَ حفرٍ فنيّة عملاقة على غرار ما فعله روبرت سميثسون[20] أو غطاءً لنُصُبٍ تذكارية مصنوعة يدوياً على غرار كريستوس. وما أعجبه في أعمال الحفر هو ضخامتها، والمساحة اللازم شراؤها من الأرض، وعدد الناس المُستخدَمين لإقامتها. لقد بدا أنَّ خطوط الأنابيب والصهاريج لا تختلف كثيراً عن فن الحفر في التراب إلا في أنَّ فن الحفر ليس له استخدام عمليّ. وهذا ما وجد هوى لدى الحسّ الساخر عند آشر.

«ما دمتُ مجرد مُنشئ أنظمة ريّ يمكن طردي بوصفي grubber yung (شاباً فظّاً) ثريّاً – ولكن عندما أُنفِّذ هذه الأشياء، فأنا فنّان! تعجبني الفكرة! إنَّ تعريف الفن هو أنه شيء لا فائدة له». وكان آشر قد أصبح ثرياً عبر تشكيلة من الأعمال بدءاً بالتمويل ثم العقارات ثم المياه.

إنَّ أشدّ ما أثار إعجاب آشر من بين الأعمال الحديثة هو تمثال «*Spiral Jetty*»، المُقام في بحيرة سولت الكبرى في ولاية يوتا. واضطررنا إلى الانتقال إلى هناك بطائرتنا لنتفحّصه من جوانبه كلها. وجلبنا كل الكتيبات ولاحظنا كيف غيَّر لونه على مرّ السنين. ولما كانت مؤسسة ديا على عِلم باهتمامه بسميثسون، حاولتْ أنْ تدفع آشر إلى تمويل عملية ترميم التمثال، لكنَّ آشر أراد أنْ يُنشئ شيئاً فخماً يُضاهي *Spiral Jetty* ويوقِّع باسمه عليه. كان قد سئم كونه زبوناً دائماً، وأراد أنْ يكون فناناً. وهذا قاده إلى اقتراح استئجار سميثسون ليكون معلِّمه.

قال «لقد مات. مات في حادث تحطُّم طائرة في حقبة السبعينيات».

«حسن، سوف نفتش عن فنان يعمل بالحفر في التراب».

---

19 – آرثر كارتر (مولود عام 1931): مدير مصرف استثماريّ، وناشر وفنان، أميركي – المترجم.

20 – روبرت سميثسون (1938 – 1973): فنان أميركي، يُعنى بالمزج بين التصوير الفوتوغرافي والرسم، والحفر على الأرض – المترجم.

قال «الأمر ليس بهذه البساطة. إنَّ فن الحفر في الأرض لم يعُد رائجاً».

هنا قرَّر أنْ يصحبني في جولة على الحلقات الحجريّة في إنكلترا وأيرلندا.

قال «لطالما عبَّرَ الناس عن تشريفهم لآلهتهم بالصخور وبالتراب!».

«لكنكَ لا تعبِّر عن تشريفك لله، أنتَ تعبِّر عن تشريفك لنفسك».

نظر إليّ مُنتقداً، ومستهجناً تقريباً - كحاكم مُستبدّ يوشك أنْ يُصدر أمره بقتل المحظيّة. ثم انفجر في نوبات من الضَحك.

«لهذا السبب أحبّك، نيس، لأنني لا أستطيع أنْ أجعل أي شيء ينطلي عليك. أنت تعرفينني يا حبيبتي»، وشدّ على يدي، حتى كاد يبتر أحد أصابعي بالحجر الكريم الأصفر الضخم الذي أضعه.

همست «آوه!».

«إنَّ ذلك الشيء قاتل. في المرة التالية ذكّريني كي أشتري لك حجراً أصغر حجماً!».

لقد كنتُ أعرفه. ولكن هل كان هو يعرفني؟ هل كان يعرف أنني أحببته من كل قلبي؟ كنتُ أريد أنْ يكون ذلك جلياً.

الحقيقة هي أننا جميعاً نريد أنْ نكون معروفين. وفي الوقت نفسه نخشى ذلك. نريد أنْ نرفع القناع، والشخص الذي يستطيع أنْ يرفع عنا القِناع يفوز باحترامنا. وهذا هو السبب الحقيقي لوقوع آشر أسير حبّي. لقد خرقت معرفتي له حصار وحدته. لعلّ زوجته الراحلة الملائكيّة لم تعرفه جيداً - على الرغم من أنه لم يعترف قط بهذا حتى لنفسه.

إنَّ المال يشبه الجنس. أحياناً كلما حصلتِ على المزيد منه قلَّ رصيدك منه. وكما يعرف الحكماء الصينيّون، لا يمكن لأي مبلغ من المال أنْ يجعل الناس يمدحونك من خلف ظهرك. لكنَّ آشر كان يُخزّن المال في الأساس لكي يُثير إعجاب الرجال الآخرين ممّن يُخزنون المال. لقد كانوا نظراءه، الذين يحتاج إلى إثارة إعجابهم. ولن أنسى

دهري اليوم الذي علِمَ فيه أنَّ أحد مُعاصريه يشتري طائرة كونكورد خارج الخدمة وينوي أنْ يستخدمها لانتقاله الخاص. كاد يُجنّ.

«أعلمُ أنَّ المشروع غير عمليّ إلى درجة الحمق، لكنه يُزعجني. إنَّ ابن الحرام ذاك سوف يصل إلى باريس في غضون ثلاث ساعات بينما سوف يستغرق منا ذلك ست ساعات!».

«كم يُكلِّف تشغيلها؟».

«ليس هذا هو المهم!»

«ولا تستطيع أنْ تطير بها إلى كاليفورنيا».

«لو كانت ملكي لغيّرتُ القوانين لصالحي».

«إنَّ لدينا طائرة جميلة!» – حينئذٍ كان لدينا طائرة طراز Gulf-stream 4 .

«ولكن بالكونكورد يكون لدينا قصرٌ طائر!».

«لِقِصار القامة. وما أهميّة هذا؟».

«إنَّ ذلك الأبله سوف يحصل على شيء ليس في حوزة أي شخص آخر».

«إنَّ سلطان بروناي لديه الكثير من الأشياء ليست عند أي شخص آخر – بما فيها الحريم».

«أنا لم أذهب إلى المدرسة الثانوية مع سلطان بروناي!».

«أهذا هو فحوى الأمر؟ المدرسة الثانوية؟».

«بلا أدنى شك».

«يا له من تصرّف صبياني. إنَّ الحياة كلها ليست المدرسة الثانوية!».

«ربما هي كذلك بالنسبة إليّ. ثم – إنَّ كل ما يتّصل بالمال هو صبيانيّ. ما الغريب في هذا؟ ما زال يشتري أشدّ ما أحتاج إليه».

«وما هو؟».

«الاحترام».

«أو النِّفاق. ما حاجتك إلى هذا؟».

«كل شخصٍ يحصل على النفاق من الآخرين. وأنا أُفضّل أنْ أحصل عليه بارتياح. إنّ أبي لم يتعلّم هذا أبداً».

«لا أحد يستطيع أنْ يقول إنك لم تكن مرتاحاً. أنا متأكّدة من هذا».

«لهذا أحبّك، يا طفلتي» وقبّل أنفي.

لم يكن أبواي أقلّ هوساً منه بالمال، على طريقتهما الخاصة – وعلى مستوى أدنى. لقد نشأا خلال فترة الكساد الاقتصادي وتلك الفترة بالنسبة إليهما كانت لا تزال حاضراً واقعاً. وقد نقلا ذلك الواقع إلى بناتهما. كنا نحن الثلاث متأثّرات بقَلَقِهما حول المال. نحن الثلاثة شعرنا بالفقر على الرغم من أننا ربما سنرثهما ولم نعرف الفاقة أو الجوع أو العمل في المصانع السوداء. كنا نحمل في داخلنا أوليفر تويست يهتف «أريد المزيد، من فضلك».

-6-

كائن بشريّ

«على الكائن البشري أنْ يكون قادراً على تغيير حِفَاض، ووضع خطّة للقيام بغزو، وذبح خنزير، وتوجيه دفّة سفينة، ووضع مُخطّط لبناء، وتأليف قصيدة شِعرية، وموازنة أرصدة مصرفيّة، وإقامة سور، وتجبير عظمة، ومواساة محتضر، وتلقّي أوامر، وإصدار أوامر، وتنسيق، والعمل وحيداً، وحلّ معادلات، وتحليل مسألة جديدة، ومعالجة السماد الحيواني، وبرمجة الكومبيوتر، وطبخ وجبة شهيّة، والقتال بفعاليّة، والموت ببسالة. إنّ التخصُّص هو من سِمات الحشرات».

• روبرت هاينلاين، من كتاب
«غريب في أرضٍ غريبة»

يُحكمُ الشتاءُ قبضته. والطقس يزداد غرابة – فهو بارد في أحد الأيام وقائظ الحرارة في اليوم التالي. أعاصير تحدث في نيويورك جديرة بولاية كنساس ورطوبة ليالي نيويورك تعمُّ كنساس. وهناك فيضانات

جارفة في نيو جيرزي وكونيكتيكت. الشواطئ غُمِرَتْ في لونغ أيلند وكيب طود. والكثبان الرمليّة لا تستطيع أنْ تجاري سرعة التغييرات. ولا حتى الملياردیرات في إيست إند يستطيعون أنْ يُعيدوا بناء كثبانهم الرمليّة بالسرعة اللازمة من أجل إنقاذ «أكواخهم» التي كلّفتهم الملايين.

إنّ حواجز الشواطئ هي معالم جيولوجيّة مؤقّتة – مثل مساقط المياه، مثلنا. والكوكب كله يبدو كأنه يغرق. أو يتحول إلى رماد. ونطرحه من تفكيرنا كما يفعل الناس. قال لاروشفوكو «لا الشمس ولا الموت يمكن النظر إليهما بثبات». قد يكون من الصعب استيعاب موت كوكب، لكنَّ معظم حالات الموت هي أشدّ خصوصيّة وأقلّ كشْفاً. إنها تبدأ ببساطة مُذهلة.

اتّصل بوّاب العمارة بالشقّة، «لقد انهار زوجُك في البهو».

أنا بثوب الرقص وحافية، ومتأهّبة للتمرين مع الرجل البلقانيّ، مُدرِّبي الصِّربي.

أقول لإيزادورا «يجب أنْ أذهب!». إنني أكلّمها بالهاتف باستمرار. تسأل «لماذا؟».

«لقد انهار آشر في البهو!».

«أوه يا ربي!» وأمرتْني «اتَّصلي بي!».

أُسرعُ إلى المصعد وكأنما بحركة بطيئة وأنساب على الدَّرَج لأجد زوجي شاحب الوجه ويتشبّث بأرضيّة البهو الرخاميّة، ويُتمتم، «سأكون بخير، يجب أنْ أصل إلى المكتب...» ثم يتقيّأ ويسقط من جديد.

يقول البوّاب «حضرت سيارة الإسعاف».

في الشارع، فجأة حلَّ طقس شهر كانون أول الذي يُجمِّد الأطراف. يكتب الشاعر روبرت فروست عن نهاية العالم («الثلج ناعم/ ويكفي») تزعق صفّارة الإسعاف حتى تصل أمام المبنى الذي نقطن فيه. ويظهر الممرضون ويربطون آشر إلى النقّالة.

قبل أنْ يخرج يُردّد قائلاً «أنا بخير، سوف أعود إلى العمل». يُفتَح

باب سيارة الإسعاف الواسع والمزدوج لاستقباله. يُوصِله الممرِّضون بالأنابيب، ويُمدِّدونه، ويُعطونه الأسبرين. فيتقيّؤه.

يقولون «إلى لينكس هيل».

أعترض، «كلا إلى مستشفى نيويورك»، لعلمي أنَّ طبيبه الخاص يعمل هناك. وما تبع ذلك كان جدالاً عنيفاً مع الممرِّضين، وفُزْت.

في مستشفى نيويورك ينشط فريق علاج النوبات القلبيّة، ولكن ليس قبل أنْ يتفحّصوا وثيقة ضماننا الاجتماعيّ. أنا في حالة ضياع - ضياع يتولّاني دائماً في الحالات الطارئة - خالية من المشاعر، أُصدر الأوامر، بلا تردُّد، بلا تلكُّؤ. إنني دائماً أُصبحُ في حالة من التركيز الشديد عندما تُصبح حياة شخص أحبُّه على المِحَكّ.

من جديد، يتقيّأ زوجي الأسبرين نصف المنحلّ. إنَّ كل شيء مُعلَّق مثل ذلك الأسبرين. إنَّ الموت حاضرٌ دائماً هنا في الحياة. كنا نريده خفياً لأننا لا نتحمّله كما لا نتحمّل نبأً يقول إنَّ شمسنا سوف تنطفئ ذات يوم.

ثم يُخبرونني في مركز الطوارئ أنَّ زوجي أُصيبَ بنوبة قلبيّة معتدلة. وفي مختبر فحص الأشعة يُخبرونني بأنهم مُخطئون في تشخيصهم.

يقول الطبيب الجرّاح «يبدو أنه مُصاب بتمزُّق في الشريان المتمدِّد».

أسأل «هل أستطيع أنْ أحصل على رأيٍ ثان؟».

يقول الطبيب الجرّاح «هذا إذا أردتِ له أنْ يموت. إنَّ الزمن أمرٌ جوهريّ. يجب أنْ نباشر العملية الجراحية في الحال».

أقول «لكنه تناول طعام الإفطار»، متذكّرة عندما كانت غليندا في الثالثة من العمر واحتاجتْ إلى إجراء عملية جراحيّة لبتر إصبعها واضطررنا إلى انتظارها ريثما تنتهي من هضم وجبة العشاء.

يقول الجرّاح، كما قال الأرنب الأبيض في قصة *أليس في بلاد العجائب*: «ليس لدينا وقت».

في ذلك الوقت كانت إيزادورا قد وصلتْ، وتترجم لي. قالتْ «لا يستطيعون أنْ ينتظروا بسبب تمدّد الشريان».

«وما معنى تمدُّد الشريان؟».

قال أحدهم «أي أنَّ جدار شريان الدم ينتفخ وقد ينفجر».

قال صوت آخر «لقد انفجر *فعلاً*».

هنا انتبه زوجي وأصبح مُستعدّاً للكلام، وحمل لوح نتائج الفحص الشهير.

قال أحد الأطباء «وقِّع هنا».

«أتريد صمّاماً من المعدن أم صمّام خنزير؟».

قال آشر «لا يهمني. لا أتمسّك بالحلال والحرام»[21]

إنني أحبّه لأنه حتى في مثل تلك الأوقات، يحتفظ بحسّه الفكاهي.

يوقِّع وينقلونه إلى غرفة العمليات.

أُدركُ أنني ما زلتُ حافية وأنني أرتدي معطفه الأخضر القاتم الضخم والثقيل فوق ثوب الرقص والبنطلون الضيّق. إنني أرتعش. وقدماي يميل لونهما إلى الزُرقة.

إيزادورا تُمسك بيدي. تقول «سيكون كل شيء على ما يُرام». ولا يُصدِّق أيٌّ منا هذا كما لم نُصدِّقه عندما عاد زوجها من انهيار صخري محمولاً داخل تابوت، وفمه ملتوٍ وكأنه يقول «اللعنة!».

منذ أنْ أصبحتْ إيزادورا وأنا صديقتين، مرّتْ بسلسلة من التجارب كانت جديرةً بأنْ تكسر صاحب أي روح ضعيفة. كانت قد انتقلتْ من كونها فتاة جامحة إلى امرأة حكيمة. منذ أنْ ارتطم زوجها الحبيب بشجرة في أثناء انهيار صخريّ أصبحتْ أشدّ ما عرفتُ من النساء روحانيّة.

إيزادورا كاتبة نالت الشهرة في سن صغيرة جداً ومن ثم اضطرت إلى أنْ تحمي نفسها من شفا تدمير الذات. ومرّت مثلي بفترات رهيبة من الإدمان على الحب وسوء استخدام المخدرات. ولكن بعد أنْ شفيتْ

21 - لحم الخنزير مُحرَّم عند اليهود كما عند المسلمين - المترجم.

أصبحت مِثال الاستقامة على خُطى ابنتي. لقد أحببتُ سلامة تفكيرها وكياستها. وكانت مصدر إلهامي. وعلى الرغم مما نالت من شهرة مُبكّرة وما جلب ذلك لها من نقد، استمرتْ في الكتابة. إنَّ الاستمرار هو الاختبار الأساسي للشخصيّة.

تصلُ ابنتي مع الملابس التي لا بدّ أنني طلبتُها منها. إنها تتّصفُ بذلك الحسّ الفكاهي المهووس الذي ينشأ عن الرعب:

«ماذا ترتدي امرأة بينما تُجرى لزوجها عملية قلب مفتوح؟ هل ترتدي جينز J وسترة رايكل؟ أم سترة رالف لوران الصوفيّة وجينز بلو كلت؟ وماذا عن الحذاء؟ ماركة كليرجيري أم بلانيك؟ وحقيبتها - من فيندي أم من هرمز؟».

نضحك أنا وصديقتي لكي نتفادى البكاء.

أقبض على ملابسي، وأذهب إلى مرحاض السيدات، وأرتدي الملابس هناك وكأنما يجب أنْ يكون مظهري لائقاً بالعمليّة الجراحيّة التي تُجرى لزوجي.

وننتظر. يدخل الأطباء ويخرجون ونحاول أنْ نُطلِق عليهم ألقاباً، هناك الدكتور منتفخ، بعضلات ساعديه الضخمة، وبطنه المشدود، وقصّة الشعر القصيرة جداً؛ والدكتور المندفع، الذي يركض ولا يمشي؛ والدكتور مُجترّ، الذي دائماً يمضغ علكة.

يُعطينا الدكتور منتفخ إشارة V دلالة على الانتصار. والدكتور مندفع يقول، «حتى الآن، كل شيء جيد». وتدخل كتائب بملابس رسميّة أخرى وتخرج من غرفة العمليات. وكأنَّ كامل فريق لعبة بيسبول يُجري العمليّة لزوجي. وكأنَّ مباراتين تجريان في وقت واحد.

خلال السنوات القليلة الأخيرة أمضيتُ الردح الأكبر من حياتي منتظرة في المستشفيات. أولاً توفيَ والدا زوجي على التوالي تقريباً. ثم بدأت

حالة والديّ تتدهور. وحالما تلج عالم المستشفيات الأسطوريّ، لا تعود حياتك تخصّك - أو ربما تُصبح خاصة بك بصورة مُفرطة. تُصبح في زمن المستشفى، الذي يُبطئ حركته حتى مستوى الزحف. تُصبح في عالم المعلومات السرّية؛ حيث الجميع يعرفون شيئاً ما عدا أنت - وإذا أبديتَ احتجاجك فإنك تعرف أقلّ. وفي عائلتي، نحن دائماً نتبارى في مَنْ يتفوق على الآخر في البؤس. في الواقع، يبدو الآن أنني قد فزت.

يرتجف هاتفي الخليويّ. إنها أختي إميليا - لقبها إم.

تسأل عبر الهاتف «أين أنتِ؟».

أُدركُ أنني أهملتُ إخبارها عن مكان وجودي.

«آشر أُصيبَ بتوسُّع في الشريان الأورطي. أنا في مستشفى نيويورك في انتظار خروجه من إجراء عملية قلب مفتوح له».

تقول أختي «أوه يا ربي. أكاد لا أسمع صوتك».

أسمع أختي الأخرى تسأل «ماذا تقول؟».

«إنها في المستشفى».

«لماذا؟» هذا كل ما أسمع قبل أنْ يصمت الهاتف.

***

أنا جالسة بجوار آشر، النائم في وحدة العناية المُشدَّدة. جلده بارد كقطعة لحم في برّاد. غلينداً تبكي. جفنا آشر يرتعشان.

أقول، وأنا ألمس ذراعه الباردة، «ابقَ، أرجوك». أتمنى لو كنتُ أعرف *brucha* (صلاة تبريك)، لكنني خالية الوفاض من أية ثقافة دينيّة. لا أريد أنْ أُصبح أرملة كأختيّ. ولكني لا أريد له أيضاً أنْ يعيش مع ذاكرة معطوبة. كيف أُصلّي ولِمَنْ؟ لا أصدِّق أنَّ الله تربطه صِلة شخصيّة بكلٍ منا. نعم، هناك ما سمّاه ديلون توماس «القوة التي تقود الزهرة عبر الصمّام الأخضر»، ولكن هل هي قوة مُجسّدة؟ مَنْ يدري؟ إنه لا يُكلِّم كلاً منا بلغته المحلّيّة، وأقلّ من ذلك باللاتينيّة، أو العبريّة، أو اليونانيّة،

أو الهنديّة. أنا أؤمن بالله أو بآلهة، لكنني لستُ متيقّنة من أنَّ الله لا يزال يؤمن بنا. انظر إلى المِحرقة، وإعصار كاترينا، وزلزال هاييتي، وأحداث 9/11، والممارسات في أبو غريب. انظر إلى أحداث إطلاق النار في المدارس وعجزنا عن منعها...

لقد خاب أمل الله فينا. وفشلنا في الاختبارات كلها. إننا لسنا رُحماء أو طيّبين بالقدر الكافي لننال الخلاص. إنَّ الرحمة هي أرقى حِكمة، كما يقول التلمود. ووفق هذا المعيار، لسنا حُكماء، نحن الذين عذّبنا إخواننا من البشر ونعيش بكدّ أطفال صِغار سُمر. ها قد بُحتُ بما عندي. هذا ما أؤمن به. لا بدّ أنَّ في مكان ما من الكون هناك كائنات مُستنيرة، لكننا لسنا منهم. اذبحْ كل شيء، اسحقْه، حطّمه كبرج بابل. أغرقه وأغرق الآثمين. لا شك في أنَّ دورة جديدة من النشوء قد تُنتِج شيئاً أفضل من المُعذِّبين مُتنكّبي البنادق الذين يحتلّون كوكبنا.

يدخل الدكتور منتفخ ويُشير إليّ لكي أُقابله في الرواق.

يقول «إنَّ زوجك mazel (محظوظ) جداً. وزميلي، الدكتور أهرين، الذي تصادفَ أنْ كان موجوداً بالأمس، مُتخصِّصٌ في إصلاح الأورطي. لقد قام بعمليّة لحم رائعة - في مساحة طويلة مُستخدماً نسيجاً من «العِرْق الصافِن» في الساق. وكانت مراقبته شرفاً لنا. إنه يبدو في أحسن حالاته. لم نُضطر على الإطلاق إلى العمل على الصمَّامات. إنَّ زوجكِ محظوظ. والآن كل أملنا هو ألا يحدث تلوّث وأنْ يُشفى بصورة جيدة. ليست هناك ضمانات، ولكن...».

«متى سيصحو؟».

«في غضون بضع ساعات».

«لِمَ هو باردٌ هكذا؟».

«لقد اضطررنا إلى تخفيض درجة حرارة الجسم من أجل إجراء عملية القلب المفتوح. كان ينبغي أنْ نُعلِمك».

أقول في نفسي، كان ينبغي أنْ تفعل. ومع ذلك شعرتُ بامتنان عظيم لأنَّ آشر لا يزال حياً – مهما بلغت درجة حرارته. ربما من قبيل النِعمة أنني لم أكن أعلم بالأمس إلا القليل عن تمدُّد الشرايين. لو أنني كنتُ أعلم نسب الموت، والأمل الضيق للحصول على مساعدة – لفعلتُ بالضبط ما فعلتُ. لقد برهنتْ الغريزة على أنها دليل جيد بمستوى المعرفة.

قالت ابنتي، بعد أنْ سمعتْ شرح الطبيب، «ماما – إنه بارد كالثلج». وبدأتْ ترتعش. وقبضَتْ على يدي وضغطتها.

سألت غلينداً «هل ستكرهينني إذا انتظرتُ في الرواق؟».

قلت «طبعا لا – يمكنك أنْ تنتظري أينما شئت».

عانقتني إيزادورا. وفرّتْ غلينداً.

منذ ذلك اليوم صرتُ أقضي الأيام والليالي في المستشفى. وفيما بينها، أنا دائماً مع الهاتف أُصغي إلى نصائح لا فائدة منها من أصدقاء أو أحكي فصلاً عن وضع آشر لأقربائه. إنَّ الناس يتظاهرون بالاهتمام عندما يوشكون أنْ يُصبحوا أرامل. وفي نيويورك يعرضون تقديم مُدلّكين لمعالجته، وأطباء نفسيين، ومُعالجين بوخز الإبر، وإجراء عمليات تجميل. وكأنَّه في استطاعتك أنْ تقفز وتُعيد بناء حياتك في لحظة. وكأنك *تريد* هذا.

إنني مُستعدّة تماماً لمعرفة أنه إذا لمْ ينجُ آشر فسوف يستغرق مني سنين للتعوُّد على الفكرة. لن أخرج بحثاً عن الحب في كل الأماكن الخطأ، ولن أضع إعلانات على الإنترنت. كيف أعرفُ هذا؟ فقط أعرف. أعرفُ لأنَّ إحدى أفضل صديقاتي فقدت زوجها في انهيار صخري وهو في الخمسين واستغرقَ منها الأمر عقداً من الزمان كي تفتح ذراعيها للحب من جديد. لا يمكن للمرء أنْ يستبدل الأشخاص هكذا ببساطة كما يستبدل قمصانه أو أحذيته الرياضيّة. لقد بدأتُ أفهم أنني إذا فقدتُ

آشر، فإنَّ حياتي كلها سوف تُصاب بالذهول. إنني لم أدرك أبداً كم أنا في حاجة إليه، كم أحبّه.

أأنا مجنونة، أم أنني أسمع ابتهاجاً داخلياً في أصوات المعارف؟ كأنَّ الهاتف يهمس: ***أنا سعيد لأنه ليس أنا، أنا سعيد لأنه ليس أنا، أنا سعيد لأنه ليس أنا.***

في كل يوم عند منتصف الليل، يتّصل أخو آشر بي من لوس أنجليس.

«ماذا يقول الطبيب؟».

«لا جديد».

«لا يمكن ألا يكون هناك جديد».

«إنهم لا يُصرّحون أبداً بما لديهم - كما تعلم».

«كيف حال آش؟».

«إنه لا يعي ما قاسينا. كان فاقداً للوعي طوال الوقت. يقول إنَّ تمدُّد الشريان حصل لي وليس له. إنه يريد مني أنْ أُحضِر له طعاماً صينيّاً».

«وماذا تفعلين؟».

«أُحضِرُ له طعاماً صينياً».

يصرخ أخو زوجي العجوز «كيف تفعلين هذا؟ يجب أنْ يتَّبع حِمية قليلة الدسم».

«إذن تعال إلى هنا واجعله يخضع لها. إنه لا يأكل إلا الطعام الصينيّ من أجلي».

«أتمزحين؟»

«أبداً. أنت تعرف كم هو عنيد».

«ولكن يجب أنْ تُجبريه على أكل طعام صحّي. إنَّ حياته تتوقف عليك».

«إنني أحاول».

وهذا صحيح. إنني أذهب مع إيزادورا إلى محل «الأطعمة كلها»

ونشتري كل الأطعمة قليلة الدسم – البقول، والأرز، والسمك. وآشر يرفض تناول أيّ منها – أو طعام المستشفى.

يقول «إذا كنتُ لا أعلم كم سأعيش، فسوف آكل كل ما أحبّ»، ثم يغمس الكركند الصيني داخل عدد من علب صلصة الصويا.

«أليس مالحاً كفاية؟».

«معك حق».

أحاول أنْ أحدّثه عمّا يتذكّر من عمليته الجراحيّة.

«لا أتذكّر شيئاً. كنتُ مُحلِّقاً».

«أتعلم أنك غبتَ عن الوعي ثلاثة أيام؟».

«كيف لي أنْ أتذكّر هذا؟ لكنني أعلم أنكِ أنقذتِ حياتي. وأعلم كم أحبّك».

«وأنا أيضاً» وأمدُّ يدي لأضعها على قلبه لكنَّ الضمادات تعترضُ طريقي. فيقبض على يدي ويشدّ عليها برفق.

لقد كنا معاً في المساحة الماديّة نفسها ولكن كلاً منا كان يسكن مساحة عقليّة مختلفة. وكأنَّ من المستحيل أنْ نتقاسم معاناتنا. إنها مُفارقة المرض. واقعيّة أي منا هي الأصحّ؟ إنَّ المريض يسكن كوناً، والصحيح يسكن آخر. بل إنهما حتى قد لا يتوازيان. والحواجز بينهما أكثر سماكة من الفولاذ المطروق.

إنَّ آشر لا يعرف الخوف. أجلسُ بجوار سريره، أراقبه وهو يقرأ الورقة وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

«أكاد لا أُصدّقُ هدوء أعصابك».

«لأنني نمتُ طوال فترة الأزمة كلها. وأنتِ كنتِ يقظة».

«ألم ينتبك الخوف من أنْ تموت؟».

«كلا. كنتُ أعلم أنَّ كل شيء سيتم بسلام».

هذا هو سبب زواجي من آشر. كونه شجاعاً حين أكون خائفة، وهادئاً عندما ينتابني الجنون. إنّ ما يجري في عروقه مُضاد طبيعي للكآبة. إنه متفائل. والتفاؤل هو مصدر نجاحه. كان جديراً به أنْ يكون متفائلاً وسط مِحرقة أوشفيتز، وكان سينجو. ولا أعلم ماذا كان سيحدثُ لي.

بعد أحداث 9/ 11، عندما جلستُ أمام الكومبيوتر أُجري بحثاً عن ملاجئ الاحتماء من القنابل لكي أنشئ أحدها تحت منزلي الريفيّ (على الرغم من أنه لا يحتوي طابقاً سفلياً ومُقام على صخر صلب)، طمأنني بأنها *ليست* نهاية العالم.

قال «بل إنها ليست حتى بداية نهاية العالم».

كان لا بدّ من أنْ تحبّي رجلاً كهذا. أنا أحببتُه.

كان شتاءً هطلت فيه الثلوج غزيرة. كانت المدينة تتدثّر بالثلج على الدوام. وانهارت الأشجار. وانقطع التيار الكهربائي. وكان في مدينة نيويورك من الملح أكثر مما في البحر الميّت. كان تغيُّر المناخ قد حلّ بنا – أو إل نينو El Nino [22] أو كلاهما. ولم ينقطع هطل الثلوج وكأنها تريد أنْ تدفن أشباحها. كنتُ دائماً أفكر في قصة «الموتى» لجويس لأتذكّر كيف وصف «الثلج الهاطل بوهن... كحلول نهايتهم الختاميّة، على الأحياء والأموات»[23]. كان ذلك الطقس يتّصفُ بسِمة نهاية العالم.

في أحد الأيام، بعد وقوع عاصفة ثلجيّة قوية دفنت السيارات وذكّرتني بالعاصفة الكبرى التي وقعت في عام 1947 عندما كنتُ طفلة صغيرة (كان والديّ قد عادا إلى نيويورك من أجل إجراء بعض اللقاءات، وكنا نحن الثلاث في رفقتهما، وعلقنا وسط عاصفة ثلجيّة عنيفة). ارتديت

---

22 – إل نينو: تيار دافئ يهبّ فجأة على السواحل الشرقيّة من المحيط الهادئ مع حلول عيد الميلاد – المترجم.

23 – قصة «*الموتى*»: قصة قصيرة من مجموعة جيمس جويس «*أهالي دبلن*». والجزء المُقتَطَف هو من الأسطر الأخيرة للقصة – المترجم.

أشدّ ملابسي دفئاً وانتعلتُ حذائي الثقيل وخرجت أتمشّى في سنترال بارك مع كلبتي المحبوبة، بيليندا.

كانت الأشجار مُثقلة بالثلوج. وبين حين وآخر تسقط كتلة كبيرة عن أحد الأغصان المُحمّلة بالثلج. كان الصمت يرين على المدينة. الأطفال يركضون ويلعبون مرتدين سترات مُقلنسة برّاقة الألوان ويجرّون المزالج. إنني دائماً أرى رجالاً يُشبهون والدي - إلى أنْ يلتفتوا وأدرك أنَّ وجوههم مختلفة.

كم نحن أقرب إلى حلول نهايتنا الختاميّة مما كان جويس. لقد عاش في عالم بلا أسلحة نووية، وبلا تغيُّر في المناخ - ومع ذلك عانى بسبب ابنته[24]. لا تمرّ حياة إنسانيّة تخلو من خيبة أمل أو معاناة. لا يوجد أطفال لا يُسببون متاعب. لقد ابتكر لغةً لكي يحكي بها اضطراباته. ألا نتمنى كلنا لو أنَّ في استطاعتنا أنْ نفعل مثله؟

ذات مرة كان لديّ أستاذ لتعليم التمثيل يدوِّن دائماً مقتطفات من ستانيسلافسكي على ورق المخطوط المُجعّد. كان يقول «إياكِ أنْ تنسي نفسك وأنت تمثلين، إنّ كل شيء يخرج من كيانك الخاص». في أول الأمر لم أفهم معنى كلامه. كنتُ أعتقد أنَّ التمثيل يعني تلبُّس شخص آخر - ولكنْه في الحقيقة أنْ تكوني نفسك بحيويّة أكثر - بإنسانية أكثر. وقد استغرقَ مني فهم هذا ردحاً طويلاً من الزمن.

ولكنْ هنا وسط الثلوج، أصبح ذا مغزى. مَنْ أنا حقاً؟ أنا كائن بشري يتعثّر، مجهولة العمر، تعلم أنها سوف تموت. ولم أكن قد آمنتُ بهذا من قبل.

مشيتُ إلى حديقة «مهاجر هيل» واستلقيتُ على ظهري تحت تمثال المهاجر الذي يرزح تحت الثلوج مع بيليندا - التي تحب الثلج. أرفع ذراعيّ وأضغطهما على الثلج كما فعلتُ مع والدي وأنا صغيرة. عندما

24 - كانت ابنة جيمس جويس مُصابة باضطرابات نفسية وأمضت سنين عديدة في مصحّة نفسيّة - المترجم.

نهضتُ واقفة، شاهدتُ انطباع أثري الملائكيّ، المُنتفخ قليلاً بسبب السترة المُقلنسة، التي تُحيط بي. وأثر كلبتي الملائكي كان أيضاً غير واضح المعالم.

سمعتُ والدي يقول «دائماً نامي وأنتِ جائعة؛ هذا هو سرّ بقائك نحيلة - لا تأكلي ليلاً» وما لم يقُله هو أنه كان يؤمن بأنَّ النحول يضمن الخلود. يا إلهي، كم كان على خطأ.

***

وأنت شاب تكون طاقتك من الضخامة بحيث تعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تفعل أي شيء، لكنها أيضاً غير موجَّهة. ومع تقدّمك في السن تُضطر إلى توجيه طاقتك لأنها محدودة.

لا يتوقف الثلج الرطب عن الانهيار عن الأغصان على هيئة انفجارات بيضاء. وبينما أتمشى مع السيدة ب. يزداد خوفي من أنْ يسقط غصن على رأسي ويقتلني. والخوف يجلب معه الإثارة، كما قال ستانيسلافسكي[25] أيضاً.

أظل أعتقد أنني أرى والدي يندفعُ ماراً بسرعة من خلف الأشجار. إنه يبدو بالضبط كما بدا عندما كان هو وأنا شابَّين. هل أعتقد أنني لو أعود شابّة من جديد سوف أحصل على والدي الوسيم من جديد؟ إذ ما السِحر أصلاً - غير نيّة عميقة في التغيُّر؟ ما السِحر إلا استعادة الزمن؟

في طريق عودتي سيراً على الثلج مع بيليندا، أفكِّرُ في أنَّ من المستحيل أنْ نشرح للشبّان ما يحدث عندما يعلم المرء أنه ليس منيعاً ضد الموت. عندئذٍ كل شيء يتغيَّر. إنه ينظر إلى العالم نظرة مختلفة. عندما تكون شاباً لا تكون لك وجهة نظر، تعتقد أنَّ الحياة ستستمر إلى الأبد - أياماً وشهوراً وسنين ممتدة إلى ما لا نهاية. تعتقد أنك لستَ مُضطراً إلى

---

25 - كونستانتين ستانيسلافسكي (1863 - 1938): ممثّل ومُخرِج روسيّ، ومؤسّس مسرح الفن في موسكو. مشهور بنظريته في التمثيل المُسمّاة بـ«الأسلوب» والتي تقود الممثل إلى أن يعثر على الحقيقة في داخله من خلال الدور الذي يؤدّيه - المترجم.

الاختيار. تعتقد أنَّ في وسعك أنْ تهدر الوقت في تعاطي المخدرات وشرب الخمر. تعتقد أنَّ الزمن سوف يكون دائماً في صالحك.

لكنَّ الزمن، الذي كان ذات يوم صديقك، يُصبح عدواً لك. يقفز مُسرعاً بينما تتقدَّم أنت في السن. وتحل أيام العُطل أسرع فأسرع. وتطير السنوات مهرولة على أوراق الروزنامة كما في الأفلام القديمة. وكل ما تتوق إليه هو أنْ تعود إلى الوراء وتعيش من البداية، تُصحِّح الأخطاء، وتصنع كل شيء بكل صحيح. لا بدّ أنّ والدي شعر هكذا. إنني أفهم عندما فات الأوان لإخباره هذا.

هل يموت كل شخص دون أنْ يُنهي عمله؟ ماذا عن أولئك الحكماء الذين يختارون ساعة موتهم، ويستدعون تلامذتهم، ويودِّعونهم؟ أم أنّ ذلك مجرد أسطورة ممتعة؟

إنَّ كون المرء شابّاً لا يتعلَّق فقط بالمظهر أو بالقدرة الجنسيّة؛ بل يتعلَّق بالطاقة. إنني أُذهَل بحصولي فجأة على فيض من الطاقة حتى أنني وبيليندا أخذنا نَخُبّ طوال الطريق إلى المنزل وسط الثلج الذائب.

-7-

حبّ السيد هيكل عظميّ

«الموت ظلٌ دائماً يتبع الجسد».

• مَثَل سائر

هل سبقَ لكَ أنْ أمضيتَ أيّامك متنقِّلاً ذهاباً وإياباً بين المستشفيات؟ هكذا أصبحتْ حياتي. فقد عاد والدي إلى المستشفى من جديد. كان يدخل المستشفى ويغادرها كما يحدث للناس في أواخر حياتهم. نزل في مستشفى جبل سيناء، وزوجي كان في مستشفى نيويورك – كنتُ أطير جيئة وذهاباً بينهما، مدفوعة بالحب وبالخوف.

عندما لا أهرع متنقّلة بين المريضَين، كنتُ أجوبُ مساحات شاسعة وحيدة كغيمة. كنتُ أبحث عن الحب على شبكة الإنترنت، حيث لاح بصيص أمل. هنا، على سبيل المثال، شاب أراد أنْ يطير بحبيبته ويطوف حول العالم في طائرة خاصة. كان قد قرأ رواية «إيمانويل» ورأى أنَّ ممارسة الجنس في الطائرة هو قمة الإثارة الجنسيّة. ومارستُ اللعبة فترة من الوقت، أعيش أوهام الجنس في الطائرة استجابة لتخيّلاته. كنتُ متيقّنة من وجود مكان من النشوة والتسامي أستطيع أنْ أعثر عليه

إذا عرفت شِفرته، إذا عرفت كلمته السريّة؛ مكان من الأحلام المقدّسة، والمياه الشافية، والنباتات التي في استطاعتي أنْ آكلها لأكتسب الخلود، وعدداً لا يُحصى من العشّاق المثاليين. كان عليّ أنْ أقطع غابة سحريّة، مملوءة بالأوراق الهامسة والأشجار المُخيفة المتهادية. كنتُ متأكّدة من وجودها، ولكن حلما اكتشفتُ المدخل، اختفتْ خلف الأوراق المرتعشة. ليتني استطعتُ أنْ أَلِجَها، كنتُ سأتحرَّر من اليأس، ومن الشيخوخة، كنتُ سأمحو تاريخي وأبدأ كل شيء من جديد. لقد كان الإنترنت أشبه بنبع الشباب، وبلسماً أشربه فأستعيد شبابي وأُجدِّد نفسي. كنتُ قد سجّلت في موقع Zipless.com وكأنَّ في استطاعتي أنْ أُغيِّر حياتي بإعادة كتابة قصة حياتي من أجل عشّاق الإنترنت في المستقبل. كنتُ متحكمة بالأمور بصورة ممتازة – ما دمتُ لا أقابل أياً من أولئك العشّاق الوهميين ولا أُصاب بخيبة الأمل.

في ذلك الوقت، كنتُ أتواصل مع «بايرون» الذي ادّعى أنّه عاش حياته على أساس مبادئ شِعريّة – مهما كان معنى هذا. كتب يقول «شعائر على أجساد عشيقاتي». لا يبدو هذا مُبشّراً بالخير. هل كان الإنترنت بحراً شاسعاً من الجنون؟ أحياناً يبدو أنه هكذا. وكانت مستويات البحر ترتفع!

سألتُ إيزادورا في المرة التالية التي تناولنا فيها الغداء معاً «هل ما زلتِ تعتقدين أنَّ فكرة النكاح الحرّ زائفة؟».

«تقصدين إلى جانب كونهم سرقوا شِعاري؟».

«نعم. يجب أنْ تُقاضيهم».

«لا أريد أنْ أقضي ما تلقّى من حياتي في ملاحقة دعوى قضائيّة. عندما ظهرت فكرة النكاح الحرّ للمرة الأولى، غضبتُ غضباً شديداً بشأن سرقة الشِعار، لكنني رأيتُ أنَّ الموقع الإلكتروني فكرة عظيمة. والآن، على غرار مُعظم ما يظهر على الإنترنت، أجدها فظّة ومُضلِّلة. ولا أعتقد أنك ستعثرين على العاشق المثالي هناك».

سألتها «لماذا؟»

«لأنه إذا كان في وسع الناس أنْ يكونوا مجهولي الهوية فسوف يعمدون إلى الكذب والخداع. وبوصفي كاتبة، أتحمّل مسؤوليّة ما أقول. إنني أوقّع باسمي الحقيقي. على شبكة الإنترنت يستتر الناس وعندما يتمكن الناس من الاستتار تتجنّبهم الحقيقة».

«إذن لم تعودي تؤمنين بفكرة النكاح الحرّ».

تقول إيزادورا «أبداً. إنها لا تصحّ إلا في الخيال، وليس على أرض الواقع. في الواقع عليك أنْ تثقي في الشخص لكي تمارسي الجنس معه، وكيف يمكنك أنْ تثقي فيما تقرئين على الإنترنت؟ لقد شتّت الإنترنت مساحة انتباهنا، وجعل العناوين العريضة أهمّ من الشرح. كم من مرّة تابعتُ عنواناً عريضاً ومن ثم اكتشفتُ أنه لا يُخبرني أيّ شيء؟ إنه يُثير انتباه حدقات عيوننا ليس عقولنا. وغالباً ما أنقر على مقالة وأُصاب بخيبة الأمل. إنني لا أحبّ حتى التغريدات إذا لم يستخدم الناس أسماءهم الحقيقيّة. أليس من المُفارقة أنَّ الناس لا يفكّرون فيّ إلا في هذا السياق؟».

أقول «تماماً كما يفكّر الناس فيّ بوصفي شخصيّة *بلير*. إننا جميعاً عالقون في الورطة نفسها».

في المستشفى، كان والدي لا يزال في العناية المُشدَّدة. بدا سعيداً برؤيتي، لكنه كان قد وُصِلَ بالأنابيب من جديد، لذلك لم يتمكّن من الكلام.

وكتبت الممرضة في تقريرها أنّه نزع الأنابيب كلها في الليلة السابقة واضطروا إلى إعادة وصلها في نوبة الصباح. بل إنه نَزع حتى أنبوب الغذاء.

جلستُ إلى جوار سريره أراقبه يغفو ويستيقظ ويلعن نفسه بسبب ما نفعله له. لم نكن نلاحظ إرادة العيش عنده. كان صعباً جداً تبيّنها. ولا أحد جرؤ على القيام بدور الله. لا أحد جرؤ على إصدار قرار. لعلَّ أختي

الأكبر سناً المصابة بالهستريا كانت على صواب. كان ينبغي أنْ نسمح له بالموت. ولكن كيف؟ مَنْ يستطيع أنْ يتّخذ مثل ذلك القرار الخطير؟

كنتُ أنا وآشر مُدمنَيّ أخبار بصورة لا تُصدّق. كنا نتابعها كلها بافتتان وبرعب. أطفال صِغار يصبحون بلا سيقان بعد أنْ داسوا على قنابل عنقوديّة، ومستشفيات تغصّ بأناس قُتِلوا في الزلازل، والمدارس، وفي حوادث السيارات (بمجرد إدارة مفتاح الانطلاق). هذا هو العالم الذي صنعناه. ومع ذلك لم يكن السماح لوالدي العجوز البالغ الثالثة والتسعين من العمر بالموت أمراً سهلاً.

طوال حياتي وأنا أشهد الحروب. وماذا أنجزتْ؟ رفعتْ أسعار البترول وأسهم شَركة هاليبرتون وقتلتْ الأطفال ذوي البشرة السمراء. وكلما كان الأطفال صِغاراً، ازداد عدد القتلى منهم. وقُتِلَتْ النساء، وأصغر الشبان سناً.

عندما فكّرت في الأطفال مقطوعي السيقان، لم أستطع النوم. كيف يمكن لأي إنسان أنْ ينام؟

حسن، والدي استطاع النوم. على الأقلّ إذا تناول الجرعات الكافية من المُخدِّر. لقد كان ذات يوم رياضياً والآن أصبح السيد هيكل عظميّ. وفي استطاعتك أنْ ترى عِظام وركيه وحوضه من خلال الغطاء. كانت ساقاه هيكَلَين من العِظام. وأصبحَ وزنه أقلّ من مائة رطل.

ماذا يمكنكِ أنْ تتمني وأنت تراقبين والدك الحبيب يُصارع النهاية؟ هل تتمنين له الموت، أم الحياة؟ وما أهميّة أمنياتك؟

إنَّ المحظوظين يموتون في المطاعم بعد تناول وجبة دسمة. أو يموتون وهم نائمون في السرير في أثناء حلم جنسي عن محبوب انتقل منذ زمن بعيد إلى العالم الآخر. ليتني أستحق مثل هذه الميتة.

دخل المختص بأمراض الشيخوخة، الطويل القامة، بخُطى واسعة قادماً من فريق غرفة العناية المُهدِّئة.

يقول لوالدي «سيد وندرمان، أنا طبيبك. كيف تشعر؟».

ينزع والدي أنبوبه بقوة ونعق: «بالتقصير المتعمَّد!».

أقول «أبي، أنت تعرف جيداً كيف ينبغي التعامُل مع الأطباء!».

يُتمتم، وهو يُحاول أنْ يصرخ «أخرجيني من هنا!». ويحاول أنْ ينزع الأنابيب، فاصلاً نفسه عن أنابيب الأوردة وأنبوب الغذاء ويحاول أنْ ينهض واقفاً. كان يرتعش بشدة لكنه كاد ينجح. ووصل الممرض.

يقول والدي «إذا وصلتَ ذلك الأنبوب من جديد، سوف أقتلُك!».

شعرتُ، وأنا أقفُ هناك، بالفخر وبالرعب في وقت واحد. وانفردتُ بالطبيب جانباً.

همستُ «دَع الأنبوب مفصولاً. فإذا مات، فقد مات. لا تعذّبه».

وافق اختصاصي أمراض الشيخوخة «حسنٌ». لكنَّ والدي يرفض أنْ يعود إلى السرير. لا يريد أنْ يمكث هنا. مَنْ يستطيع أنْ يلومه؟

يسأل الطبيب «أعدُ بألا أوصلك بالأنابيب من جديد، فهل تهدأ؟».

ينعق والدي «لا أعلم». لكنَّ المُمرّض يواسيه وينجح بصورة ما في إعادته إلى السرير بلا أنابيب أو شاشات مراقبة.

«أريد أنْ أذهب إلى المنزل! المنزل!».

وهكذا بدأنا نضع خططاً لإعادته إلى المنزل.

وهذا ليس بالأمر السهل. إننا في حاجة إلى استئجار سرير في مستشفى، واستئجار ممرّض، وملء وصفات المورفين. ولكن، لما وجد والدي أنَّ الأمور تسير على هواه، بدا أنه قد أحرز تقّدماً مُدهِشاً على طريق الشفاء. فهو يصرخ بفظاظة في وجه الجميع، مُصدراً أوامره لفريق العناية المُخفّفة من حوله، وظهر عليهم الخوف.

«ما هي العناية المُخفّفة؟ هي الطريقة التي تنقلون بها الشخص العجوز على طوف من الثلج! أنتم فريق ملاك الموت، هذا أنتم»

في قرارة نفسي، كنتُ أحثّه.

ويهتف «أعيديني إلى شارع إليفن ويست!» حيث يقع طابق الفندق الأنيق التابع للمستشفى، حيث يودِّعُونك استعداداً للموت.

عادت أختاي وقمنا بعمليّة النقل من العناية المشدَّدة إلى طابق الفندق. كان يتكلَّم ويتنفّس ويصرخ كبطل. وبدا أنَّ قوّته السابقة قد عادت إليه. وهو ينحدر نحو الغضب المتفجِّر.

«أتعلمين ماذا قال مارك توين؟».

سألت «ماذا؟».

«إنَّ التقارير الصادرة بشأن موتي مُبالَغ فيها إلى الحدّ الأقصى!».

سألتُ «أتعلم ماذا قال آرت بوخفالد»[26]؟

غمغم والدي «كلا».

«ولا أنا، لكنّه رفض أنْ يموت».

صرخ «رفض! رفض!».

كيف حدث هذا، لا أعلم، ولكن حتى وهو في حالته الشديدة الخطورة، استطاع والدي أنْ يكسب صديقاً استثنائياً في المستشفى، هو الطبيب النفسي الخاص بالشيوخ اسمه الدكتور كراغسويل، واسمه الأول فان أي فينيغان. كانت له جديلة طويلة تمتد على طول ظهره ويضع نظارة ذات إطار حديديّ كفوضويّ من أوائل القرن العشرين، وكان يستهجن تماماً الإسعافات التي يُجريها فريق العناية المُخفّفة. وقد تنحّى بي أكثر من مرة ليُخبرني بأنه يعتقد أنَّ والدي مُصاب «بمرض خطير لكنه ليس قاتلاً».

قالت أختي الصغرى «إنه يتلاعب بك، يا نس. إنه خبيث».

وقالت الأخت الأكبر سناً المُهَسْترِة «إنه مجنون. إننا نحب المجانين لأننا نحن غاية في الجنون».

---

26 - آرت بوخفالد (1925 - 2007): صحفي ساخر، اشتهر بمقالاته في الواشنطن بوست، وكان يسخر من الأوضاع السياسيّة - المترجم.

لكنه بدا قادراً على لمس والدي في وقتٍ عجز فيه الجميع عن ذلك. وشعرتُ بالامتنان لهذا

قال الدكتور كراغسويل «إذا أخذتِ والدك إلى المنزل، سوف آتي لأراه».

قلت «شكراً».

تجاهلته أختي.

إنهنّ يعتقدن أنه **يتلاعب** بي. يعتقدن أنَّ كوني ممثّلة يحميني!

هيهات. بل إنه **يكشفني** ولا يحميني. الجميع يتدخّلون. وتقضي حياتك مُحاطاً بالفضوليين. على مدى ثلاث سنوات ونصف كنتُ الممثلة التي يُهلِّل لها العالم أو يكرهها. وهذا حتماً يجذب الفضوليِّين. والمجانين.

دسّ الممرضون والدي في السرير ونصحوه بألا ينهض من جديد. وضمّدوا الجرح الذي نتج عن نزع الأنابيب، وأنبوب الغذاء. الممرضون كلهم شديدو اللطف – خاصة الذكور منهم. إنهم يُعاملون والدي برقّة. وكان يستجيب للمساتهم الرقيقة.

الشمس تغرب والسماء تصطبغ بلون أزرق النيون الذي يشدّ القلب لأنه سريع الزوال. إنها *L'heure bleue* (ساعة الزرقة). أمكثُ مدة أطول ومن ثم أسرعُ إلى المستشفى الآخر لأزور زوجي. إنني من فرط الإرهاق بحيث استغرقتُ في نوم عميق على كرسي الاستلقاء في غرفة زوجي.

الآن حلّ منتصف الليل. المتنزّه غطّاه الثلج المتجمّد طوال شهريّ كانون ثاني وشباط ولذلك هناك بقعٌ متجمّدة على الدروب وطبقة من الثلج المتجمّد تكسو التلال. في بعض الأماكن يبدو الثلج أزرق اللون، وفي أماكن أخرى أسود. وقمرٌ أحدب يُضيء ذُرى الأشجار. وأنوار الشوارع تترك بِرَكاً من اللون الأزرق على الثلج.

يظهرُ موكبٌ من الطاعنين في السن بملابس المستشفى، بعضهم يميلون على هيكل يُساعد على المشي، والبعض على عصي خيزران

والبعض يتحرَّكون على كراسٍ متحركّة يدفعونها بأيديهم. يقودهم والدي مع الطبيب طويل القامة والنحيل ذو الجديلة الطويلة الممتدة على طول ظهره. وكان والدي يُمسك بعصا صنعها من غصن ضخم ساقط. وكان الدكتور كراغسويل يمسك منجلاً. يبدو المشهد كأنه مأخوذ من فيلم لإنغمار بيرغمان صُوِّرَ في نيويورك.

والدي يحثّ العجائز على التقدُّم، وعلى ألا يستسلموا، وعلى أنْ يحرموا أولادهم العاقّين من الميراث. إنَّ صوته خشن وواهن ولكن يمكن سماعه من مكان مراقبتي.

في أول الأمر، كان الموكب يتألّف فقط من بضعة عجائز، لكنَّ والدي ترك العصا الآن وأخذ يقرع على طبلة مُطوَّقة يُعلّقها من حزام مربوط حول رقبته. ويقرع بإيقاع *ماماباباماماباب*ا – كما كان يقول عندما حاول أنْ يُعلّمني كيف أنقر على الطبول. (كان أصحابي من أيام المدرسة الثانوية دائماً يُحبّون أنْ يترددوا على منزلنا لكي يُشاهدوا المجموعة الكاملة من الدفوف التي لدينا).

بتأثير من قرعه على الطبلة أخذ الموكب يزداد عدداً وطولاً. بدا مبتهجاً، منتصراً. كل العجائز يتبعونه فوق تلال المتنزّه المكسوة بالثلج. ومع تقدّم الموكب أصبحوا أصغر سناً فأصغر. المنحنون استقامت قاماتهم وتخلّوا عن هياكل المشي. والذين يدحرجون الكراسي المتحرّكة قفزوا عن كراسيهم. وأصبح والدي بمثابة نافخ مزمار[27] المتنزَّه.

أقول لوالدي في الحُلم «لم أكنْ أعلم أبداً مدى احتقار العجائز للشبان»

صرخ «طبعاً نحتقرهم! لو أننا نعود شباباً من جديد لعرفنا ماذا نفعل! ماذا *ظننتِ*؟».

---

27 – نافخ المزمار: المقصود به الأسطورة الألمانيّة التي تحكي عن الصبي الذي نجح في تخليص بلدته من الجرذان بإغوائها بعزفه على المزمار. ويرمز إلى كل شخص ينجح في جعل الآخرين يتبعونه – المترجم.

«حسبتُ أنك تحبّنا!».

صرخ «هذه مسألة ثانويّة! لقد بلغنا هذه المرحلة قبلكم!». حاولتُ أنْ أصرخ في وجهه، مُعبِّرة عن صدمتي وخيبة أملي، لكنني استيقظت.

***

يقول آشر «إنك تُصدرين الكثير من الضجيج وأنت نائمة».

«لديّ الكثير مما يمكن أنْ أُثير الضجيج حوله. لقد كان حلماً جنونياً».

«أخبريني عنه».

«أنت تعرف الأحلام – إنها تفتن الحالم، وتُضجِر كل شخص آخر. ولا أريد أنْ أُثير فيك الضجر».

«ماذا تتذكرين؟».

«والدي في المتنزّه، يقود موكباً من العجائز المُحتضرين فوق الثلوج».

ولكن حتى وأنا أصِفُ الصور من الحلم، تمرّ بسرعة كالدخان في مهبّ الريح.

أقول «ليست لدينا شعائر للموت. لذلك الأمر صعب. فمن المُفترَض أنْ نختفي عندما لا نعود شباناً. آباؤنا يزعجوننا لأنهم يُذكّروننا بقَدَرنا. ونحن نزعجهم لأننا نُذكّرهم بما فقدوه. إننا في حاجة إلى شعائر جديدة، وفلسفات جديدة. ليتنا فقط *نؤمن*».

«بمَ؟».

«هذه هي المشكلة. كيف يمكن الإيمان بالله بعد المِحرقة، وحرب فييتنام، والعراق، وأفغانستان؟».

يبقى السؤال مُعلَّقاً في الهواء كدخّان حُلمي. ويدعوني زوجي لانضمام إليه في سرير المستشفى. يُعانقني. بوهن.

«ولكن لِمَ لا تستمتعين بما لدينا الآن وتنسين أمر المستقبل؟ إنَّ المستقبل لا وجود له في الحقيقة. كل ما لدينا هو اللحظة الحاضرة».

«أعلم».

«إذا مُتُّ، لا أريد منك أنْ ترتدي السواد حتى آخر حياتك كما فعلتْ الملكة فيكتوريا. أريد منكِ أنْ تعيشي. أريد أنْ أُحرِّركِ لكي تعيشي. لقد حرَّرتني»

«أعلم».

«طوال مُعظم حياتي، لم أعرف كيف أعيش. الآن صرتُ أعرف. بسببك. وأريد أنْ أُعيد إليك ما أعطيتني».

أقول «أعلم». كان في آشر جانبٌ هشٌّ كشف لي عنه لكيلا يراه أحد غيري.

«أنت تعلمين لكنك لا تعلمين على الإطلاق».

«أعلم».

ويضمّني إليه بقوة.

أحاول أنْ أعود إلى النوم وألج الحلم من جديد. أريد أنْ أتمسّك برؤيا والدي وهو يخوض في الثلوج. لكنها تلاشتْ.

وتتحسّن حالة زوجي بينما تسوء حالة والدي. آشر ما زال في المستشفى، لكنه يتحدّث مع أصحابه عبر الهاتف. لقد اختصر حالة تمدُّد الشريان الأورطي إلى «نوبة قلبيّة» إكراماً لهم. لا فائدة من الخوض في نقاشات مُطوّلة عن عملية القلب المفتوح وعمليات اللحم. إنَّ أصحابه متأثّرون أصلاً بغيابه. إنهم يعتمدون عليه. وهو يعتمد عليهم. والتحدُّث معهم عبر الهاتف يجعله يشعر من جديد بأنه مفيد.

أنا أيضاً أريد أنْ أشعر بأنني مفيدة. أبدأ بتدوين ملاحظات حول ما يجري. لا أريد أنْ أكتب مذكّرات، لكنني غارقة في أزمة فوريّة من الحياة والموت. وكانت إيزادورا قد اقترحت هذا على سبيل التَطَهُّر. وأنا راغبة في المحاولة.

الآن أنا أحتفظ بملاحظات حول والدي وزوجي. إنني أُدرك كم هما متشابهَان وكم اعتمدتُ على الرجال لأُكمِلَ حياتي. وذات مرة، خطرت لي فكرة لفيلم سينمائيّ يحكي عن امرأة تقوم بزيارات جديدة لعشّاقها السابقين خلال حياتها ويتّضح في النهاية أنهم جميعاً رجل واحد. هل هذه قصّتي؟ هل هي قصّة كل امرأة؟

***

في دفتر ملاحظاتي أحاولُ أنْ أتخيّل نفسي أرتقي الجبال داخل رأس زوجي. إنْ كان الحب هو التقمُّص العاطفي - أريد أنْ أكون هو، أنْ أُصبح هو.

إنَّ آشر لا يتذكّر أبداً أحلامه - ولن يتذكّر هذا، وفيه ينزلقُ منحدِراً إلى أسفل جبال غرين، ويتعثّر قليلاً بالسحب الرعديّة الشبيهة بالسندان، ويرتقي من جديد شيئاً أشبه بالعين العملاقة. هل هذه هي الجنّة؟ وقد تكون أيضاً - شريطاً أخضر طويلاً ممتداً بين جبلَين بأسطح ثُنائيّة، وثلاثيّة وأُحاديّة، ومنزلقات فضّية ترصّعُ خُضرة صيف فيرمونت النَّضِر. لكنَّ الجنّة ليست مستعدّة له بعد، لأنَّ الأمر التالي الذي وقع هو عاصفة هوائيّة ترفعُ جناحيّ طائرته الـ Cessna 210 - أول طائرة حصل عليها عندما كان في عشرينيات عمره - وتُطيح به عالياً في دفق هوائي حارّ فوق الجبال. يرفض جناحاه أنْ ينتشرا ويعلم أنه لا يستطيع أنْ يحطّ. فيأخذ الدوران كورقة نبات في العاصفة. إنه يُحاول أنْ يحلّ حزام مقعده، لكنّه عالق. وغطاء رأسه لا يُصدِر إلا تشويشاً يصمُّ الأذنين.

يقول في نفسه، أعرفُ ماذا أفعل. سوف أستيقظ لكيلا أسقط وأتحطّم.

يستيقظ ويجد نفسه موصولاً بأنابيب تصدر كلها عن قضيبه. لا يستطيع أنْ يتذكّر كيف حضر إلى هنا أو لماذا.

يقول في نفسه، مستشفى. شريان أورطي متمدد. ماذا تقول الإحصائيات؟ إنَّ واحداً على عشرة فقط ينجون من العمليّة؟ لا بدّ أنَّ

الإحصائيات قد تحسّنت الآن، أليست كذلك؟ أهذه هي الجنّة؟ أم الجحيم؟ سوف أعرف عندما أقابلُ أبي وأمي. وإذا رأيتهما سوف أعرف أنني في إحداهما. ولكن لا بد أنه الجحيم لأنني لا أستطيع أنْ أتكلّم. أو ربما الجنّة بسبب الغيوم. ثم يغلبني النوم من جديد. أمي وأبي اختُزِلا إلى حجم دُميتَيَّ كين وباربي وأستطيع أنْ أحملهما بيدي. ملابسهما تدل على أنهما يقومان بعمل لمصلحة مُنتجَع بالم بيتش. والدي يرتدي سترة تحمل شارة شركة تورنبول وآسر مع ربطة عنق على شكل فراشة ويضع حزاماً، وأمي ترتدي فستان سهرة من الشيفرون الأزرق تصميم أنجل سانشيز وتضع مجوهراتها وأحجارها الكريمة. إنهما يحملان قبّعَتين خاصَّتين بالحفلات وصفّارتين وكأنهما في ليلة رأس السنة في النادي الريفيّ. ولكن في أي عام؟ أأنا في الثامنة عشرة أم السادسة والثلاثين أم في الستين؟ لا بدَّ أنني ميّتْ لأنني أعلم أنَّ بالم بيتش كالجحيم.

أم أنّنا في منتجع هامبتونز لحضور عرض سينمائي سخيف أو حفلة خيرية؟ تظهر سالي سميرديكاف بأناقتها الكاملة ومصقولة حاملة لائحة البيانات المملوءة بأسماء مكتوبة بأحرف بارزة. إنني أفضّل أنْ أموت على أنْ أكون في مكانٍ أُضطر فيه إلى ارتداء ملابسي الكاملة وأنا على الشاطئ. إنَّ فكرتي عن الجنّة تتمثّل في فيرمونت – بنُزُلها الريفية، ومزارع تربية الخيل، وبقع الأرض المكسوّة بالعشب، وبالهيبيِّين العجائز الذين يصنعون الفخّار ويزرعون الأفيون. هيبيّون مشوا في مسيرة في شارع مين في الرابع من تموز يعتمرون قبعات متهرئة ثلاثيّة الزوايا فوق شعورهم الشائبة الطويلة وينتعلون مزالج في أقدامهم العجوز كثيرة العقد. وتنساب رائحة القنّب نحو الأسفل – على الرغم من أننا لم نعُد نتقاسم.

هناك تزوَّجنا. وأتذكّر أنني قلت: *Harei! At mekudeshet li b'tabaat zo k'dat Moshe v'Yisrael* (انظر! أصبحتَ زوجي بهذا الخاتم وِفقاً لقوانين موسى وإسرائيل[28]).

---

28 – النبي إسرائيل، كما ورد في العهد القديم.

عدالة السلام قامت بالعمل الشرعي. كان أصدقاؤنا وأفراد العائلة مجتمعين عند البركة. وكان الآباء من العائلتين لا يزالون أحياء ويبدو عليهم الارتياح لأننا الشمل قد جمعنا أخيراً - وكأنّه كان دائماً bashert (العريس المُنتظَر) وكانوا يعلمون ولكنهم لم يُصرّحوا.

لم يكن ممكناً التمييز بين أهل العروس وأهل العريس. كانوا كلهم من سلالة واحدة. وقريبي أيرا كان يُجري رهانات حول كم سيدوم الزواج. كان زواجنا يُعتبَر مُخاطرة غير مضمونة. كلانا كنا جامحين على امتداد عشرينيات، وثلاثينيات، ومعظم أربعينيات أعمارنا - وصِفاتنا المشتركة هي التي أتمّت الزواج. وتعاهدنا. أصبح الجنس محتوماً، ليس سهلاً في أول الأمر بسبب الخوف من حصولنا على كل شيء وفقداننا كل شيء. ومن ثم - ضحك مكبوت في السرير، رعشات جنسيّة مُضاعفة - ووجبات عجّة، ونكات قديمة، والأسلوب اليهودي. ما الذي يربط بين شخصين؟ ما الذي يجعل اثنين واحد؟ الفيرومونات؟ العقول؟ الجينات؟ الأعصاب؟ يجب أنْ تتّصف بالشجاعة، والنشاط، والتهوُّر، ولا شيء مضمونٌ على الإطلاق. إنَّ أعصابك كلها تعرف قبل أنْ يعرف عقلك وأنفك. بأية طريقة أخرى تعرف؟ وتظل تعرف.

وسوف تقول - إذا فعلتَ ذلك مرة أخرى فسوف أغادر. وسوف يقول: إلى أين ستذهبين؟ فتضحك. ليس هناك مكان تذهب إليه إذا كنتَ مُرتبطاً بهذا الرباط. وفي كل عام يزداد الرباط متانة. غراء مجنون.

أنا أعلم أنّه يُحبّني. حتى لا وعيه يُحبّني. لم أحصل على مثل هذا من قبل. وهذا ما لا يستطيع معظم الذين يُقابلون آشر أنْ يروه. إنهم يتّقبلون سلوكه الذي ينمّ عن أنّه رجل حازم. أنا لا أرى هذا. أنا أرى صبيّاً لطيفاً تحت الرجل الصخّاب. إنني أتخيّله يشقّ طريقه خِداعاً نحو سن البلوغ. أرى مدى هشاشته - بل رأيته قبل أنْ يمرض. إنني أرى كيف ينظر إليّ - كأنَّ في استطاعة عينيه أنْ تخترقا جلدي. أنا أعلم أنه يُحبّني حتى في أحلامه. وأريد أنْ أُبادله الحبّ بالطريقة نفسها. فهل أستطيعُ؟

تسأل أمي «ما رأيك في منزل لا تسكنه إلا النساء». هذه هي العبارة الوحيدة التي تُشير بها إلى وجود والدي في المستشفى. إنها تستلقي في السرير، وهي تضع حِفاضاً، تستيقظ وتنام، يتناوب الممرّضون على السهر على راحتها. وعندما أبحث عن مزهرية أضعُ فيها الأزهار التي جلبتُها معي، أكتشفُ أنَّ كل وعاء تكسوه طبقة من الغبار اللزج - وهو أمر ما كانت لتسمح بحدوثه لو كانت يقظة وواعية. إنَّ كل النساء في عائلتي هن ربّات بيوت مجنونات، ويقمن بالتنظيف قسراً. إنَّ الإبقاء على طبقات من الشحم ليس من أسلوبنا. هكذا ينتهي العالم، في اعتقادي، عندما تغطي كل شيء طبقة من الغبار اللزج.

أُعطيها قُبلة كبيرة وأجلسُ بجوارها على كرسيها المتحرك وهي تتردَّد بين الوعي وغيابه.

تستيقظ، وترى الأزهار بجوار سريرها، وتقول «يجب أنْ أرسمها». لكنَّ الحقيقة أنها لم ترسم أي شيء منذ سنين. ونسيتْ الرسم.

تميل أمي رأسها إلى الخلف وترفع نظرها إلى السقف فاغرة فمها وكأنها تنوي أنْ تبتلع السماء. إنَّ هذه الحياة لا تصلح للشخص الحيويّ الذي كانت عليه ذات يوم. ولو أنها ترى نفسها، لما أسعدها ما ترى.

عندما يقضي الأطفال المولودون حديثاً أيامهم بين اليقظة والنوم، لا نحزن لأننا نعلم أنَّ حياتهم تتقدَّم نحو الأمام. أما شخص عجوز يتذبذب بين النوم وخارجه فإنه يستعد للموت. نحن نعلم هذا. فهل يعلمون هم؟ وإذا كانوا يعلمون، فهل يأبهون؟

نعم!

ماذا سنفعل بحق السماء بآبائنا الذين هم في أرذل، أرذل، أرذل العمر؟ إذا كان علينا أنْ نختار بين أطفالنا المولودين حديثاً والعجائز، فإننا نعلم عِلم اليقين ما علينا أنْ نختار. لطالما حكتْ أمي الحكاية التي تدور حول أُنثى الصقر التي كان عليها أنْ تنتقي واحداً من بين أفراخها لتُنقذه من عاصفة مُدمِّرة تُهدِّدُ بالإطاحة بعشّهم. فتسأل كلاً منهم ماذا

ستفعل أو يفعل عندما تُصبح هي عجوزاً وتعتمد اعتماداً كلياً على رعايتها أو رعايته. أجاب الأول: «ألازمك وأعتني بك، يا أمي، وحتى آخر حياتك». ويُجيب الثاني: «أُضحّي بكل شيء من أجل إسعادك، يا أمي». ويقول الثالث: «سوف أُنجِب أفراخاً لكي أربيهم، وسوف يكونون أولى منكِ بالعناية. فإنْ استطعتُ أنْ أنقذهم وأنقذك، فسوف أفعل. ولكن إنْ كان لا بدّ لي من أنْ أختار، فسوف أختارهم هم عندما تُصبحين أنتِ عجوزاً» وطبعاً اختارتْ هذا الأخير.

إنَّ نجاة القبيلة هو دائماً أهمّ من نجاة المُحتضرين. كانت العبرة من درس أمي لنا هي الاصطفاء النوعي. لقد كانت أقلّ غموضاً مما يُسمّى بـ «الإرادة الحيّة». ولكن كيف يمكن أنْ نُطبّقها؟ يُستحسن أنْ نُقسّي قلوبنا عندما يُدير المُحتضرون العالم. إنَّ العجائز عنيدون؛ لا يريدون أنْ يتخلّوا عن سلطتهم. فإذا لم نستبدلهم بأناسٍ جُدُد مرنين، فلا فُرصة لدينا في تغيير العالم. إنني أعتقد أنَّ هذا هو السبب في اختراع الخالدين للموت. لا بدّ أنهم عِلموا أنَّ الخلود ليس صفقة.

أتذكرين تيثونوس[29] – الرجل الذي لا يستطيع أنْ يموت؟

أتذكرين تنيسون؟

الغابة تبلى، الغابة تبلى وتنهار،
البخار يبكي ويُفرِغ حمولته على الأرض،
الإنسان يأتي ويحرث الأرض ويستلقي تحتها،
وبعد مرور العديد من أشهر الصيف يموت البجع.
وأنا وحدي يستهلكه الخلود القاسي:
أذوي ببطء بين ذراعيك،

29 – تيثونوس: في الأساطير الإغريقيّة، ابن لاوميدون ملك طروادة الذي أحبّته الإلهة إيوس، فطلبت له الخلود ونسيت أنْ تطلب له الشباب الدّائم – المترجم.

هنا عند حدود العالم الهادئة،
يحوم شبحٌ أبيض الشَّعر كحُلم.

يطلبُ تيثونوس من إيوس، إلهة الفجر، الخلود، لكنه ينسى أنْ يطلب الشباب الأبديّ الذي تتمتَّع به الآلهة (إنْ فعلتْ). إنَّ الآلهة مُخادعة. ربما بسبب الضجر. لا بدّ أنَّ العيش إلى الأبد أمرٌ مُضجِر. ينبغي أنْ يكون الإنسان شديد الحذر في إبداء رغباته وإلا عادتْ وسكنته. واستمرتْ إيوس في حياتها المرحة، ترتفع دائماً بثوبها الهفهاف بلونيه الورديّ والأحمر مع لمسات من اللونين الذهبي والأزرق؛ وعاش تيثونوس خلوده شيخاً متهالكاً، جثّة تتكلّم، وتسير على قدمين. لكنه على الأقل نَطَقَ شِعراً.

أما والدي فرغبَ في المزيد. في الخلود وفي الشباب الدائم. وطبعاً لم يحصل على أي منهما.

ألدوس هكسلي، الذي كان قد تنبّأ بأشياء كثيرة - بدءاً بالتخصيب الاصطناعي وحتى الرحم الاصطناعي والقتل الرحيم - تخيَّلَ المُحتضرين ينسابون إلى العالم الآخر على متن غيمة من الموسيقى و«شراب مُخدِّر»، وأنَّ الألمَ سوف يختفي، وتسود المخدّرات. وها قد وصلنا إلى هناك.

إنني أحبّ المورفين كأي مُدمن. أحياناً أعتقد أنّني كنتُ مستعدة لكسر ساقي مقابل أنْ أحصل عليه. وبايرون وشيللي عاشا - وماتا - من تعاطي اللودانيوم، وقليلٍ من الأفيون. فمن يستطيع أنْ يلومهما؟

أنتَ لن تعي الجسد إلا بعد أنْ ينهار توازنه الجميل. والدي لم يستطع أنْ يأكل، أو أنْ يبتلع، لم يتمكّن من التبوُّل، ومع ذلك رفض أنْ يموت.

ليت في استطاعتي أنْ أُلِجَ عقلَه لأعرف فيما يُفكّر. لكنني لم أستطع أنْ أفعل هذا عندما كان صحيحاً. كان دائماً يهرب - إلى المطار، إلى البيانو الصغير، إلى الطبول، إلى دار ميتروبوليتان للأوبرا، إلى قاعة

كارنيغي، إلى المكتب، إلى اليابان أو إيطاليا أو الصين. كان فنّاناً هارباً. وكذلك كنتُ أنا، طبعاً. لقد استغرقَ مني سنين عديدة العثور على زواج لم أرغب في الهرب منه، ومع ذلك كنتُ دائماً أهرب إلى الأوهام. ولعلّ الهرب إلى الأوهام هو الذي منعني من الهرب. ولعلّ اللجوء إلى الوهم هو الوسيلة الوحيدة لدوام الزواج، أو الحياة.

إنَّ والدي لم يتمكن من الهرب إلا من الموت. وتساءلتُ إنْ كان يعلم هذا. وطبعاً لم تكن لديّ الشجاعة لطرح السؤال عليه. كل ما استطعت أنْ أفعل كان أنْ أُمسك بيده الهزيلة، ومن ثم أذهب إلى المستشفى الأخرى وأحلمُ بأنه يهرب من خلال المتنزّه.

طبعاً، عندما توفّي في نهاية المطاف، كانت أمي في الغرفة المجاورة. وكنا قد أعدناه إلى المنزل إلى سريرٍ ضيّق، وجيوبنا ممتلئة بالمورفين والحُقن التي لم نستعملها أبداً. وضعناه في السرير، بشكل مُريح، وغادرَتْ أختاي.

سأل «أين الثانية؟» (يقصد أنا)

قلت «هنا».

حاسّة سادسة غامضة منعتني من المغادرة. على مدى عدة ساعات بقيَ هادئاً، يراقب. وكنتُ أراقبه وهو يراقب. ثم بدا كأنه ينجرف بعيداً. وعند الساعة الواحدة صباحاً استيقظ متألّماً. ورسم تكشيراً رهيباً واستنشق بصعوبة ثلاث جرعات هائلة من الهواء. هل كانت هناك ثلاثة ملائكة يستدعونه كما يُخبرنا التراث القبلانيّ؟ هل كان يُقاوم شدّهم له؟ أم أنَّه فقدَ قِواه ولم يعد قادراً على المقاومة؟

يبدو أنه كان ينتظر إلى أنْ يعود إلى المنزل. كان ينظر إلى التلال المُجلّلة بالثلوج في المتنزّه، متخيّلاً هروبه. وها هو الآن قد رحل. وحصل الانتقال من الحياة إلى الموت على متن الأنفاس.

سألتْ أمي في الجنازة «أهو في هذا التابوت؟».

قلت، ولم أكذب، «كلا». كان قد أصبح بعيداً جداً.

عندما تعرّفتُ على جثّته، قبّلته على وجنته، تاركة أثر أحمر شِفاه تصميم فالانتاين، لكنَّ تعبير وجهه لم يعُد يخصّه. ما أسرع فرار الروح!

قلت للوجنة الباردة «أحبّك، يا أبي».

وكأنني كنتُ أخاطبُ دمية جوفاء. عندما تغادره الحياة والدفء والحركة، يُصبح من المستحيل تقريباً تمييز اللحم. ما يتبقّى يُصبح في ذمّة ذاكرة الناجين: يعكس إيماءات مُقلَّدة، وكلمات، وموسيقى.

كنتُ أرتدي ثوباً أسود وأضع أحجار كريمة فضيّة، ويبدو أنَّ أحد قرطيّ قد سقط داخل تابوته. لم أشعر حتى بسقوطه – أو أراه يلمع. ولم أعلم بضياعه إلا بعد أنْ رجعت إلى المنزل في تلك الليلة. وفرحت لأنَّ ما تبقّى منه سرق القرط – بالإضافة إلى الأثر من أحمر شفتيّ على لحمه الميّت.

واضطررنا حتماً، كما حدث مع كل أقربائي الموتى غير الملتزمين بالشعائر الدينيّة، إلى استئجار حاخام. لم يكن والدي قد انتمى إلى أي كنيس. لقد رفض أنْ ينتمي إلى أيِّ نادٍ يجعله عضواً (على طريقة غروشو ماركس). ومنعه ما يتصف به من الخوف والغطرسة من أنْ ينتمي إلى أي شيء.

أمَرَ في وصيّته أنْ يتكلَّم كلٍ منا عنه في جنازته. وفعلنا. كان يمكن أنْ نفعل حتى من دون توصيته. إنَّ ما دفعه إلى وضعه في الوصيّة هو القلق. والمُدهِش هو أنه على الرغم من اختلاف الأخوات الثلاث الواحدة عن الأخرى، إلا أننا أبدَينا الحزن نفسه. كانت موسيقاه تعمّ ذاكرتنا. لقد عزفَ على البيانو في أحلامنا كلّها (لقد خدمه البيانو الصغير جيّداً، كما يقول بيلي جوي في أغنيته. ربما كانت المرأة الوحيدة التي أحبَّها حباً كاملاً). كان يجرّنا معه إلى الحفلات الموسيقيّة وعروض الأوبرا إلى أنْ فهمنا. لم يكن يدعنا نُغمض عيوننا.

عندما دفَنَّاه، غنَّينا. سوف تبقى في بالي صورتنا ونحن هناك في الثلج، نغنّي بأصوات مرتعشة. «أُعطيتُ حبيبي كرزاً خالياً من النواة، أعطيتُ حبيبي دجاجة خالية من العِظام، وأعطيتُ حبيبي طفلاً لا يبكي أبداً...»، وكأننا كنا نقفُ حول البيانو في شقة ويست سايد. وغنَّينا ونحن نردم التراب الممتزج بالثلج على تابوته.

قعقعت العِظام لكنَّ الموسيقى غطّتْ على كل شيء. بالنسبة إلى آذاننا كانت حياته كلها موسيقى - إذا لم تكن كذلك بالنسبة إلى أُذنيه.

أما أغرب شيء فكان: عندما كان حيّاً، حسبتُ أنَّ أحاديثنا كلها كانت متحيّزة، مُحبطة - غير مفهومة. ولكن حالما توفي، بدأنا نتحدَّث حقاً. تحدّثنا عبر أحلامي كلها. تحدَّثنا في كل ليلة وحتى ساعات الصباح الأولى. وهو حيّ، كان منغلقاً، وحذراً. وهو مَيْت، أخبرني كل شيء. أعتقد أنّه ربما هو يُملي عليّ أوامره الآن.

-8-

حزن، خسارة، زوجات سابقات، وكلاب.

لقد لمستُ الحزن والخسارة كمَنْ يلمس الكهرباء بيديه المُجرّدتين، ومع ذلك لم أمُتْ. لا أستطيع أنْ أفهم كيف تحدث هذه المعجزة. ربما حالما أنتهي من تأليف هذه الرواية، قد أحاول أنْ أفهم. ليس الآن. ما زال الوقتُ مُبكِراً.

• ديفيد غروسمان «الكتابة في الظلام»

يمكنك الانتقال من بلد الأصحّاء إلى بلد المرضى في جزءٍ من الثانية. أصبحتُ مُراقبةً للنيام. لقد اختطفَ إلهٌ آشر على أجنحة شِعره.

يسأل «هل استغرقتُ في النوم؟».

«أعتقد ذلك».

يقول «أكره هذا. لا أريد أنْ أجعلك عبدة لمرضي كما فعل أبي بأمّي».

«ما زال الوقت مُبكِّراً للقلق حول هذا. لم يمضِ على وجودك هنا أكثر من أسبوع»

«أشعر بوخز في قدميّ. هلا تمشّيتِ معي لأرى إنْ كانوا سيدعمونني؟».

وبخُطى بطيئة انطلقنا على طول رواق وحدة أمراض القلب، دافعاً حُقَنَهِ وأنابيبه على منصّة متحرّكة. إنه أطول مني بمقدار قدم واحدة على الأقلّ وأثقل وزناً بمقدار ستين رطلاً، لكنّه يتّكِئ على كتفي وكأنني بضعف حجمه. وتقدّمنا خطوة خطوة، لا نتوقف إلا من أجل أنْ نُغلق رداء المستشفى الذي يرتديه من الخلف لكيلا يكشف مؤخّرته للهيئة الإداريّة.

«أما زلتَ تشعر بالوخز؟»

«لم يعُد مؤلماً كما كان آخر مرة. لكنني الآن أريد أنْ أعود». إنه يلهث ويتنهّد وفرح بجلوسه على حافة سريره عندما عُدنا إلى غرفته.

يقول «يا إلهي، كم أكره هذا. كيف تتحمّلينه؟».

«لا عليك من أمري. هذا لا شيء. أنتَ الذي عاد من بين الموتى. أنت محظوظ – والدي لم يكن كذلك».

قال آشر، دون أنْ يُضيف أية كلمة حول موضوع سنّه، «لكنّه كان في الثالثة والتسعين».

لقد عدنا نحن الاثنين من بين الموتى بأسلوبين مُختلِفَين. إننا نتقدَّم بحذر شديد، نتعلّم كيف نمشي من جديد.

ويبدأ استعراض الزوجات السابقات.

تمثّل زوجات آشر السابقات ثناءً على علاقة حبّه التي دامت طوال حياته مع أمّه. كانت أمّه جميلة طولها ست أقدام تزوّجت من شخص بارز طوله خمس أقدام؛ وزوجات آشر كلّهن كنَّ طويلات القامة ما عدا أنا.

أوّلاً تأتي ديان، منتجة التلفزيون حمراء الشعر تزوّجتْ من تريليارديير من غير اليهود بعد أنْ تركتْ آشر. واكتسبتْ شهرتها الأصليّة من فيلمها الوثائقي عن الممارسات الشاذة للنساء المهيمنات جنسياً على الرجال في فيغاس، أما الآن فهي تقدِّم عروض الجريمة، والخيال العلمي، والعروض الواقعيّة. تدخل ديان على منصّة من المسامير بطول أربع

بوصات، مرتدية زي العمل الجلديّ الأسود الضيق جداً، وحلقات شعرها الحمراء تحيط بوجهها، ورموشها ترصّعها حبّات سوداء. لها أنف أشبه بمنصّة قفز المتزحلقين على الثلج، احتراماً للدكتور نيسبري (أُقسمُ أنَّ هذا هو اسمه الحقيقيّ)، وثديان صناعيان صلبان.

«لم أصدّق، يا آش، عندما سمعت. لطالما كنتَ قوياً جداً - هل كنتَ مُصاباً منذ وقت طويل، يا حبيبي؟ ماذا قالوا؟ لِمَ لَمْ يعرفوا السبب بسرعة؟».

تجاهلتني تماماً. جثمتْ على سرير آشر الضيق وبدأتْ تُمرِّرُ أصابعَها خلال شَعرِه، وتُمسك بيده، وتنزع أنابيبه، وبدتْ على استعداد تامّ للقفز والاندساس تحت الغطاء، حتى مع مساميرها المُهلِكة.

أنا أعلم أنَّ ديان تركتْ آشر قبل أنْ يُحقِّق نجاحه الكبير بالزواج من امرأة «فاحشة الثراء» حسب تعبيرها، لذلك أُقرِّر أنْ أتمشّى في الرواق وأتركهما مع ذكرياتهما. إذا كانت تحتاج إلى أنْ تتصرَّف كما لو أنها لم تتركه قط. فليكن، إنَّ خداعها لنفسها لا صِلة له بي. ولكن بعد أنْ درتُ حول الوحدة مرّتين شعرتُ بأنني مُضطرة إلى العودة. حينئذٍ كانت ديان تُسلّي آشر بحكايات حول المصاعب التي واجهتها في جمع النقود لتمويل عرضها التالي - عرض واقعي عن المُحلِّلين النفسيِّين - وأدركتُ غرضها الكامن من كل ذلك التدليل.

هل هناك ما هو أشدّ فظاظة من الهذر حول تمويل برنامج تلفزيونيّ على سرير مرض شخص ما؟

سألتُ ديان «ألا نستطيع أنْ نتحدث حول هذا الموضوع بعد أنْ تتحسّن حالته؟».

«أوه - أنا آسفة. لم أقصد أنْ أكون معدومة الحسّ، ولكنْ تعلمين كم أنا مهووسة بعملي - أرجوك سامحيني. كم أنا غبيّة!».

أومئ برأسي لكنها لم تكن تنظر.

وتهتف لآشر «سوف أُحاصركَ بطاقةٍ شافية!»، وهي تُخرِجُ زجاجة

من زيت الخزامى والمريميّة من حقيبة جلد التمساح الضخمة التي تحملها وتُعطيه إياها. «سوف أحضر إلى هنا في كل يوم، أعِدُك». أنا أعلم أنها في الغالب ستكون المرّة الأخيرة التي نراها فيها.

بعد أنْ تغادر أسأله «كيف تزوّجتَ من مخلوقة حمقاء كهذه؟».

يقول «كنتُ صغيراً. عرَفتُ من البداية أنني ارتكبتُ خطأً. عندما كنا نقضي شهر العسل في لندن، خرجتُ ذات ليلة وانتقيتُ عاهرة – فقط لأبرهن على أنني لا أزال حرّاً».

«وهل علِمتْ بذلك؟».

«يا إلهي، كلا. كانت ستُجنّ من الغيظ».

«وكيف كان *شعورك* أنت؟».

«وكأنني لم أكن صنارتها، وقصبتها، والثقل الرصاصيّ. اغفري لي المجاز. كنتُ في حاجة حينئذٍ إلى أنْ أعرف هذا. لقد كانت تتحكّم في كل شيء. وتوقفتُ عن نكاحها من الشهر الأول من زواجنا تقريباً. ماذا عرفتُ عن نفسي حينئذٍ؟ لا شيء. لم ألجأ إلى التحليل النفسي. كنتُ بدائياً جداً. واجهتُ التحكُّم بالتحكُّم. توقَّفْتُ حتى عن الإعجاب بها». مرَّر أصابعه على زجاجة الزيت العِطريّ. «الطاقة الشافية! يا لها من عجوز شمطاء! اذهبي ورشّيها على شخص آخر!».

«هناك شخص في الرواق يبدو كأنه يمكن أنْ يحتاج إليها. جلف مسكين. ما زلتُ لا أُصدّق أنك تزوّجْتَها».

«لم تكن ترتدي هكذا إلى أنْ جعلتْ منها *عبدتي الخاصة* شخصية مشهورة. إنها أشبه بالفتاة الطيبة المنحرفة. إنها لا تشبه لولا – التي كانت فتاة سيئة منحرفة تستغلّني».

«كيف كان شكلها؟».

«فتاة أخرى ممشوقة حمراء الشعر تشبه أمي».

«وأين هي الآن؟» – كما كان طبيبي النفسي العجوز يقول.

«الله أعلم».

ولكنْ لا بدّ أنَّ الله كان يعلم أكثر مما أفشتْ هي به، لأنَّ لُولا دخلتْ بعد ذلك بساعة.

لقد أصبحت قاضياً - قاضياً يظهر في التلفزيون تحت اسم القاضي لُولا. لكنَّ آشر لا يعلم هذا لأنه لا يشاهد التلفزيون أبداً. إنها ما زالت ترتدي قميصها الأبيض وتضع وشاحاً حول عنقها - الذي يبرز، على شاشة التلفزيون، من تحت مبذل الاستحمام الأسود.

إنها تتكلَّم بلكنة نيويورك المُبالَغ فيها بوضوح لتبيِّن أنها من عامة الشعب. ولها شعرٌ أصحر غزيرٌ جداً.

«لا أصدق أنكَ لم تُشاهدْني على شاشة التلفزيون قَطّ».

يرفع آشر يديه ويضحك. «أتعتقدين أنَّ ذلك سيكون مفيداً لحالة قلبي؟».

تُعلن «أنا متأكدة من هذا[30] *Ey e most soitenlee dew!* سوف يفيدك حتماً!».

«تسعدني رؤيتك، لولا».

«لا تُخاطبني بالكلام المعسول. لقد أتيتُ فقط لأنني اعتقدتُ أنكَ ربما تحتضر. تبدو بصحة جيدة، لذلك يمكنني أنْ أؤجِّل لمَّ شملِنا».

«مَنْ يدري، قد أموت في أية لحظة».

«لاااااا - أنت شديد الصلابة. إذا أتيتَ إلى محكمتي التلفزيونيّة، فسوف أقرأ عليك قانون الشغب».

«اقرئيه عليّ الآن».

«لا أستطيع أنْ أُعرِّض حياة مريض للخطر. حتى أنا أتصف ببعض السلوك المُهذَّب».

«لطالما كان سلوكك مثاليّاً».

---

30 - أي باللكنة المحليّة المُبالَغ فيها - المترجم.

«الفضل في ذلك لفيولا وولف ولدروسها عن حُسن السلوك، إنني دائماً أعرف أية شوكة طعام أستخدم». كانت فيولا وولف هي مُدرِّبة أصول حُسن السلوك لأطفال نيويورك خلال حقبة الخمسينيات.

يقول «وقد حصلتِ على الأشواك كلها أيضاً ـ بالإضافة إلى الملاعق والسكاكين».

تقول، وهي ترمقني، «إذن اشترِ أدواتك الخاصة».

أقول «نحن نأكل بأيدينا. هكذا الأمر ممتع أكثر». في الحقيقة، لقد كنا أنا وآشر قد خسرنا معظم الفضِّيات في عمليات الطلاق، لكن الآن بما أنَّ آباءنا راحلون، بدأتْ تتجمَّع من جديد – مجموعات لا نظير لها. ولكن لم نعُد نهتم بها. على أية حال، إنَّ آخر صرعة هي الأشياء التي لا نظير لها.

تقول لُولا، وهي تنتفض واقفة، «سوف أعود غداً». ولكن هي أيضاً لا تعود أبداً – وهذه نعمة.

أقترحُ قائلة «يجب أنْ نُقيم حفلة على شرف الزوجات السابقات كلهن».

«ما معنى هذا في اعتقادك؟».

«تمهيد لجنازتك؟».

«أفضل شيء هو – أنني لن أكون حاضراً».

«ما أدراك؟».

«لا أدري، لكنني آمل أنْ يكون الهندوس على خطأ في مسألة التناسُخ. يكفي هذا».

«لعلّي سأموت وتعيش بعدي طويلاً»

«معاذ الله – خاصة عندما أرى مدى سوء ذوقي في النساء باستثنائك أنت».

وكأنَّ هذه العبارة هي نداء للتالية، وتدخل ليونا.

إنها ممشوقة القامة، نحيلة، ثابتة، شامخة، راسخة، ومن جديد، شعرها أصحر. ليونا تكبُر آشر ببضع سنوات. وقد بقيا صديقَين ويتواصلان، لذلك أعرفها وتُعجبني. إنها المُفضّلة من بين الزوجات السابقات. جلستْ بارتياح وبدأتْ تُخبرنا عن احتجاجاتها على حرب العراق. لقد أصبحت صاحبيّة[31]. أعتقد أنني أنا أيضاً يجب أنْ أصبح كذلك. يبدو أنَّ الصاحبيِّين وحدهم يؤمنون بالإحسان المُغفَّل. إنهم يُحسنون للمعوزين والمرضى من غير ذِكر أسمائهم على الأبنية. ويُعجبني هذا. وهم أيضاً مُناهضون للحرب ولا يقبلون تهنئةً من أحد على موقفهم هذا. إنَّ التواضُع فضيلة مُعرَّضة للخطر في مجتمعنا، وهم يتصفون بها. ويُعجبني هذا.

لكنَّ الحرب لطالما وُجِدَتْ بيننا - ومع ذلك نجونا منها بصورة ما. إنّ أشدّ ما يؤلم هو الحرب الدائرة على كوكبنا وشكّنا في نجاة الكوكب. عندما أكّدتْ لويز بوغان، وهي إحدى الشاعرات المُفضّلات لديّ، على أنَّ «الأشياء التي تتحرك/ تفوقُ الدم الذي في القلب»، واسَتْها نجاة الطبيعة. ولكنْ لعلنا وصلنا إلى نهاية الطبيعة. حتى أولادنا قد لا ينجون. أو أحفادنا. شيءٌ مُريع.

إنَّ لدينا مشكلة مع الموت. إننا نعتقد أنه ليس أميركياً. نعتقد أنه لن ينال منا. ليس لنا الصراع والعويل، ولا نتف الشعر، ولا ارتداء الخيش والرماد... هذه الأشياء يُظَن أنها «انغماس في الذات» - وهي عبارة مُفضّلة لدى الذين يُفرطون في إظهارها. ولكن ما هو الانغماس في الذات؟ ما معناه؟ هل يعني الانغماس في منعها من الزوال؟ هل يعني تمسُّكَ المرء بشخصه عندما يتعرَّض لخطر الانجراف، الانجراف إلى أبديّة غير شخصيّة؟ إذا كان الأمر كذلك، فينبغي أنْ نُشبع رغبتنا في الصراخ والعويل. ينبغي أنْ نمنح أنفسنا مساحة لإشباع حزننا على الفرد. ومهما كان ما تقدّمه الأبديّة، فإنَّ حدسي ينبئني بأنها لن تُقدِّم الفرديّة.

---

31 - الصاحبيّ؛ نسبة إلى الحركة الدينيّة الصاحبيّة. مؤسُّسها جورج فوكس، وتؤمن بالنور الداخليّ، وترفض الشعائر الدينية التقليدية - المترجم.

وربما هذا أمر حسن. ربما الفرديّة مؤلمة، ولكن دعونا على الأقلّ نحزن عليها عندما نتخلّى عنها.

تراودني هذه الأفكار عندما أعود إلى المنزل إلى شقّتنا في منتصف الليل وأرى في انتظاري سبعاً وعشرين رسالة على البريد الصوتيّ وسبعين في الإيميل، عديدٌ منها في موقع Zipless.com. لا أستطيع أنْ أُجيب عن أي منها. إنني مُرهقة. إنَّ النكاح الحرّ يعجز حتى عن جعل قلبي يبتهج. وفجأة أرى عنوان أحد الإيميلات «فطنة إيزادورا وحِكمتها». هناك مُقتَطَف موجَّه خصيصاً لي: «إنَّ الجنس بلا حب هو سيجارة تُسبّب السرطان نرغبُ في تدخينها». وأنفجرُ بالضحك. كم إيزادورا صديقة مُخادعة! كانت دائماً تطلبُ مني أنْ أسجّل فطنتها وحِكمتها في دفتر صغير - وها هي ذي تُعطيني لمحة عن ذلك. أُغلقُ الكومبيوتر، ولا أزال أقهقه.

قفزت بليندا باركافيتس، كلبتي النظاميّة الكبيرة والسوداء، وانضمّتْ إليّ في السرير وبدأتْ تلعقُ وجهي. كيف يمكن أنْ نواجه المشاكل من غير كلابنا؟ إنني مُتعبة كما كنتُ، وعلى الرغم من أنها عادت توّاً من نزهتها مع تلك الضرورة النيويوركيّة (مُرافق الكلاب)، لكنني أُلبِسها سترتها الورديّة وأُغطي رأسها غزير الريش بالقلنسوة، وأربطها بالرسن، وأحمل معطفي، وأخرج إلى الشوارع لأرافقها في نزهة. كل الذين لديهم كلاب خرجوا إلى الشوارع - المُرافقون، والمالكون، والمُدرّبون. عندما يكون لديك كلب تُصبح نيويورك قرية. وعندما تنظر، فإنكَ ترى الكلاب قبل أنْ ترى مُرافقيها من البشر. كنتُ في الماضي أضحك من الذين يأنفون من عبارة «حيوان أليف»، أما الآن فإنني أتعاطف معهم. في الحقيقة، بدل استخدام العبارة الصحيحة سياسياً «مرافقو الحيوانات»، حسبتُ أنَّ الكلاب بأنواعها هي الحكماء ونحن مجرد مريدين لها. ذلك كان التسلسل الهرمي الصحيح إنْ كان لا بدّ من وجود تسلسل هرميّ. لقد كانت إنسانيّة أكثر منا، من بين أفضل صِفاتها كلها - التقمُّص العاطفي، الولاء، حاسّة الشم

الاستثنائيّة. إنَّ الأنف هو العضو الذي يأتي في المُقدّمة ولا يُخطئ أبداً. ليتنا جميعاً نعيشُ وِفقاً لِما تُمليه علينا أنوفنا، إذن لأصبح العالم مكاناً آخر.

طفرتْ بيلِيندا ومرحت. أرادتْ أنْ تُبهِجني. لقد علِمتْ على الفور ما أحتاج وأسعدَها أنْ تُقدّمه إليّ. وككل الكلاب، كانت تتّصِف بقِوى خارقة.

قابلنا كلب صيد شنوتزر كانت تعرفه لكنها لم تولِه الكثير من اهتمامها، موجّهة انتباهها لي. ثم قابلنا كلبَي صيد ذهبيَّين من نوع آخر مع مالكهم، الذي كان يحمل تعبير وجه مُذنب مطابقاً لتعبير وجهَيهما.

قابلنا سيدة بشعر أبيض مع كلب صيد أعمى مُحرَّر، وكلب بودل رمادي نموذجي، وكلب صيد صغير وثّاب.

تسألني «كيف حال بيلِيندا؟ هل كافحتِ إصابتها بداء أديسون؟».

«تماماً. كيف هوراشيو؟».

«إنه يتقدَّم بصورة جيدة بتناول البريدنيسون والبيركورتن».

«وبيلِيندا أيضاً. وماذا عن تيريسياس؟».

«لن تعرفي أنه أعمى إلا إذا أخبرتك».

هززتُ رأسي بحماس وداعبتُ كلب الصيد الأعمى، الذي خذ يشمّني بينما بيلِيندا تكظم غيرتها. وأخذ الكلب الوثّاب يشدّني لكي يذهب إلى المنزل. كان الجو بارداً والرياح قوية.

قلت «أُسعِدْتِ مساءً».

قالت السيدة «أُسعدتِ مساءً. ما رأيك أنْ نجمعها معاً في مناسبة واحدة؟».

«حتماً»

دوّنتُ رقم هاتفها وأعطيتها رقمي، وأنا أفكّر في أنَّ الكلاب في نيويورك يمكنها أنْ تزوّدك بما تحتاج على سبيل المواساة.

توجهنا إلى المنزل، وركبنا المصعد إلى أعلى، ودار بيني وبين عامل المصعد حديثٌ عن أحوال الطقس، وأصرَّ على تسمية بيلِيندا ميلِيندا. ما الفرق؟ إذا لم تعترض بيلِيندا فلماذا أعترض أنا؟

إنني أتناول وجبة غداء مع إيزادورا وينغ وأحاول أنْ أُبيّن لها مدى جنون كل مقابلاتي مع رواد موقع Zipless.

تسأل إيزادورا «وماذا فعلتِ؟».

قلت بعذوبة: «هاي، أنا أحبّ الكلاب». لكنه كان الجواب الخطأ. يبدو أنه كان يطلب أنْ يُجلَد.

قال «أنا لا أؤمن بضرب الكلاب»، فسألته «حتى وإنْ أساؤوا التصرُّف؟». وهنا بدأ الكلب يتبوّل بكل وضوح على الأرضيّة. ففتحتُ الباب وغادرت بأسرع ما أمكنني.

ضحكت إيزادورا ضحكاً هستيرياً. «تقصدين أنكِ لم تقابلي من قبل رجلاً أراد أنْ يكون كلباً؟ أنا قابلتُ الكثير منهم»

توقفنا لكي نرشف الماء من كؤوس على الطاولة، لنُزيل بقايا الابتسامات التي ارتسمت على شفاهنا ونُعيد رسم حدود أحمر الشفاه. ثم أصبحتْ إيزادورا أكثر جديّة. تقول «إنكِ تعرّضين نفسك للكثير من المخاطر بمقابلة أشخاص غرباء. إنكِ حتى لا تفهمين حجم الخطر الذي تتعرضين له».

أقول «حسن، سوف آخذ حذري».

ثم أُخبرها بأنني استلمتُ تواً إيميلاً مُثيراً من أحد الأشخاص على موقع Zipless، وأنني مأسورة. يقول «أريد أنْ أكون عبدك الشخصي» أقول «إنني حتى لا أفهم معنى العبد الشخصيّ».

تقول إيـزادورا «أنا أفهم. هناك أناس تدرّبوا على أيدي نساء مُتخصصات في الاستمتاع بالتعذيب لكي يقوموا بكل أعمالك القذرة مجّاناً. بعض الناس – خاصة الأقوياء من الرجال – يجدون ذلك مُثيراً».

اسألُ صديقتي «كيف تعرفين هذه الأمور كلها؟».

تقول «بالبحث». ثم تُضيف، «قبل سنوات، دُعيتُ إلى حفل تُقيمه مُتخصصة في أعمال التعذيب في نيويورك كانت شديدة التوق إلى أنْ أتكلّم عنها في كتبي. وهناك رأيتُ كبار أصحاب المصانع يرتدون المآزر

ويغسلون الأطباق. في أول الأمر، لم أصدِّق ما رأيت. لم أفهم أبداً حاجتهم إلى تلك المُعاملة المُهينة. بل إنهم كانوا يدفعون نقوداً لامتياز تلك المرأة. من الواضح أنَّ الرجال الذين يُعاملون الآخرين بمهانة يحتاجون إلى مَنْ يُعاملهم بمهانة. إنَّ القلب الإنسانيّ غابة مُظلمة، غامضة، ولا تعلمين متى تتجوّلين داخل شيءٍ لا تستطيعين الخروج منه. إنني أوصيكِ بألا تنتهزي الفُرَص. لقد اكتشفتُ أنَّ الرجال يضطربون أكثر جرّاء التغيّرات التي تطرأ على مجتمعنا من النساء، ولا تستطيعين التكهُّن بردود أفعالهم».

أقول «إنني أتخيّل نفسي أمشي في الشارع أجرّ معي عبدي الشخصي مربوطاً برسن».

تقول إيزادورا «لا تفعلي. أنت لا تعلمين كم يُسبِّب العبد الشخصي من متاعب. إنهم يُحبّون شخصيّة أوومبا لوومبا في رواية *تشارلي ومصنع الشوكولاته*؛ فحالما تُثيرينهم، لا تستطيعين أنْ تُخمدي تلك الإثارة. إنهم يحتشدون من كل حدبٍ وصوب ويجلبون معهم أصدقاءهم. لا يمكن أنْ تتصوري. إنّ ما عليكِ أنْ تفعلي هو أنْ تُدركي كم أنتِ محظوظة. حافظي على آشر ما دام معك هنا. إنه توأم روحك. إنَّ آخر ما يمكن أنْ تحتاجي إليه هو عبد شخصيّ».

***

ليتني استطعتُ أنْ آخذ بنصيحة إيزادورا في التوّ واللحظة، لكنني كنتُ شديدة الانفعال، والفضول، والخوف من الموت.

وأقابلُ رجلاً يُعلن أنه عبدٌ شخصيّ، ولكن يُسعدني أنْ أقول إنني أجلب صديقتي إيزادورا معي بداعي الحماية.

أسألُ المتقدِّم «ممَّ بالضبط تتألَّف عبوديتك؟».

«إنني أنفّذ كل ما تحتاجين إليه - بدءاً بتنظيف المنزل إلى ممارسة الجنس، إلى التسوّق. ويُسعدني أنْ أقوم بهذا لكما معاً بما أنكما تبدوان متلازمتين. لا مُغالاة في الأمر. يُسعدني أنْ أخدمكما وكل مَنْ ترغبان في مشاركتكما، وأعمل قدر ما تشاءان من الساعات، ولا أطلب أي شيء في

المقابل. سوف أضع حصى في حذائي على سبيل الكفّارة إذا طلبتما مني ذلك، وأنا في المطبخ خلف حاوية القمامة، وأُقشّر البطاطا وأعيش على الجلد غير المدبوغ...».

نضحك إيزادورا وأنا ضحكاً مكبوتاً، فيبدو العبد جراء ذلك أنه تأذّى كثيراً.

يصرخ «لا تسخرا مني! ليس لطيفاً منكما أنْ تسخرا من هواجس شخص آخر! قد أكون مريضاً، ولكن في استطاعتي أنْ أجعل حياتكما جنّة إذا أتحتما لي الفرصة!» ويبدأ بالبكاء.

تعتذر إيزادورا لانعدام حساسيتنا، وتناشده أنْ يُسامحنا، وتُخبره أننا نحترم مرضه - وبعد أنْ تحيط كتفيه بذراعها، وتحثّني على الإسراع بمغادرة المقهى الذي قابلناه فيه.

بعد أنْ نبتعد مسافة، تقول «هل تصدقينني الآن؟».

أقول «نعم، نعم، نعم. لن أشكّ في كلامك بعد الآن».

تقول «عندما يتعلّق الأمر بالمنحرفين، أرجوكِ لا تشكّي في أنني أعرف ما أقول. لقد فعلتُ كل شيء وأجده الآن مُضجراً. ما فائدة الأصدقاء إذا لم يُنقذوك من أشدّ أوهامك جنوناً؟ إنَّ زوجك في حاجة إليك. إنني أفهم هذا حتى وإنْ لم تفهمي أنتِ. إنكِ فقط تخافين أنْ يموت ويتركك وحدك. هذا هو مصدر رعبك. لكنَّ المنحرفين لن يحلّوا المشكلة. أعِدكِ بهذا».

«أفهمُ من هذا أنكِ لم تستمتعي بحياتك أيام الجموح المجنون؟ أبداً؟».

تُرسلُ إيزادورا نظرها بعيداً في المدى، مُفتّشة في ذاكرتها. إنها تتنفّس بهدوء.

أطلبُ: «أخبريني!».

«في الواقع، كانت هناك مناسبة واحدة في باريس مع امرأة عُرِفَتْ فقط باسم الكونتيسة. وكان لديها العديد من العبيد الشخصيين».

«ثم؟».

«لقد فتنتني وسألتُها إنْ كان في وسعي أنْ أحضر ما سمّته

بالـ *ceremonie* (المراسم). قالت، لا مشاهدين - فقط المُشاركون - وأنا لستُ متيقّنة من أنك مستعدة. في الواقع، هذا الكلام أثار فضولي. الكونتيسة كانت طاعنة في السن ومشهورة بزنزاناتها الجميلة وعبيدها الرائعين. استغرقَ الأمر مني شهوراً. وأخيراً، أقنعتُها. لا تدفعيني إلى إخبارك هذا، لأنه لن يكون مفيداً لك في هذا الوقت من حياتك».

أقول «أخبريني!».

«حسنٌ، لقد أرشدني شبّانها المعبودون إلى ما ينبغي أنْ أرتدي، وأين أذهب، ومتى أصل مرتدية ثوباً من المخمل الأسود، وأضعُ قِناعاً يُغطي الوجه كله، ولا أرتدي ملابس داخليّة، وكأنني في أجواء ***قصّة O***، على أية حال لقد طلبوا مني أنْ أُغيِّر ملابسي كلها. وقادوني خلال العديد من الأروقة المُظلمة إلى أنْ أُصِبتُ بدوار من فرط الرغبة والخوف. وأخيراً مدّوني على مذبح من المخمل، حيث قام شاب رائع - عبدها الشخصيّ - بأداء لعق البظر إلى أنْ استنزفني. كانت الكونتيسة توجهه بينما هي تغرز جلدي بدبابيس صغيرة فضيّة. وكان لديها عدد من العبيد الذكور حمّموني، ونكحوني، وغنّوا لي. كان المشهد مُثيراً جنسياً إلى آخر مدى، ويكاد يعصى على الوصف - كحال كل نشوة. وكان جزء من المتعة هو خسارتي السيطرة. أنا لم أخبر أحداً ماذا يفعل - أما الكونتيسة ففعلتْ. وفيما عدا غرز الدبابيس، فإنها مارست الجنس معي بعينيها فقط. تركتُها تسيطر على كل شيء ووضعتُ فيها ثقتي الكاملة. ولا أدري كم ساعة مرّت ولا عدد الرعشات الجنسيّة. لكنَّ الإثارة فاقت كل حدّ - ولم أستطع أنْ أحكي عما حدث إلا الآن، ولك».

سألتها «لماذا اعتبرتها تجربة استثنائيّة؟».

«أنا متأكّدة من أنها كانت جامحة تماماً. لعلها غير صحيحة سياسياً، لكننا جميعاً استجبنا للتخلّي عن إرادتنا. إذا لم يحدث ذلك بإرادتنا، فلن نشعر بالذنب أو بالتناقُض. لقد تحوّلنا إلى أشخاص آخرين. بعض الناس يحصلون على ذلك من وضعهم في السلاسل أو من شدّ وثاقهم.

أما تسليم الإرادة إلى شخص آخر فهذا مُثير جنسياً إلى أقصى مدى. وما كنتُ لأجرؤ على تدوين هذا، لكنني أعلم أنه صحيح. إننا أشخاص غرباء في ممارستنا الجنس. وكلما اعتقدتُ أنني أعرفُ كل شيء أكتشفُ أنني لا أعرف أيّ شيء. إنّ معظم الناس غير ماهرين في ممارسة الجنس – لكنَّ الكونتيسة كانت تعرف أنَّ الأمر يتطلَّب استسلاماً كاملاً. وبعد انقضاء الليل، بكيتُ بين ذراعيها ولم أستطع التوقّف عن البكاء. هل سبقَ لك أنْ استسلمتِ بصورة كاملة؟».

قلت «لا أعلم».

«حسن، الآن ليس الوقت المناسب. لديك الكثير من الأعمال تقومين بها. لديك غلينداً، ووالديك، ولديك آشر. ولكن ذات يوم في المستقبل، قد تقومين بزيارة الكونتيسة. لم ينته أمرك بعد. إنَّ المستقبل ما زال يلوح لامعاً أمامنا»

قلت «ما أروعك من صديقة. ولكن أخبريني، لِمَ لا تكتبين عنها؟».

«أعتقد أنَّ الجنس يجب أنْ يكون سريّاً بالكامل وإلّا أُسيء فهمُه كليّاً. إذا كتبتُ ما أخبرتك به، لطُرِحَتْ عليّ أسئلة حمقاء. إذن تعتقدين أنَّ كل امرأة ترغب فيمَن يُسيطر عليها؟ أو ما أهميّة هذا بالنسبة إلى قضيّة تحرير المرأة؟ إنَّ الأمر لا ينطوي على أية قضيّة سياسيّة. وفي حياتنا الخاصة نعيش أوهامنا، بل إنَّ أوهامنا تتغيَّر. وما ينجح مرة في حياتنا قد لا ينجح في حياة أخرى. ومن المستحيل التعميم فيما يخصّ الجنس – حتى في الإنسان الواحد. والطريقة الوحيدة لإبقائه نقياً هي إبقائه في طيّ الكتمان. إبعاده عن الكلام. الجنس ليس مكانه الكلام. وبلا خصوصيّة، لا توجد نشوة – باستثناء الإنترنت، والصحافة. لقد تعلّمتُ هذا بالطريقة الصعبة».

اكتفيتُ بالجلوس هناك أُحدِّقُ إليها مذهولة. إنَّ إيزادورا هي الوحيدة التي كان يمكن أنْ يدور معها مثل ذلك الحديث.

-9-

ضجيج حول السن

«إنني بالغة ولا أعتقد أنَّ في استطاعتك أنْ تُملي مطالبك على الحياة وتتوقّع أنْ تُجاب، وكأنك تهزّ عصا سحريّة».

• آني لينكس

عاد آشر إلى المنزل وكان في أول الأمر ضعيفاً جداً. استلقى على السرير، مُتذمّراً من الاستلقاء على السرير. كان يُسلّي أخاه، ومُنافسيه، وفنانين متنوعين يُعجَبُ بهم. بل كان يُسلّيني أيضاً. ولم يكن لديه أي اهتمام بالجنس. ربما كان يخشى أنْ يقتله. أنا نفسي قلقتُ بهذا الشأن.

مهما قال كبار المُهلِّلين للتقدُّم في العمر، فإنَّ الجنس بين الكبار في السن ليس كما كان في السابق وهم شبّان. والفياغرا ليست مُتاحة للجميع. إنها تُسبّب للكثيرين نقاطاً مستديرة زرقاء اللون على شبكيّة العين. وتسبِّب الإغماء لآخرين. والحقن والجرعات ليست أخلاقيّة.

على الأقل كنا أحياء ومعاً. فكيف نجرؤ على طلب المزيد؟ لقد تغلّبنا على الخلافات الكبيرة وما زلنا يُمسك أحدنا بيد الآخر في السرير.

أبحثُ حولي عن الصديقات فأرى عالماً من الأرامل - أو أشباه الأرامل. ولو كنتُ ذات ميول تجارية أكثر، لفتحتُ محلاً تجارياً لبيع الجنس للأرامل - مكاناً يمكن أنْ يلجأْنَ إليه، ويحصلْنَ على فحول شابة يُسرعون إلى إشباع رغباتهن، ومن ثم ينتقلن إلى أداء واجباتهن كجدّات، واجبات مِهنيّة، واجبات الأبناء، (أمهاتهم كلهن طاعنات في السن كنقيض لشبه العجائز). إنَّ قواعد *التقدُّم في السن* تتغيَّر باستمرار. كنا نعتقد أنَّ سن الستّين متقدِّم جداً والآن أصبح يمثّل ذروة الحياة. ولكن هل هذا يعني أنَّ الناس يرغبون في الاعتراف به؟ ومحلّي التجاري لبيع الجنس قد لا ينجح لأنَّ الأرامل سوف يُخرّبن أنفسهن بالوقوع في أسر حبِّ أولئك الشبان الفحول - كما كادتْ إيزادورا تقع في حب العبيد الشخصيّين في باريس. سوف تتحطّم قلوبهنّ. قد يُقيم أحدهم دعوى قضائيّة، ويخرج السرّ إلى العلن، ويتسبَّب في إغلاق المحل. ويشيع الخبر في الصحف كلها.

لم أرغب في أنْ أكون أرملة. كنتُ أصغر سناً بكثير من أنْ أُصبح أرملة. وأنا في الستين أتظاهر بأنني في الخمسين، كان العالم ممتلئاً بالنساء غير المُرتبطات منتشرات في كل مكان، يفتشن عن مكان يضعن فيه كل تلك الطاقة الجنسيّة غير المُستخدَمة.

كان آشر هادئاً. وكان دانييل يُحسن خدمته. لم يرَ أبداً أنه مُشرف على الموت. كان يُنفِّذ ما أمره به الأطباء. لم يُناقش، ولا دارت في خلده أفكار تَنَبُّئِيَّة. كان عقلُه سليماً أكثر من عقلي.

إنَّ التقدُّم في العمر يعني التخلّي عن الأشياء - الجنس والمظهر الأنيق على وجه الخصوص - لكنَّ آشر لم يشتكِ أبداً. ودائماً يعتقد أنّه يتحسّن. لقد أحببتُه لتفاؤله. ألم يقُل داشيل هاميت[32]، «يجب أنْ تنظر

---

32 - داشيل هاميت (1894 - 1961): مؤلّف قصص بوليسية. من قصصه الشهيرة «*الصقر المالطي*» و«*الرجل الثالث*». وقد تحوّلتا إلى فيلمين شهيرين في أربعينيات القرن الماضي - المترجم.

إلى الجانب المُشرِق، حتى إنْ لم يكن موجوداً»؟ كان يمكن لآشر أنْ يقول ذلك لو كان كاتباً راسخاً بدل أنْ يكون ملياردير اً راسخاً بقلب رقيق.

أقول لإيزادورا عبر الهاتف «لا أريد أنْ أُصبح أرملة».

تسأل «ومَنْ يريد؟».

«وأخشى ألا أقابل بعد الآن أحداً لديه انتصاب».

«آه...» العجائز أصبحوا في الخارج «كما قال أنتوني برجيس. ربما هناك مُغالاة في هذا. اصبري. هناك ملايين السُبُل لممارسة الجنس. لقد أخبرتُكِ هذا توّاً. ربما أنتِ في حاجة إلى التفكير في السبب في شعورك بالحاجة إلى الثبات والتحكُّم في الأمور»

أسألها «هل تضعين اللوم عليّ؟».

تقول إيزادورا «حتماً لا. إنني فقط أقول إنكِ تنظرين إلى الجنس من زاوية ضيّقة جدّاً - وكأنّه شكلٌ من أشكال التدليك العميق. ويمكن أنْ يكون أكثر من ذلك بكثير. استرخاء. استرخاء بممارسة الجنس. إنكِ لا تتحكّمين في الكون».

ما خطب جيلي من النساء؟ لقد اعتقدنا أنَّ أوضاعنا سوف تتحسَّن باطِّراد وإلى الأبد. حسبنا أنَّ الحرب والمرض لن يُصيبا إلا الناس في الطرف المقابل من العالم. حتى بعد أحداث 9/ 11 - التي قيل إنها غيَّرتْ كل شيء - لا نزال نعتقد حياتنا مسحورة بصورة ما وأنّه ليس هناك ما لا يمكن ترميمه ورأبه. كان ينبغي أنْ نعدّ أنفسنا لاستقبال ارتفاع درجة حرارة الأرض، والحرب الفاصلة، وفقدان أحبّائنا، فهل فعلنا؟ أبداً. لقد ركَّزنا على القشور كالمعتاد. ماذا كان سيكلّفنا توعية الناس على الخطر الذي نتعرَّض له كلنا؟

كثيراً ما أتخيّل أنني أعيش فوق أعلى ناطحة سحاب يغمرها فيضان

وتتهاوى في حقبة التسعينيات. وقوارب صغيرة بخارية تحوم حول الأبراج، تحاول أنْ تُنقذ آخر ما تبقّى من أشخاص، لكنني أرفض. وقبل أنْ ينهار برجي، أقفزُ إلى الأمواج وأغرقُ ببطء. لِمَ أرغب في مواصلة الحياة في عالمٍ كهذا؟

يهتف آشر لي من غرفة النوم.

«أريد فقط أنْ أرى وجهك».

«ماذا تريد؟».

«فقط أنتِ».

«ما سبب مرحك الغامر هذا؟».

قال «إليكِ كيف أتخيّل الأمر. لديّ نقطة ضعف في شرياني الأورطي وهو ينتفخ. لقد رمّموه بقطعة أقوى - يُفترَض أنْ تصمد طوال عقود. ثم، ما نفعه حتى نقلق بشأنه؟».

«هذا صحيح. لكنني أقلق إذا لم أقلق».

«ذلك لأنكِ تستخدمين القلق كبديل - وكأنَّ في استطاعته أنْ يُبعِد الفيلة الجامحة».

«تقصد أنه *لا يستطيع*؟»

بادلنا الضحك والعناق: «ماذا في وسعي حقاً أنْ أفعل من غيره؟».

«أوه يا إلهي - هذا يؤلِم».

«ماذا؟».

رفع ساق بيجامته فرأيتُ تورّماً أحمر كبيراً على فخذه، حيث كانوا قد استخرجوا عِرقاً من أجل عمليّة اللحم. وتحت الشَّقّ، بدا أنَّ هناك صديداً.

قلت «يبدو هذا فظيعاً. في المستشفيات يمكن الإصابة بأسوأ أنواع العدوى. يمكن للمرء أنْ يُصاب بالمكوَّرات العنقوديّة وبمُسبّبات تعفّن الدم. سوف أستدعي الطبيب».

«كفاك سُخفاً. إنه لا شيء».

«إنه حتماً ليس شيئاً يُستهان به»

حاول أنْ يُطيل الكلام كسباً للوقت، أنْ يتكلَّم حتى ينتهي من الموضوع، ولكي يُبعِد فكرة إحضار الطبيب، ولكن على امتداد أسبوع، ازداد الوضع سوءاً على سوء.

بعد ذلك بأسبوع، عُدنا إلى المستشفى، من أجل فحص ساقه.

قال الطبيب «إنه خراج واضح». فتح طرفيّ الجرح فنزَّت منه مادة صفراء مخضرَّة. نظرتُ في الجرح فرأيتُ الخلايا البيضاء ودفقاً ونزّاً، مما بدا لي أشبه بالمادة الأساسيّة الأولى نفسها. أُصِبتُ بدوار. ثم تولّاني الرعب، ووهنتْ ساقاي وانهرتُ على الأرض. عندما استعدتُ وعيي، كان آشر قد حصل على حقنة من البنسلين وكان جرحه البليغ قد جفّ والتأم.

قلت «هذه أول مرة في حياتي أُصاب بالإغماء. لا بدّ أنني أحبّك حقاً. لا شيء يُضاهي جُرحاً مفتوحاً في كشفه عن هشاشة اللحم»

قال «لا أحد غيرك يفكّر في الأمر هكذا».

حتى أننا لم نحاول أنْ نمارس الجنس على مدى أسابيع عديدة. كان آشر خلالها يتناول أنواع الأدوية كلها لكي يُخفِّض من ضغط الدم وأُصيبَ بالإرهاق. ولكن عندما مارسناه، كان جليّاً أنَّ لدينا مشكلة. والطب الحديث لديه تسمية لها: (ED)[33]. ولحُسن الحظ أنَّ لدى الطب الحديث علاجاً لها: الفياغرا. والمشكلة هي أنَّ الفياغرا تسبّبت لآشر بتلك البقع الزرقاء سيئة السمعة، وبغشاوة في النظر أقنعَتْه بأنه سوف يُصاب بالعمى، وبإحساسٍ بأنَّ سيارة شاحنة صدمته.

قلت «هناك دائماً التضخُّم»، بما أنني حصلتُ على معلومات موجزة عن الأمر من صديقاتي.

«ما هو التضخُّم؟».

---

33 – غالباً تشير إلى الشره الجنسي، أو الشبق الجنسي – المترجم.

«راقب قضيبك كيف يتّخذ حجماً مُذهلاً مع المتعة الحسيّة، الحريريّة، بشكلٍ منتفخ أو إلكترونيّ».

«يبدو شيئاً فظيعاً».

«قيل لي إنه يمكن أنْ يكون مُثيراً جنسياً».

«إنه يبدو لي خطراً. كأنه سوف يجعل قضيبي يسقط».

«وهناك أشياء أخرى - يمكنك أنْ تسأل أخصائي الأمراض البوليّة».

وهكذا بدأنا نبحث عمَّن يضبط لنا الانتصاب الذي يرفض أنْ ينتظم.

من الواضح أننا لم نكن الوحيدَين في هذا الوضع. كان دستور الصيدلة يحتوي تشكيلة لا نهاية لها من الأجوبة - بدءاً بالحُقن إلى ازدراع النسيج، ومن الحلقات إلى تورّمات على شكل مُسدّس. كنا الجيل الذي لم يستسلم أبداً. وكانت الرعشة الجنسيّة مُدْرَجة على قائمة الحقوق.

بدأتُ بحثاً عن شبكة الإنترنت عن أدوات المتعة الجنسيّة. لم تكن هناك فقط مضخّات، وهـزّازات، وحلقات، وعصي، وأنواع الهلام اللزج، بل أيضاً مُناصرون للبيئة يُحَذِّرون من أخطار أدوات المتعة الجنسيّة. يبدو أنها تحتوي مواد سامّة. يبدو أنها غير نظاميّة. يبدو أنَّ كتاباً سوف يُؤلَّف عن الكشف عن الأدوات الخطرة التي يضعها الناس داخل أجسادهم - أو خارجها. إنها تُسرِّبُ غازات، وتنحلّ بالصابون وبالماء، مع سوائل الجسم. ليست هناك أية وكالة فيدراليّة تقوم بفحصها. ومع ذلك تُباع بالملايين. ولا يبدو أنَّ أحداً يهتم بالأخطار الناجمة عنها - ما عدا بضعة مناصرين للبيئة مُناهضين للمتعة.

لكنِّ آشر لم يجد أنَّ أياً من تلك الأدوات مُثيرة جنسياً. فتلك الدُمى كانت كبيرة جداً حتى أنها جعلته يشعر بالضآلة. والمضخات بدت خطرة. والحلقات أيضاً. ربما كان لا يزال مُرهقاً للتفكير في استعمال أي منها. كان لا بدّ من إيجاد وسيلة أخرى.

عندما حاولنا أنْ نمارس الجنس، كان جلياً أننا لم نكن بصدد أنْ يُمسك

أحدنا بيد الآخر ونحن داخل مغطسيّ استحمام منفصلين ومتجاورين، كما في ذلك الإعلان التجاريّ عن مُحفّزات الانتصاب. كانت كل قناة تلفزيونيّة ممتلئة بالإعلانات عنها. وكانت المجازات غريبة الشكل: الشارع يغيب في المدى ويتحول إلى بريّة غزيرة الخُضرة. ويرتفع اثنان داخل منطاد متعدد الألوان مدفوع بهواء ساخن. وثمة فتاة إنكليزية جميلة في منطقة البحر الكاريبيّ تُطمئن «حبيبها». واثنان من العجائز يحصدان ثمار الخيار. ومن ثم تلك الصورة السخيفة لعاشقين يُمسك كل منهما بيد الآخر وهما داخل مغطسيّ استحمام عتيقَي الطراز ومنفصلَين. أيُّ مجنون خرج بهذه الفكرة؟ كنا فقط متمدِّدَين هناك وننظر إلى قضيبٍ رخو.

إلى أنْ يُشرِف شريك حياتكِ على الموت، لا تؤمنين حقاً بموتك. وإلى أنْ تتخلّي عن الجنس، لا تُصدِّقين أنك أصبحتِ عجوزاً. الآن أنا أؤمن بأنني عجوز، ولا أحبّ هذا. لا أحبّ الشعر النامي على ذقني. لا أحبّ أنْ أصبغ شعر حاجبَيَّ. أريد أنْ أستعيد شبابي – حتى مع كل بؤسه. إنني أحسد الشبّان وهم لا يلاحظون حتى أنهم محسودون. *أنا* نفسي لم أكنْ أعلم ذلك حتماً عندما كنتُ شابة.

كم أكره، أكره، *أكره* أنْ أُصبح عجوزاً. إنني على استعداد لبيع روحي للشيطان مقابل أنْ أبقى شابّة. ثم بدأتْ فكرة تتكوَّن في خاطري – لكتابة مسرحيّة.

إنني في حالة ثورة على الشيخوخة. لهذه الغاية جنّدتُ اختصاصيّين في الجلد، ومُعلّمي يوغا، ومُدرِّبي ألعاب رياضيّة، واختصاصيِّين في التغذية، وفي عِلم الأعشاب، ومعالجين فيزيائيِّين، وأطباء – كبديل بسيط.

ليس هناك نقص في اختصاصِيِّي مُكافحة الشيخوخة في نيويورك – بدءاً بالمُختصين بالأمراض الجلديّة الذين يجمعون الدهن من جسمك ويُعيدون استعماله وانتهاءً بالذين يُجمّدون عضلات وجهك بالسموم؛ والذين ينفخون ويشفطون، ويحقنون ويُزيلون الدهون؛ والذين

يُجدِّدون جلدك، ويُعيدون شبابه إذا لم نقُل المُحنّطين، والذين يُضيّقون المسام ويُخفّفون من الاحمرار عند المُعانِين من الورديّة. وهناك الذين يُجرون عمليّات التجميل ويُعالجون بوخز الإبر وحتى الذين يُنوِّمُون مغناطيسياً ويُعيدونك إلى شباب زائف حلمت بأنه حقيقيّ. لكنني أريد المزيد. أريد السِحر.

بينما آش يبرأ ببطء، وصل إلى المدينة صديقٌ لي، ممثّلٌ أكبر سنّاً. استمرت بيننا علاقة عاطفية على مدى عقود في موقع التصوير وخارجه. وأخذاً بنصيحة إيزادورا التي اقترحتها على مائدة الغداء في ذلك اليوم، فكّرتُ في أنَّ مقابلته سوف تكون أقلّ خطراً من مقابلة شخص غريب من موقع Zipless لكنه يعِدُ بقدر كافٍ من الإثارة. وكنتُ أصلاً خائفة من أنْ أقابله في المستقبل في الفندق الذي ينزل فيه – في مصنع جديد لتوزيع الويسكي يقع في قلب المدينة.

كان من نوع أبطال السينما الذين قاموا بأدوار جيمس بوند عندما كان شاباً أما الآن فيلعب أدوار البابا بورجيا الشرير. كان إنكليزياً. تلقّى تدريبه في الأكاديميّة الملكيّة للفن الدرامي، ووسيماً بطريقة شبه مُخيفة – وجنتان مُجوّفتان، وعينان خضراوان غائرتان، وحاجبان كثّان، وصوت جهوريّ. كثيراً ما يقول مازحاً إنه إذا ما تقدَّمَ كثيراً في السن، فسوف ينتهي به الأمر إلى القيام بدور نوسفيراتو[34].

قال، وهو يُعانقني عند باب جناحه، «أخيراً سوف أقوم بدور مصّاص الدماء العريق».

سألتُ «هل من المُفترَض أنْ أقول تهانينا؟».

---

34 – نوسفيراتو: هو مصّاص الدماء الشهير في فيلم يحمل اسمه من إخراج الألماني ف. مورناو عام 1922، وهو من تحف السينما. أُعيد إنتاجه عام 1979 من إخراج فرنر هرتزوك الألماني، وقام فيه بدور نوسفيراتو الممثل المتميِّز كلاوس كينسكي – المترجم.

قال «أعتقد أنَّ من المُفترَض أنْ ترفعي صليباً عالياً، لتحمي نفسك».

كنتُ أعلم أنني لطالما أُعجِبتُ به وكان هو يعلم ذلك. هذه الأمور تُعرَف. وطبعاً، كنا نحن الاثنين متزوِّجَين - من شخصَين آخرَين - وهذا كان دائماً يُسهّل الأمور.

كان اسمه نايجل كافنديش، وكنّا قد قدّمنا موسماً من أعمال شكسبير قبل سنين عديدة.

تبادلنا الذكريات ونحن في جناحه. وكلانا لم نشرب قطرة خمرٍ واحدة نظراً لانتسابنا إلى عدد من برامج تتألف من اثنتي عشرة خطوة.

ثم بدأنا نتبادل قُبَل الوداع لكنَّ قبلات الوداع تحوّلتْ إلى قبلات ترحيب وأخذ يعبّ الشراب من زجاجة أرامون مفتوحة كان المُنتِج الذي يتعامل معه قد أرسلها إليه وسكرْتُ من الرائحة. وسرعان ما أصبحنا في نصف ملابسنا ونتمدَّد على الأرض ويُداعب كلٌّ منا جلد الآخر العجوز برقّة.

سأل «هلّا ذهبنا إلى غرفة النوم؟» مُشيراً نحوها برأسٍ وسيم كثيف الشعر (كان قد أصبح الآن فضيّاً). وأومأتُ برأسي إيجاباً، وسرعان ما انهمكنا على، إذا لم أقل، في، الـ *letto matrimoniale* (السرير الزوجيّ) الواسع.

قال «لطالما رغبتُ فيك».

قلت «وأنا أيضاً».

وأومأتُ برأسي لكنني لم أُضِف شيئاً لأننا كنا نتبادل قُبلات عميقة جداً. وسرعان ما بدأ يمصّ حلمتيّ ويلمس كسّي. ثم أخذ يلعقه بنشاط. ثم، أخرج واقياً ذكرياً وألبسه قضيبه الجميل - في تلك المرحلة كان الأوان قد فات على الاعتراض.

سألَ بأشدّ الطُّرُق رجولةً، «هل نباشر؟». لكنّه لم ينتظر جوابي اللائق بسيدة محترمة، وباشر بولوجي.

بدا أننا مارسنا الجنس بشكل مسعور ونحن متشبّثان أحدنا بالآخر

على امتداد ساعات، وساعات، وساعات. تمتمنا وغمغمنا وتبادلنا القُبَل والعناق ولَعَقَ لسانانا كلَّ ما استطاعا الوصولَ إليه - ولكن لا أحد منا بدا أنه اقترب من مرحلة الذروة. لا أحد منا استطاع أنْ يسترخي. لا أحد منا استطاع أنْ يتوقف عن النكاح. كلانا كنا في حاجة إلى التحكّم بالأمر.

اعترفَ قائلاً «كأنني أرى زوجتي الطيبة، فيفيان، تطفو مُخترقة الجدار».

قلت «اطردْها»، بينما لم أتمكّن من طرد آشر. لا يمكنني أبداً أنْ أطرد آشر. لقد كان يسكن عِظامي.

كنتُ أنا ونايجل شجاعَين في الانزلاق واللَّكْم والقَرْصِ والقَضْم الرقيق الدالّ على الحبّ. ولكنْ بدا أنَّ لا شيء يحدث. لم تظهر موجة، ولا أشرقت الشمس، ولا اخترق برقٌ مُهذَّب المكان الذي يتضافر فيه جسدانا.

قال نايجل «لقد وعدتُ فيفيان ألّا أفعل هذا من جديد. وسوف تصل غداً».

همستُ «لا تقلق».

غمغمَ «لا أريد أنْ أتركك وحدك».

قلت «لا عليك. التوقيت ليس مناسِباً. كلانا لدينا أشياء أخرى نقلق بشأنها».

سأل «ربما في لقائنا التالي؟».

قلت «طبعاً، طبعاً». إنَّ نساء جيلي يكذبن بالسهولة التي يُقبّلنَ فيها.

لاحقاً، جلسنا في غرفة جلوس جناحه، نتذوّق الكافيار والفطائر. هو شرب المزيد من الأمارون. وشربتُ أنا ماءً معدنياً.

سألَ «أما زلنا صديقين؟»

قلت «صديقان عاشقان. سوف نستمتع بوقتنا».

لكنني كنتُ أعلم أننا لن نجتمع، لأننا لم نكن مُرتبطَين بتلك الطريقة.

ليس كل اثنين يمكن أنْ يتحوّلا إلى عاشقين مُحبّين - مهما اعتقدا أنهما يجب أنْ يكونا هكذا. على النجوم أنْ تنتظم بطريقة معيَّنة. يجب التخلُّص من القلق. إنَّ الزوجات لا يستطعن أنْ يخترقن الجدران والأزواج لا يستطيعون أنْ يعودوا إلى منازلهم ويُشفوا قلوبهم مما ألمَّ بها. إنَّ العديد من جلسات استحضار الأرواح يجب أنْ تُعقَد من أجل إنجاح جلسة واحدة. لقد عرفتُ هذا من قبل، لكنني نسيته لسبب ما. واجتماعي بنايجل لم يعمل إلا على جعلي أشتاق إلى آش أكثر فأكثر! غريبٌ كيف أنه كان عليّ أنْ أكون مع نايجل لأُدركَ كم أنا وثيقة الارتباط بآش. لقد كنتُ محظوظة جداً لأنني لم أُضبَط متلبّسة خلال تجاربي المتنوّعة.

في وقت لاحق من الليل، راودني حُلمٌ وجدتُني فيه أصغر مني بثلاثين عاماً وكأنما بسِحر ساحر. كنتُ مع نايجل. كنا معا مُطلَّقين ومُنفتحَين على بعضنا كما لم نكن عندما تقابلنا في وقت سابق من النهار. كانت حياتنا الرومانسيّة ممتدة أمامنا، وليس خلفنا. لأنَّ التقدُّم في السن لا يتعلَّق فقط باللحم - بل بالآمال العريضة لعهد شبابنا.

هنا بدأتُ أكتبُ المسرحيّة. فبينما آشر يتعافى، استغرقتُ في وهمٍ وُلِدَ من حنقي على الشيخوخة. تعتقد فيه المرأة، الحانقة على مرور السنين، أنها تجد وسيلة لتعكس اتجاهها. انهمكتُ في الأبحاث من أجل مسرحيَّتي. قرأتُ كل ما يتضمّن تحوّلات سِحريّة. شاهدتُ أفلاماً سينمائيّة. قرأتُ تعاويذ سِحريّة في كتب السِحر.

بدأتْ مسرحيَّتي بصديقتَين في عمرٍ معيَّن - إيزادورا وأنا ربما؟ - جالستان على طاولة على خشبة مسرح جرداء:

«ألا ترغبين في أنْ تعودي شابة؟»

«أتمزحين؟ إنني مستعدة لبيع روحي مقابل ذلك».

هل أستطيع أنْ أُقنع إيزادورا بالعمل معي في هذا؟ سوف يكون أمراً ممتعاً أنْ أتعاون مع كاتبة راسخة القدم.

تقول شخصيتي «إنني أحلم بأنْ أعود شابّة من جديد».

تقول شخصيّة إيزادورا «وأنا أيضاً».

«كل ما أريد هو أنْ أُصبح أصغر سنّاً بثلاثين عاماً، مع الاحتفاظ بما أعرفه الآن».

«أنا هناك. كيف فعلتِ ذلك؟ بالتعاويذ؟ بالجرعات؟ بالتفكير السِحريّ؟».

«هل تعرفين أيّة ساحرة حقيقيّة تستطيع أنْ تفعل هذا؟».

«لا يوجد شيءٌ كهذا. لقد بحثتُ».

«أتساءل حول هذا».

«لأننا عندما *كنا* في السابق شابّات، لم نُعطِ شبابنا حقّه. وهذا ما يُثير *جنوني*!».

«لم نكن على عِلم بما ننطوي عليه من قوة – أو كيف نستخدمها».

«صحيح. كل الصحّة».

«إذن كنتِ تعرفين كل تلك الساحرات. هل ما زلت تحتفظين بأرقام الهواتف؟ ربما أصبحوا الآن يستخدمون الإيميل – wicca.com».

«حسن، *ابحثي* عنهن. أو سأفعل أنا».

كانت الفكرة هي أنْ أحكي قصة امرأةٍ تُصبح أصغر سناً باستخدام السِّحر.

كانت بطلتي تقوم بزيارة رجل يدّعي أنه الشيطان مفيستوفيليس. يمكن لصديقي نايجل أنْ يؤدي دوره. لقد ادّعى بقُدرته على أنْ يُحقق لها «الرغبة التي لا يستطيع أنْ يذكرها». لقد كانت طبعاً الرغبة في أنْ تُصبح أصغر سناً، الرغبة الفاوستيّة من بين الرغبات الفاوستيّة كلها.

وهكذا اخترعتُ شخصيات الساحرات تلك التي استنبطتها من شخصيات عيد جميع القديسين – ربما ساحران مثليان وساحرة عجوز

شمطاء - جاؤوا لإغواء بطلتي بأحلام عكس مسار العمر. وتقع في الفخ - بل إنها توقّع بالتخلّي عن روحها بالدم. والمُعجزة هي أنها تعود شابة. أم أنها فقط *تعتقد* ذلك؟

لم أكنْ قد كتبتُ أية مسرحية قبل ذلك، لكنني انهمكتُ فيها، وملأتُها بأشد أوهامي سذاجة عن السِحر والسفر عبر الزمن. إنَّ ساحراتي يرتدين أثواباً طويلة ويثقبن أجسادهن بأشياء دقيقة. وساحرتي الشمطاء ترتدي ثوباً على غرار المغنّية ليدي غاغا.

لم أكن أعلم ماذا أفعل. ولكن ربما حظيتُ بحظ المبتدئين. وبدأ الحوار يتدفّق.

يسأل الشيطان «كم تريدين منه وكم ترغبين في أنْ تدفعي؟».

تسأل بطلتي «ما نوع الدفعات؟».

يقول الشيطان «سوف نتحدث في هذا الشأن لاحقاً. فما السِحر إلا نيّة عميقة في التغيير؟».

تقول بطلتي «ذات يوم كان الزمن صديقي. أما الآن فيجري أسرع فأسرع».

يسأل الشيطان «إذن كم تريدين لكي توقفي جريانه؟»

ويتواصل الحوار هكذا. كنتُ أقضي وقتاً ممتعاً بالتمثيل على الصفحة - كان شيئاً جديداً عليّ. لقد استسلمتُ له وتركتُ الأمر بيد الخيال. وأخبرتني إيزادورا أنَّ كل كتاب الَفَتْه كان بأكمله تحليلاً للذات. وبدأتُ أفهم ما تقصد. يمكن للخيال أنْ يقودك إلى الواقع، ولكن يجب أنْ تكون منفتحاً.

بينما أراقبُ بطلتي تتحوّل، تملّكني القلق من الثمن الذي عليها أنْ تدفعه. أتدفع روحها ثمناً؟ ابنها أو حفيدها؟ واستمرَرْتُ في التقلُّب بين الأفكار والرعب يطرق صدري.

في تلك الأثناء، كان الهاتف لا يتوقف عن الرنين ويأتيني بعشّاق

مُحتملين على شبكة الإنترنت. ودار بيني وبين بعضهم أحاديث غزل طويلة، وممارسة جنس عبر الهاتف مع البعض الآخر، لكنّ انشغالي بالمرض، والموت، وبمسرحيتي كان يُقاطعني. كانت مسرحيتي تضيِّق عليّ الخناق. كانت تعلّمني نوعاً جديداً من الحريّة. ثم - أعتقد أنني لم أرغبْ في أنْ يُلهيني موقع النكاح الحرّ بعد ذلك - كان مرض آشر قد أطاح بي لأنني اعتبرتُ حبّه أمراً مُسلَّماً به.

مَنْ كانت ساحراتي المفُترضات وماذا يعنين؟ إنني لم أطرح على نفسي هذا السؤال وأنا أكتب. كان يمكن أنْ يُعطّلني عن الكتابة. كنْ على ثقة من أنكَ إذا كنتَ أنتَ تؤمن بشخصياتك، فإنَّ الآخرين سوف يؤمنون بها أيضاً. لقد تعلَّمتُ هذا بالطريقة الصعبة. وكلما كنتُ قاسياً في انتقادي لعملي، أعجز عن العمل. كانت إيزادورا قد قالت هذا أيضاً.

في غالبيّة التحولات الفاوستيّة، كان اللهو بالسِحر يلقى عقابه. إذ لم يكن من المُفترَض أنْ نعبث مع الزمن ومع الشيطان. وتحدِّي الآلهة يكشِف عن افتقار إلى التواضُع يبرهن دائماً على أنه قاتل.

لقد اعتقدتُ أنني فقط أعبثُ بقصة قديمة. لِمَ شعرتُ إذن بخوفٍ شديد؟

إنَّ ما لم أعرفه حينئذٍ كان أنه بالنسبة لأي شخص يكتب، القصة ليست مجرد قصة. إنها أيضاً تعويذة. وبوصفي أمضيتُ مُعظم حياتي أُردِّدُ كلام الآخرين، كنتُ بريئة في هذا المجال. أوه، كنتُ قد كتبتُ سيناريوهات أفلام مُعدَّة، لكنني لم أكتب أبداً قصة نبعت من روحي أنا.

وفهمتُ، تدريجياً، أنني أستخفُّ بشؤون الحياة والموت. ودوّنتُ ملاحظات غزيرة عن كيفية إنهاء تلك المسرحيّة. البدايات سهلة لكنَّ النهايات صعبة. أهي هزليّة أم مأساويّة؟ هل بطلتي نالت فرصة أخرى للعودة إلى الشباب - أم خدعتها أوهامها؟ هل ينبغي أنْ تكون النبرة العامة ساخرة أم حزينة - أم هي مزيج من الاثنين؟ بينما كنتُ أقلّبُ التفكير في هذه الأمور، خططتُ للقيام برحلة طويلة إلى الهند مع آشر.

ربما هو أراد أنْ يذهب لأنه اعتقد أنّه يحتضر وأنها سوف تكون الرحلة الأخيرة التي يقوم بها. إنَّ الهند تترك انطباعات متفاوتة عند كل شخص، لكنَّ العديد منا يربطها بالأفكار الهندوسيّة عن التناسُخ.

إيزادورا وأنا نتحدث عبر الهاتف من جديد. أنا في شقّتي وهي في شقّتها. بيليندا باركافيتش مريضة ولا أريد أنْ أتركها وحدها.

فانسيا:

أنا أؤلِفُ مسرحيّة وأنتِ توقّفْتِ تماماً عن الكتابة. إنَّ ما يجري هنا والآن جنون!

إيزادورا:

حسنٌ، لديّ ما أقوله لك. لم أُخبر أحداً به ولم أرغب في البوح به لأي شخص لأنني خشيتُ أنْ أجلب عليه النحس. لقد كنتُ أكتبُ خيالاتي الوهميّة.

فانيسا:

ماذا تعنين بالخيالات الوهميّة؟

إيزادورا:

لا أدري ماذا أعني. إنَّ شخصياتي تنتقل إلى تلك الكواكب الأخرى. وتكتشف كواكب «زهر زر الذهب». لقد قرّتْ من أرضنا المسمومة وأسّست مدينة فاضلة في تلك العوالم العذراء. هربتْ من الأخوين كوخ[35] والشركات الشريرة التي تحاول أنْ تُدمِّر الأرض، وبدل أنْ تكون كواكب «زهر زر الذهب» بعيدة نائية، إذا بها فجأة تُصبح قريبة منا بحيث يمكن للبشر أنْ يسكنوها. ولكن هناك عملية اصطفاء دقيقة.

35 – الأخوان كوخ: آخر سلاسة من آل كوخ، أساطين الصناعة في أميركا والعالم، وأسّسا وموّلا عدد من المنظمات السياسيّة الليبراليّة والمُحافِظة – المترجم.

والمُختارون يجب أنْ يُعاملوا البيئة بكل رقّة وحب، وأيضاً الكلاب، والأشجار، والأزهار... خاصة الكلاب! ونوع البودل حصراً!

فانيسا:

أعتقد أنَّ الأمر الرائع هو أنكِ تكتبين، ولكن هل تعتقدين حقاً أنكِ تستطيعين أنْ تغربلي الناس؟ ولا يبقى على متن سفينة الفضاء إلا الصالحين؟

إيزادورا:

أنا قلت إنها خيال وهمي.

فانيسا:

حسن، إنه حتماً يبدو لي خيالاً وهمياً، لأننا نعلم أنَّ من المستحيل أنْ نغربل للحصول على الصالحين من الناس... يبدو الأمر مستحيلاً لي.

إيزادورا:

ربما هو مستحيل لكنني أخبرتُك بأنها قصص عن المدينة الفاضلة. إنني حقاً لا أعلم إلى أين أذهب بهذه الأحداث. إنني خائفة جداً لأنَّ هذا ليس النوع الذي أكتبه. إنني معروفة بالكتابة بصدق عن النساء والجنس... وما إلى ذلك من شؤون وأنا سئمت كل شيء!

فانيسا:

إنني أتفهَّم هذا حتماً - إنَّ المرء يسأم العمل المعروف بأنه يقوم به. إنها أدوار متشابهة - مَنْ لا يسأمها؟ كلنا نسأمها! إنهم دائماً يطلبونني لأداء دور بلير العاهرة دائماً وأبداً. لقد سئمت! أردتُ أنْ أقوم بالتمثيل في مسرحية الملك لير وأقوم بدور إحدى النساء فرفض الجميع تمويل الفيلم. وأردتُ أنْ أشارك في التمثيل في مسرحية ماكبث وأقوم بدور امرأة مُرافقة لليدي ماكبث لكنها في الحقيقة رجل ورفض الجميع تمويله. أردتُ أنْ أقوم بنسخة امرأة من شخصيّة هاملت، أتتخيّلين؟

إيزادورا:

(تضحك)

فانيسا:

أتتذكرين عندما حاولتُ أنْ أحصل على فيلم مأخوذ عن أحد كتبك؟

إيزادورا:

أي فيلم هذا؟

فانيسا:

أوه، أنت تعرفينه. كانت أحداثه تجري في روما القديمة. أعتقد أنَّ عنوانه «ليفيا» ويدور حول حياة زوجة الإمبراطور هادريان. تتذكرينه... كانت له زوجة اسمها ليفيا تُقيم في دارة مذهلة فيها رسوم جداريّة لعصافير وأزهـار. واللوحات الجصيّة موجودة في أحد المتاحف الأساسية في روما. جمالها يفوق الوصف. ودائماً يُخبرونني أنه يجب أنْ يدور عن هادريان لأنه كان الإمبراطور، ثم مَنْ يأبه بزوجته. على الرغم من أنها كانت ذكيّة وجميلة وتمثّل قوة في روما تلك الفترة - ولكن لا أحد رغبَ في تمويل فيلم يدور حول امرأة!

إيزادورا:

نعم، أكاد لا أتذكّر. كانت ذلك منذ مدة طويلة.

فانيسا:

ومن ثم، أحصل عليه... كنتِ تدوّنين تلك الأخيلة ولم تُخبري بشأنها أحداً. مَنْ هي البطلة؟

إيزادورا:

بطلة؟ بطل؟ مَنْ يهتم؟ نحن بشر. بعضنا يتحكَّم به ما يجري تحت الحزام وبعضنا ليسوا كذلك، لكننا بشرٌ متناقضون، نتعثّر، ونغمغم. ونحن فائقو الذكاء بالنسبة إلى أجسادنا الهشّة. وبراعتنا تفوق طبيعتنا الفانية. لذلك أريد في الأساس أنْ أتخيَّل أناساً بلا جنس أذكياء جداً بحيث يعلمون أنهم سوف يموتون في نهاية المطاف ويتصرّفون على هذا الأساس.

فانيسا:

هل تسمحين لي بالاطّلاع على بعض تلك الصفحات؟

إيزادورا:

حتماً لا . إنني أكتبها من أجل نفسي فقط. إنها ليستْ للنَّشر. ولا يُسمح للأصدقاء بقراءتها.

فانيسا:

عزيزتي، فقط فكّري في الأمر...

إيزادورا:

أنا أفكّر...

-10-

كلاب عجائز

لكي تستمتع حقاً بصُحبة كلب، لا يكفي أنْ تُدرّبه لكي يُصبح شبه بشريّ. المهم في الأمر هو أنْ تكون منفتحاً على احتمال أنْ تُصبح شبه كلب.

• **إدوارد هوغلاند**

ثمّ توفِّيَتْ كلبتي بيليندا.

بيليندا عجوز. والتقدُّم في السن هو مشكلة الكلاب. تحبّها وتفقدها. في صباح ذات يوم، ترفض أنْ تستيقظ. تبقى متمدّدة، عاجزة عن الحركة، تلهثُ، خطمها جافّ وعيناها تذرفان دموعاً رمادية، رخوة وكبيرة. أحملها وأهبط إلى الطابق السفلي وأنقلها بسيارة أجرة إلى مصحّ الحيوانات.

معظم البشر المنتظرين بصناديقهم وحبال الرسن ومرافقو الكلاب هم نساء في منتصف أعمارهن. لا يوجد إلا عدد قليل من الرجال. صناديق تصدر عنها السَّقْسَقة والمواء، والكلاب يسيل لعابها وتشمّ.

أحياناً ترفع أفعى رأسها من أحد الصناديق وكأننا أصبحنا فجأة في الهند – أو في جنّة عدن.

إننا نرتبط. نُظهِر مخاوفنا ورغباتنا في صُحبة حيواناتنا.

تقول امرأة شقراء وجهها مكسوّ بالضمادات، «ماكس، اجلس».

الأطفال ذهبوا لكنَّ الكلاب تتلكّأ. كلاب لا تضبط نفسها كنساء عجائز، كلاب لها شامات، كلاب تتحرك بدواليب بدل السيقان. وفي أثناء انتظاري إجراء فحص صدر بيلندا بالأشعة السينيّة وفحوصات مختلفة للدم، أراقبُ كامل سلسلة التفاعُل الإنسانيّ–الحيواني. نساء مقتنعات بأنَّ القطط هي أولادها، أو العصافير الجريحة أو الكلاب العرجاء التي لها قوائم خلفيّة رخوة.

وطال انتظاري. أقرأ كل مجلات الحيوانات. أشربُ قهوة حلوة مُعدَّة بآلة بيع بالشق. وأخيراً يخرج طبيب بيطري ويتحدث معي كأنني ثلاثة أشخاص.

«إنَّ بيلندا ليست على ما يرام بالنسبة إلى نوع بودل عجوز. إنها تمرّ في أزمة – ربما بسبب إصابتها بمرض أديسون، ولكن لديها حمّى مقدارها مائة وستة وثمّة صدوع في أحد فصوص إحدى الرئتين. قد نحتاج إلى الاحتفاظ بها سحابة الليل. هلا تفضّلتِ وذهبتِ إلى أمين الصندوق؟».

ماذا سأقول؟ احتفظْ بكلبتي المريضة مجاناً؟

طبعاً، أخذتُ بطاقة ائتماني إلى أمين الصندوق. بعد أنْ أخذوا مني آلاف الدولارات، دعوني إلى زيارة بيلندا في العناية المُشدّدة الخاصة بالكلاب. تبدو ميتة إلى أنْ ترفع بصرَها وتنظرَ إليّ بعينين كبيرتين متسائلتين.

ثم يأخذونها لإجراء المزيد من الفحوصات وطلبوا مني أنْ أتركها سحابة الليل من جديد.

أطلقنا عليها اسم بيليندا باركافيتش[36] لأنها كانت تنبح بسعادة - كانت من نوع بودل نظاميّة سوداء كبيرة تدور حول نفسها، وتُسمِع فرحها. كان الجميع يُحبّونها - الغرباء في الشارع، وأصحاب الكلاب، وأصحاب القطط، والذين لا يُحبّون أحداً.

لأنَّ الكلاب لا تعيش طويلاً، فإنها تمثّل ممرّات في حياتنا. وقد وصلت بيليندا إلينا عندما كنتُ في خمسينيات عمري وعاصرتني وأنا أمرّ بفترات عصيبة عديدة. كانت ذكيّة ورقيقة، ومُحبَّة ككلب هجين جرى إنقاذه ومرحة كجرو كلب بيشون كثير الحركة. وعندما قمتُ بزيارتها في العناية المُشدَّدة خلال الأيام التالية، كانت دائماً تبتهج لدى سماعها رنين صوتي.

لطالما أُعجِبتُ بكلاب البودل النظاميّة لكنني لم أمتلك أبداً واحداً منها ليكون صاحباً لي. كانت بيليندا هي الأولى. عندما قابلتُها، رحت أُردِّد على مسمعها، «هل أنتِ كلبتي؟» وكانت دائماً تنبح سعيدة - واعتبرتُ ذلك جواباً بنعم.

كان لديها سلوكاً تقليدياً في أثناء الليل. كانت تنام في غرفة مكتبي، ثم تشقّ طريقها إلى سريرنا في الصباح. ونستيقظ مع تنهّدها المكسوّ بالفراء عند أقدامنا. كانت درسنا اليوميّ في كيفية العيش كل يوم بيومه. والتوقُّع والندم لا وجود لهما في قاموسها. كنا نقول لأنفسنا إنَّ كل ما نريد هو أنْ نكون مثلها؛ أنْ نعيش اللحظة. لكنَّ كلابنا وحدها تُطبِّق هذا حرفياً. إنها تعلِّمنا التأمُّل. ونحن نريد أنْ نُضاهيها لكننا نادراً ما ننجح.

ارتكبت خطأ اتّباع نصيحة الأطباء البيطريين بإزالة ورم من ضلع بيليندا. كان الورم حميداً لكنَّ العمليّة الجراحيّة كانت بداية النهاية. ففي محاولتي إنقاذ حياة كلبتي الجميلة بيليندا، ربما أكون عجّلتُ بموتها. قد لا أسامح نفسي أبداً، لكنني أعلم أنها تغفر لي.

---

36 - اسم باركافيتش مبنيّ على أساس كلمة bark التي تعني ينبح (الكلب) - المترجم.

لقد كانت أشد الكلاب روعة. شعرها أشبه بسماء ليلٍ بلا قمر، وعيناها بُنّيتان كشوكولاته بلا حليب - أو في الحقيقة «كزيتون غير معروف العمر»، وقوائم صغيرة كثيفة الشَعر وأظافر من أبنوس تنقر عندما تثب على مخالب كلب بودل. لقد كانت بيلندا باركافيتش مرحة وحرَّة.

كان مُربو الحيوانات يُسمّونها بيلا، لكننا فضّلنا بيلندا - وهو اسم من القرن الثامن عشر مأخوذ من مسرحيّة «***سرقة خصلة الشعر***» الشِعريّة لألكسندر بوب.

الآن تهزّ الكلاب المُدلَّلة نفسها مُنتعشة،
ويستيقظ العشّاق الذين لم يعرفوا النوم عند الظهيرة؛
يرنّ الجرس ثلاث مرات، ويضرب الخُفّ الأرض،
ورنين ساعة اليد المكبوت يردُّ بضجيج رنّان.
بيلندا لا تزال غافية على وسادتها من الريش،
وملاكها الحارس يُطيل راحتها المُنعِشة:
لقد استُدعيَ إلى سريرها الصامت
حلم الصباح الحائم فوق رأسها.

نَقَشْنا على الرقعة الذهبيّة التي على شكل عَظمة واشتريناها لنضعها على طوقها: «أنا أعتني بفانيسا وآشر. من فضلك يا سيدي، كلبُ مَنْ أنت؟». وهكذا عرفنا أنها كلبة ذكيّة، ضليعة في الأدب الإنكليزي. كانت، مثلي، لا تحمل شهادات في الآداب أو الفنون لكنها ليست أقل براعة لهذا السبب. وعلى غِرار جدّي الروسيّ، علَّمتْ نفسها بنفسها.

علِمتُ أنني عاشقة لأنَّه في المرة الأولى التي تقيّأتْ عليّ في السيارة، لم أنزعج على الإطلاق وكأنني أنا التي أنجبتها. إنَّ القيء هو مجرد قيء لكنَّ قيءَ طفلٍ محبوب يمكن أنْ يكون أيضاً قَيئك.

كانت من سلالة بودل نبيلة، ولكن على خُطى العديد من الأرستقراطيين، كانت نتيجة استيلاد داخليّ وعانت من عيبٍ جينيّ. ولو أنها كانت كلباً هجيناً جرى إنقاذه، لكانت أصلبْ. بدل ذلك، وكما حصل للرئيس جون ف. كينيدي، عانت من مرض أديسون. وهذا يعني أنَّ غُددها الكظريّة تعطّلتْ عن العمل ولم تتجاوز الخامسة من العمر. أم هل كانت في السادسة؟ وقد ازداد حبّنا لها لهذا السبب لأنها احتاجتْ إلى المزيد من العناية. آه، لقد عرفنا أننا فُتِنّا بها، لكننا لم نخجل من ذلك. لقد كنا عاشقين. والحب لا يعرف الخجل. فهل هذا يعني حقاً ألا تعبِّر عن أسفك؟

كانت تصرُّفاتها معروفة بصورة مُحبّبة - في سريرها، على الأرضيّة، في سريرنا عند الساعة الثالثة فجراً. وكم من مرّة استيقظتُ عند الساعة السابعة على تنهداتها الفلسفيّة الكلبيّة. ونادراً ما ضرَطَتْ. لكنَّ تنهداتها كانت عميقة.

وإذا حدث وضرَطَتْ، نجد أنَّ تعقيد الرائحة دلالة أخرى على سِمتها الإنسانيّة. لم تكنِ فقط تحب البسكويت بل والكعك المستدير، وسمك السلمون المُدخَّن، وشرائح الكبد. كانت يهوديّة بكل معنى الكلمة. كانت كلبة يهوديّة، أو *Jewdle*. لكنها ليست شرسة، بل ظريفة ورقيقة بكل معنى الكلمة. كانت تحبّ حتى الكلاب الصغيرة النبَّاحة. والأطفال.

لم نُحبّها بسبب النظرات التي تجذبها في شوارع نيويورك. كلا. بل أحببناها بسبب حدسها ومهاراتها في التحاور. كانت تعرفنا. بعمق. وآمنت بأننا نعرفها.

لقد ادّعتْ فرجينيا وولف في روايتها «أورلاندو» أنَّ الكلاب لا تتحاور. وفنّدتُ هذا. لقد كانت أحاديث بيلندا أشد فطنة من أحاديث غالبيّة النساء اللواتي تسمعهن في الحفلات الخيرية - تلك الأشكال الفريدة من التعذيب المُفضّلة في مجتمع مدينة نيويورك.

لِمَ ينبغي أنْ نستعرض إحساننا علناً في حين أنَّ الإحسان الحقيقيّ يجب أنْ يكون مُغْفَلاً؟ إنَّ الذين يَهَبُون باستمرار ويرفضون أنْ يضعوا أسماءهم على المنشئات هم الذين أعتبرهم أبطالاً.

أما الأحاديث التي تجري بين المُحسنين المُحتفِين بأنفسهم - فغالباً لا يسمعها أحد. لا أحد يستطيع أنْ يسمع أية كلمة من بين عبارات المديح الزائف وقرع الكؤوس. وإذا استطاع أحدٌ أنْ يسمع، فإنَّ تفاهاتهم لا تُثير أيَّ تفكير - على عكس تنهُّدات بيليندا.

إنَّ تنهُّداتها تخترق الأعماق التي لا تُقاس. تنهداتها كانت أحاديث من أصدقها، لأنها كانت تحكي عن الروائح والأذواق وحُفَر السناجب وعن الغزلان. وأيُّ حديث أفضل من هذا؟

إنَّ الطبيعة هي أفضل المُحدِّثين قاطبة.

خلافاً للذكور من الكلاب الذين احتفظنا بهم، لم تكن تتسكّع. كانت واعية بما يكفي بحيث تمكث حيث تشعر بالأمان. ثم ما الأمان بين المخلوقات الفانية؟ هل له وجود أصلاً؟

سوف أتركك تتأمّلين في هذا. إننا نعبر هذا السبيل بسرعة وفقط مرةً - أو مرّتين. مَنْ يدري؟ لعلّ الهندوس على صواب وأننا نولد مرة بعد مرة بأشكالٍ مختلفة. أنا واثقة من أنّني كنتُ ذات مرة كلبة - وهذا يُعلِّلُ السبب في تمتّعي بإحساس ممتاز بالرائحة وبتعاطفٍ مع صنف الكلاب. أستطيع أنْ أعرف في الحال إنْ كان عِطرٌ ما أساسه الورد أم الياسمين وخزانة عفنة تؤذي أنفي أكثر مما يفعل مجرور.

في مدينة نيويورك لدينا الكثير من العجائز الذين يملؤون المصعد بروائح الكافور اللاذعة عندما يُخرِجون معاطفهم الفرو العتيقة من التخزين. إنني حقاً أكره تلك الرائحة.

لا أعلم لماذا تؤذي رائحة الكافور أنفي - اللهم إلا إذا كنتُ ذات مرة

عثّة أو حتى فراشة. لكنني أخرج عن الموضوع، ولا يُفتَرَض بالممثلين أنْ يخرجوا عن الموضوع. يجب أنْ نلتزم بحوارنا المكتوب. نحن لسنا كُتّاباً.

عندما عادت بيلندا إلى المنزل من المستشفى انخرطنا في نظام حياة مستحيل. كانت تستلقي على ظهرها وتتظاهر بأنها ميّتة على امتداد ساعات طويلة. ونقرّر أنْ ندعها ترحل ومن ثم إذا بها تنهض وتشرب ماءً، وتأكل لقمة ومن ثم تعود إلى وضعيّة انعدام الحياة من جديد.

كنتُ أستدعي الطبيب البيطري لكي يُطبّق عليها القتل الرحيم. ثم أُلغي الموعد. كان القرار يخصّني لكنني لم أتمكّن من اتّخاذه. فكلما تحسّنت حالتها، أُقرّر أنها قد شُفيت.

لكنَّ بيلندا أُصيبتْ بمرض أديسون، لذلك شكّل الشفاء مشكلة بالنسبة إليها. وقام الأطباء البيطريون باستئصال ورم دهنيّ من وركها، لكنَّ الجرح رفضَ أنْ يلتئم. جرّبنا كل شيء بدءاً بالضماد الفراغيّ vacuum bandages وحتى المُضادات الحيويّة النادرة التي تُكلِّف كل كبسولة منه عشرين دولاراً. جرّبنا حفظها داخل غرفة مُعقَّمة لكي نعزل أنفسنا عن الإصابة بتعفّن الدم وبـ E-coli التي كانت مُصابة بهما. أنفقنا ثروة على الأطباء البيطريين والمستشفيات البيطرية.

«ماذا في وسعنا أنْ نفعل، يا بيلندا؟ أعطِني إشارة، انبحي، عضّي، الْعَقي. كلّميني».

لقد شعرتُ حقاً بأنَّ في استطاعتها أنْ تتكلَّم لكنها لم تتخذ قرارها بهذا الشأن بعد. كنتُ أشعر بأنني أفتح معها أحاديث لا تنتهي نقوم خلالها بوزن خياراتنا معاً، آخذين في الاعتبار تقمُّص الأرواح، حياتها الأخيرة، وحياتي. متى سنتقابل من جديد؟ على هذا الكوكب أم على غيره. لقد قُدِّرَ لنا أن نكون شريكَين، إلى هذه الدرجة أعرف.

لكنَّ كفلَها الأيمن تحوّلَ إلى كهفٍ مُدمّى تبرزُ منه عضلات مكسوّة

بالصديد. ماذا لو أُصِبْتُ بعدوى تعفُّن الدم أو الـ E-coli؟ ماذا لو أُصيبَ زوجي به؟ أو ابنتي الحامل؟ وسألتُ بيليندا إنْ كانت مُستعدّة للرحيل. فأخبرَتْني بأنَّ عليّ أنْ أتّخذ القرار - وكان ذلك بصورة ما أسوأ من بقائها حيّة في هذا الضياع.

وهكذا استدعيتُ الطبيب البيطري للمرة الأخيرة. وأمسكتُ بمخلب بيليندا الطيب بينما كان الطبيب يحقنها بجرعة النسيان. ارتخى لسانها الورديّ الطويل وتدلّى من بين شفتيها السوداوين. وأسدلنا جفنيها الكبيرين البُنيّين. ورَحَلَتْ.

بعد ذلك بأربعة أشهر سمعتها تعدو برشاقة حول الشقة. أحياناً يُفتَح الباب وأكاد أتيقّن من أنها بيليندا. أحياناً تكون هبّة ريح، أو تنهيد، أو نباح خافت ولا يكاد يُسمَع. رأيتها على الأرض عند قدمَي سريرنا. ورأيتها في مغطس الحمّام، حيث كانت تفضّل أنْ تنام في ليالي الصيف الحارّة. رأيتُها في الشارع في نزهة مع أحدهم. تألّمتُ من أجلها. لكنها كانت قد ماتت، وأمي، التي تشارف المائة عام، ما زالت حيّة.

كانت أمي التي شارفت على المائة قد كفّتْ منذ زمن طويل عن أنْ تكون تلك الأم الشرسة التي أُهاجمها. كانت الآن تتأرجح بين النوم والطبيعة العاطفيّة. أصبحَ الكلام يخونُها - وهي التي كانت ذات يوم مُفوَّهة.

يمكن للموت أنْ يكون - هل نجرؤ على قولها؟ - نعمة. لقد عَلِمَ الإغريق القُدامى - الذين عرفوا كل شيء - أنَّ الخلود بلا شباب يجب الخوف منه لا الرغبة فيه. ولكن مَنْ يُصغي إلى الإغريق القُدامى؟ لا أحد. ولا حتى الإغريق المعاصرين.

تساءلتُ، وأنا أراقبُ أمي تبتسم وهي تضع أحمر شِفاه وتتحلّى باللآلئ، حول سلامة عقلها وانخفاض ضغط دمها.

سألتُ إيزادورا عبر الهاتف «ماذا لو أنها بقيتْ حيّة حتى بعد موتنا جميعاً؟».

تقول إيزادورا «قد تفعلها. ولكن على الأقلّ لن تعود مشكلةً أنتِ مسؤولة عنها».

كنتُ أحبّ أمّي حبّاً جمّاً. ثم صرتُ أمقتُها. وأمضيتُ حياتي أتنقّلُ بين هذين القُطبَين كمغناطيس معتوه. قلّدتُها، حاكيتُها ساخرة، أشبعتُ رغباتها. كنتُ أعلم أنَّ موتها لن يكون أمراً سهلاً على أيّ منا. فقبل أي شيء، لقد أمضيتُ ساعات طوال أحزن على والدي - وما الأبُ مُقارنةً بالأم؟ ليس هناك حتى رباط دم - كما يقولون عن الأزواج. أو، كما قالت مارغريت ميد: «الأمّ ضرورةٌ بيولوجيّة، والأبُ اختراعٌ اجتماعيّ». ومع ذلك فإنَّ والداً لديه بنات هو رجلٌ خضع للامتحان. وغالباً ما يكون مفقوداً.

لا أستطيعُ أنْ أكتبَ أيّاً من هذا. إنه شديد الخسّة. في الماضي لم تكن لديّ مشكلة في أنْ أكون خسيسة. ولكن مع تقدّمي في السن، صرتُ أراقبُ نفسي. لا يمكنك أنْ تكوني صادقة وأنت تراقبين نفسك. إنَّ الخسّة هي جزء من الحياة وجزءٌ مني. يجب أنْ أُعبّر عنها. هذا عملي. أما الرقابة فليست من شأني.

قد نكون نحن معشر المُلحِدين على خطأ تامّ فيما يخص الجنة والنار. لنفرِض أننا مُتنا واكتشفنا أنّ دانتي كان على صواب في وصفه لأنواع تعذيب الملعونين؟ فماذا سيفعل كريس هيتشنس[37] حينئذٍ؟

إذن، هذه قصة تدور حول الجنّة والنار. هكذا ببساطة. إنَّ جحيم شِعار الكتابة هي رقابة ذاتيّة. والجنّة هي حريّة البوح بالحقيقة. والنساء لديهنّ مشكلة خاصة في هذا المجال.

---

37 - كريستوفر هيتشنس (1949 - 2011): كاتب صحفي إنكليزي-أميركي. مُلحِد. ويعتبر أنَّ مصائب العالم كلها سببُها الدين، ولديه كتاب عنوانه (الله ليس أكبر) له كتب ومقالات وأعمال نقدية وأعمدة في صحف. صدرتْ مذكراته تحت عنوان «هيتش22-» عام 2010، وفي عام 2011 صدرتْ له مجموعة من المقالات. توفّي متأثراً بمرض السرطان - المترجم.

في وقتٍ قريب، أعدتُ قراءة كتاب «مذكرات هادريان» لمارغريت يورسينار. وذُهِلتُ عندما اكتشفتُ ما كتَبَتْ في ملاحظتها عن صعوبة تأليف كتاب – الذي استغرق منها إنجازه عقوداً عديدة:

«ثمة شيء آخر مستحيل حقاً، هو تناول شخصيّة نسائيّة كشخصيّة مركزيّة... إنّ حياة النساء محدودة أكثر مما ينبغي أو سريّة أكثر مما ينبغي. إذا سَرَدَتْ امرأةٌ قصّةَ حياتها سرعان ما توبَّخ لأنها لم تعُد حقاً أنثى».

نحن جميعاً ما زلنا نكافحُ في هذا المجال. والمرأة التي تختار الكتابة مُستترةً خلف شخصيّةِ رجلٍ تأملُ في أنْ تتفادى المشكلة. لكنَّكِ لا تستطيعين أنْ تتفادي مشكلة كونك امرأة.

بعد عيد مولد أمي بأسبوع، ذهبتُ لزيارتها من جديد. كانت مستلقية على السرير لا هي يقظة ولا نائمة. بدت بشرتها أكثر نعومة بكثير. وكأنَّ التجاعيد على وجهها العجوز تختفي، كأنّها تعود كونها طفلة وليدة. وهذا أخافني. لقد اعتبرتُ ذلك نذيراً بحلول نهايتها وأصابني الرعب. لم أُردْ أنْ أفقدها.

جلستُ معها قُرابة الساعة، أحاولُ أنْ أُثير عندها أية استجابة. دلّكتُ ظهرها، مشّدتُ على شعرها، ورحتُ أثرثر عن أحداث يومي ولم أتلقَّ أية استجابة.

قلتُ «أحبّك حباً جماً. لقد كنتِ أعظم أمّ. إنني أشكركِ على التمثيل، وعلى الكتب النادرة، وعلى اللوحات الفنيّة، وعلى كل الحب الذي منحتِني. لقد كنتِ أمّاً رائعة وأنا أحبّك».

ولا استجابة. فبدأتُ من جديد. «أنا أحبّك حباً جماً وأشكرك على كل شيء. لقد كنتِ أمّاً عظيمة».

من جديد، لا استجابة. من المستحيل تمييز إنْ كانت قد سمعتني أم لا. لكنَّ أمي كانت شديدة الذكاء. ولم أستطع مرّةً أنْ أخدعَها. كانت تعرف أنني أكذب عندما أفعل. كانت أشدّ نقّادي قسوة. فكيف كان لي أنْ أعرف ما تعلم وما لا تعلم؟ كيف لي أنْ أحكُم على وصفها للحياة؟ مستحيل. اعتقدتُ أنَّ الموتَ قد يُحرِّرها، ولكن ربما أكون مُخطئة. ربما نبرة كلامي في وداعها تنمّ عن ذلك. لعلّها كرهت صيغة الماضي في كلامي. ربما يجب أنْ أتكلّم بصيغة المُضارع.

قلتُ «إنني أحبّك بكل قلبي. أنتِ أمٌّ رائعة».

انفجرتْ قائلة «أنا أحبّك أكثر!».

وهذه هي أمي – مُنافسة شرسة حتى النهاية، تغطّي علينا كلنا بعمرها المديد، رافضةً أنْ تموت. ربما حكتْ حكاية أفراخ الصقر بشكلٍ يوحي باستعدادها للبقاء في العشّ وحدها – لكنَّ ذلك ليس صحيحاً على الإطلاق. لقد أرادتْ أنْ تأسرنا جميعاً. ولن تُحرّرنا أبداً.

عندما نولَد، لا نستطيع أنْ نعرف إنْ كان ذلك سيحدث في عشٍّ للأفاعي أم وسط عصافير عذبة التغريد. وحتى العصافير المُغرّدة التي تتنافس على الديدان التي تجلبها العصفورة الأم، وهي مزاجيّة في توزيع الديدان والحبّ. إنك تعتقد أنَّ الحُبّ يوزَّع بالتساوي إلى أنْ تبلغ الرابعة أو نحوها ومن ثم يولَد فرخ آخر وتُصبح مكروهاً لديها كم تكره أنت العصفور الأكبر منك سناً، وتحاول أنْ تقتلع عينيها، وأنت تغرّد بعذوبة طوال الوقت.

ولكن يجب أنْ نترك العش ونتابع مشوارنا. إنَّ وفاة والدي، وجلوس أمي على قمة قرنها كالعنكبوت السامّة، وهي تنزع أحشاءنا داخل شبكتها، حتى أنَّ زوجي كاد أنْ يموت، لم يمنحني إعفاءً خاصاً أو يستثنِني من الموت. إنَّ قَدَر البشر جميعاً هو نفسه قَدَري. وأنا مُرشّحةٌ للقبض على ما تبقّى من حياتي بفرح.

-11-

أكثر، وأكثر، وأكثر

«يمكن للزمن أنْ يتوقّف، أنا مُقتنع بهذا؛ شيء ما يعلَقْ ويتوقف، يدور ويدور، كورقة نبات في جدول ماء».

• جون بانفيل، من كتاب ***«ما لا يمكن لمسه»***.

هل يمكن أنْ تكوني مرحة وأنتِ مع كلبٍ ميّتْ وأمٍّ شارفت على المائة ولا تموت؟ هذه هي المشكلة. ليت تطبيق الموت الرحيم كان ممكناً على الأمّهات!

لقد بدأتُ أعتقد أنَّ الموت قد لا يكون أسوأ ما يحدث للكائن الحيّ. وأنَّ التواني عن الموت أسوأ بكثير.

لطالما كنتُ حالمة نشطة. في استطاعتي أنْ أنام عشر ساعات في الليلة، وأحلمُ بسلسلة لا تنتهي من الأحلام. وبعد أنْ ماتت بيلندا، ازدادت كثافتها.

حلمتُ بأنني أعبر نهراً موحِلاً، وثوبي الطويل ملوّث بالقذارة.

في يدي قرص مُدرَّج. لا أعلم كيف وصل إليها، لكنه يُشير إلى الرقم 1888 – وشابٌ ذو شارب على شكل مقود درّاجة، كثّ وقاتم اللون يعبر خلفي، يهتف لي صارخاً بالروسيّة. فأزعقُ مذعورة، كما يحدث في الحلم: «ليس إلى هذا الحد من الماضي!» واضعاً رقماً أحدث عهداً – 1932 – وهناك أبواي الشابان يسبحان في البحر – أنا لستُ معهما.

أصرخُ «كلا! كلا!».

تسألني أمي «لماذا تعتقدين أنَّ في استطاعتك أنْ تنتقي الوقت؟».

وينتقل القرص إلى الأمام إلى رقمٍ مبهم يبدأ بـ 20 وثمة أربعة أشخاص يُحدّقون إلى داخل التابوت – ويبكون. الجثّة تنهض – تقول «فات الأوان! فات الأوان!».

أعبثُ بالقرص – المصنوع من الضوء – فتجري الأرقام في اتجاه واحد، ثم في آخَر – كصفحاتٍ في كتاب تحاول أنْ تعثر على مُقتطفٍ فيه. لا أجد الصفحة الصحيحة، لا أجد الصفحة الصحيحة. هناك صبي كتانيّ الشَّعر في الثالثة من العمر على شاطئ بحر، مراهقة ترتدي ثوب حفل راقص، عروس، وعروس أخرى، ثم عودة من جديد إلى والديّ في بروفنستاون يرتقيان كثيب حادّ، ثم جدّي يهرب من روسيا، ثم التابوت، ثم أبواي من جديد.

«كلا! كلا!». أريد أنْ أستيقظ، لكنني لا أستطيع أنْ أستيقظ. أظلُّ أهرعُ جيئة وذهاباً في الزمن، دائماً أعجز عن العثور على نقطة معيَّنة. القرص يدور. الضوء يخفق – وها أنا – ولكن لا أعلم أين أوقفتُ القرص.

أعود إلى الخلف إلى بداية الزمان. وإلى الأمام – أنا ميتة. القرص يستمر في الدوران وكأنَّ له عقلاً خاصاً به. وهذا صحيح.

تخيّلي حياتك – قبلها وبعدها. وتخيّلي هذا معروضاً على منحنى الزمن. قرص الضوء ينطلقُ مُسرِعاً إلى الأمام وإلى الخلف. إذا كان في

استطاعتك أنْ تري حياتك بهذه الطريقة، فأين ستتوقّفين؟ وهل الأمرُ منوطٌ بك؟ هل تستطيعين أنْ تُقرِّري أيَّ كونٍ موازٍ تَلِجِين؟ أم أنَّ كل شيء تُحدّده لعبة المُصادفة؟ أجداد، آباء، الانطلاق خلال الزمن، يرمي بك إلى الخارج كما لو أنَّكِ حجرُ نرد DNA، لا تعرفين أين ستستقرّين.

إنَّ أعمق رغباتنا هي أنْ نوقِف الزمن، أنْ ننزلق بين أغشية الذاكرة ونفوق ملاك الموت دهاءً. ولو كان في استطاعتي أنْ أوقِف الزمن في أي موقع لأوقفته عندما قابلتُ آشر وأدركتُ كم كان كلٌّ منا مُناسِباً للآخر. أتذكّرُ حفل عرسنا، ومدى حبّه لابنتي، والضحك الهستيريّ الذي ما زلنا نتقاسمه. كيف يمكن أنْ أحلم بفقدان هذا كلّه؟ إنني بكل وضوح مذعورة من مَرَضِه.

إنَّ مُعظم حياتنا لا يدوم. ووهم الدوام في المعتاد خاطئ. النيران والحروب تدمّر أوراق البردي، وحتى جلود الحيوان. إنَّ الورق يتعفّن. والملفات الرقميّة تستسلم لحرائق لا نستطيع أنْ نتخيّلها. إنَّ إرادة الدوام قوية، وحقيقة الدوام خاطئة في المعتاد. حتى لوح براءتنا الشاسع لا يدوم - على الرغم من أننا نواصل حياتنا وكأنه سيدوم. وها أنا ذي، أحاول أنْ أستعيد العمر الماضي وكأنني أحاول أنْ أدفع المُحيط بعيداً.

إننا نعتقد أنَّنا نستطيع أنْ نعبث بالزمن إلى الأبد، لكننا لا نستطيع. الزمن لا يرحم. قد يكون «عربة مُجنَّحة»، لكنّه عربة مُجنّحة مُدجّجة بالأسلحة الأتوماتيكيّة. إنه المُحيط يتدرّب على النسيان. والموجة هي ممارسة البحر للتأمُّل، كما يقول مُعلّمو التأمُّل. لكنه يعني أنْ نُمحى.

والآن أعود لأحدّق إلى القرص المُضاء.

عندما أندفع خارج الكوكب المُمزّق كأنني أسافر بالقمر الصناعي، أرى الأرض الخضراء تتحول إلى اللون البُنّي على شكل بقع كبيرة مُغبرَّة بالقرب من خط الاستواء. تندفع كتلٌ من الأرض تتحول إلى غبار وتحلّق وتطير في الفضاء. لكنَّ المدينة مسقط رأسي غرقتْ. وناطحات السحاب

غرقتْ حتى ذراها في مياه البحر. وقوارب صغيرة، *الموتوسكافي* من البندقيّة، تتجوّل محاولة أنْ تُنقذ العجائز قبل أنْ تقع الأبراج وتتهاوى. العجائز – مثلي! – لا يريدون أنْ يُغادروا مع المُنقذين. ونحن في المدرسة الابتدائيّة كنا نتخيَّل نيويورك تفجّرها القنابل. لكنَّ نيويورك قد تغرق قريباً كما حدث للبندقية! أدِر القرص إلى الخلف إذا شئت. أدر، أدر، أدر!

إنَّ تخيُّل غرق مدينة يُذكّرني بالبندقيّة عندما كنتُ صغيرة وعاشقة لرجل كان ينعتني بـ *pane caldo* – أو الخبز الساخن. كنا نمارس الجنس على متن قاربه في وسط البحيرة. وممارسة الجنس على متن قارب يُشبه كونك على كوكب آخر. المياه في الكوكب تكتنفنا وتُحيط بنا ونحن نتهادى في أحضان كلٍّ منّا الآخر. وكل حركة من القارب تجعله يلجني أعمق.

أعود شابة من جديد، وكامل جسدي يهدر بالطاقة القديمة، والرعب يتملّكني، أتبخترُ وأثِبُ من جديد. والأفق يقفز ويقفز، وقدماي تعلوان فوق الأرض وكأنَّ في وسعي أنْ أطير.

كان كل شيء صارماً في جدّيّته والآن عاد إليّ تهوّري. أصبحتْ حياتي كالعصا النطاطة، تقفز.

أسير في الشارع دون أنْ تنزل عليّ لعنة تجاهل النساء الأكبر سنّاً لي، يتبعني كلبٌ خفيّ.

على الأقلّ عدتُ شابة من جديد في أحلامي. وينبغي أنْ أكتفي بهذا. وربما أمي أيضاً عادتْ شابّة في أحلامها هي وهذا ما يُبقيها على قيد الحياة!

عندما تكونين مُوْثَقة بشخص مريض، فإنك تخرجين إلى الشارع كأنما للمرة الأولى. إنني أعرف نيويورك معرفة حميمة. ومع ذلك لم أعرفها أبداً لأنَّ نيويورك دائماً تُبنى من جديد. المدينة دائماً تتحرّك من تحت الأقدام. كأنها كوكب بدائيّ والحِمم تتدفّق فيه وتهدر بضجيج

متنافر. دائماً تتوقّع أنْ تنشق الأرض من تحتك وتكشف عن القلب الذائب للمدينة. وربما لهذا السبب تجد سكان نيويورك الأصليين دائماً مستعدين لأي طارئ - حتى لدمارنا الوشيك.

أتجول شرقاً وسط أقنيةٍ ما لن يُصبح أبداً نفق الجادة الخامسة الأسطوريّ، مُخترقة هدير حركة المرور، وأقابل رجلاً عجوزاً يتبادلُ حديثاً رسمياً مع صنبور ماء.

يصرخ «أنت لستَ مجرّد منبع ماء». ومن ثم يقول شيئاً آخر - لكنني عرفتُ عدداً لا يُحصى من المجانين في حياتي يمنعني من متابعة الحديث. وتُثير إعجابي امرأة عجوز وكتلة من الشعر بلون أصفر نيون تتوّج رأسها. وأمرّ بامرأة أخرى صبغتْ شعر كلبها الأبيض باللون الأحمر الصارخ نفسه الذي تصبغ به شعرها. آه، أصلُ إلى الحيّ الشرقي العُلويّ - مأوى مَنْ لا مأوى له، الأكثر جنوناً، المُعرَّضون لأدقّ التحديات.

أصل إلى كنيسة، دون أنْ أقصد، يُعقَد فيها اجتماع للمدمنين على الخمر عند منتصف النهار ونصف. أنا لم أحضر عدداً كافياً من تلك الاجتماعات، على الرغم من أنني لم أعُد أشرب الخمر. لقد تقبّلتُ أخيراً حقيقة أنّه يُسبب لي الاكتئاب. وفي الأماكن السفليّة، في أحشاء الأرض، تتجمَّع الأرواح الضائعة. الكراسي تُجرّ على الأرض. والناس يسعلون ويُحيّي أحدهم الآخر. وتستلم المتحدثة مُكبِّر الصوت.

إنها امرأة أكبر سناً لا أعرفها. شعرها أبيض وغير مُسرَّح وزينة وجهها مثاليّة.

تقول «أنا مُدمنة كحول، واسمي سينثيا». ثم تبدأ بسرد قصّة طفولة قضتها في الإدمان - قام والداها بترتيب أسماء المُدمنين أبجدياً داخل خزانة مُصنفات - لأطفال ماتوا متأثرين بالمرض، وأزواج ماتوا للسبب نفسه، ولعدد من محاولات الانتحار لم تنجح.

«لا أصدّق أنني حاولتُ أنْ أختصر حياة هي في الأساس قصيرة. فيمَ كنتُ أفكّر؟ كنت حانقة على الله. والآن صرتُ أعرف أنني كنتُ

حانقة على نفسي. عندما نحاول أنْ نُدمِّر أنفسنا، نكون مُضلَّلين. نعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ نهرب من الألم. ولكن لا مهرب. المهرب الوحيد من الألم هو أنْ تحشد أقصى قِواك. وتركع. وتتّضع. وتطلب العون. وإذا لم تطلب العون، فلن يأتيك العون أبداً. ولكي تكون إنسانياً يعني أنْ تكون متشبّثاً برأيك يُطلق العنان لنفسه. والسبيل الوحيد إلى السعادة هو الاستسلام. والاستسلام هو سلام. وخلال الردح الأكبر من حياتي أردتُ أكثر، وأكثر، وأكثر. لا شيء كان يكفيني. كنتُ ممتلئة بالحسد والاشمئزاز. حسبتُ أنَّ كل إنسان لديه أكثر مما لديّ. الآن بتُّ أعلمُ أنَّ الهوس بالمزيد، والمزيد، والمزيد هو مرض، وَهْم. كلنا لدينا ما يكفي. ولا نعلم هذا».

أرفعُ يديّ عالياً. أقول «أنا أيضاً عانيتُ من مرض المزيد، فالمزيد، فالمزيد. وأنا شديدة الامتنان لك لأنكِ ذكرتِ هذا. لقد أردتُ المزيد من الجنس، المزيد من التحكُّم، المزيد من المال، المزيد من كل شيء. المزيد، المزيد هو مرض».

بعد انتهاء فترة استراحة السكرتيرة، مدح عدد من الناس في المكان سينثيا على حِكمتها، ورقّتها، ونجاتها.

تساءلتُ، لماذا من الصعب أنْ يكون المرء كائناً بشرياً؟ لماذا علينا أنْ نستسلم؟ ولِمَنْ؟ ماذا لو رفضتَ أنْ تؤمن بقوة أسمى؟ ماذا لو أنكَ اعتقدتَ أنكَ القوة السامية الوحيدة الجديرة بالثقة؟ هذا ما اعتقدتُ طوال حياتي وأعلمُ أنَّ هذا غير صحيح. أنتَ لستَ كافياً. وإرادتك ليستْ كافية. وماذا عن الله؟ الله حلمٌ وثنيّ، ينشأ من الحاجة. الله هو خلل في عقل أكبر مما ينبغي.

بخلل أو بلا خلل، يبدو أننا في حاجة إلى قوة أكبر من قوّتنا. يبدو أننا نحتاج إلى أشباح ضخمة للألوهيّة تطاردنا. نحن نعلم أننا ضعفاء. إنَّ المدمنين على الخمر هم، قبل كل شيء، وحيدون، خائفون، يجعلون من الخوف صنماً، يعتقدون أنهم - أننا - أفضل من أنْ نشكِّل جزءاً من

الجنس البشري. يجب أنْ نتّضع لكي نتذكَّر مَنْ نحن - نحن كائنات بشريّة تتعثّر، أقرب إلى القرود منها إلى الملائكة.

لقد سبقَ أنْ مررتُ بذلك مع ابنتي، مع نفسي، مع الرجال الذين عرفتهم في حياتي. إنني في حاجة على الدوام إلى ما يُذكّرني بغروري، بضعفي، بحماقتي. أنا كائن بشريّ سوف يموت. وما أفعله قبل ذلك قد يكون مهمّاً أو لا يكون. وحدهم الذين يأتون بعدنا سوف يعلمون هذا.

إنَّ الرجال هم الذين جعلوني أتّضع. والعمل جعلني أتّضع. والحياة جعلتني أتّضع. ويجب أنْ أتذكَّر بصورة مُطلَقة أنني مجرد وعاء من الرماد شأنْ بيبليندا.

أحد أعضاء الاجتماع يقول: «أنا أحبَّ كفاءتك. أنا أيضاً أنتمي إلى نادي المزيد فالمزيد فالمزيد».

يبدو أنَّ شِعار المزيد فالمزيد فالمزيد قد ضرب على وترٍ حسّاس لأنَّ العديد من الأشخاص أتوا على ذِكره. نحن جميعاً متشابهون في بؤسنا، في مشاكلنا.

بعد انتهاء الاجتماع، اقتربتْ المتكلِّمة مِنّي.

تسأل «ألا تتذكّرينني؟».

أرميها بنظرةٍ جوفاء.

«لقد كنّا معاً في المدرسة الابتدائيّة في الحيّ الغربي الأعلى».

أُحدِّقُ إليها، أفتِّشُ عن الطفلة الصغيرة التي كانتها. ولا أتذكّر.

تُشير «لقد استطعتِ حقاً أنْ تصلي إلى الناس عبر ما قلتِ».

«أحقاً؟ لم أشعر بهذا. لكنني دائماً أشعر بتحسّن عندما أتكلَّم».

«شيء مُذهل، أليس كذلك؟».

«نحن جميعاً متشابهون. كلنا نخوض المعركة نفسها. سوف تعتقدين أننا بتنا نعرف هذا الآن».

أقول «ولكن يجب أنْ نتعلَّمَه مراراً وتكراراً. أعجبني وصفكِ للمشروب في خزانات الملفّات - ف: يعني فودكا، ج: يعني الجودار، س: يعني سكوتش».

تقول سينثيا «عندما كنتُ طفلة، حسبتُ أنَّ كل الناس يفعلون هذا».

ثم انضمَّ إلينا أشخاصٌ آخرون لكي يُهنّئونها والتقيتُ مُصادفة بصديقتي إيزادورا وينغ.

أقول «إنني حتى لم أرك».

تقول «أما أنا فرأيتكِ وسمعتك. أليس غريباً أنْ نعثر على مثل هذه اللقاءات الحميمة وسط ضجيج نيويورك. إننا نهبط إلى طابق تحتيّ في الكنيسة لم نكن نعلم بوجوده وثمة أشخاص غرباء تماماً عنا يتكلّمون في أعمق الشؤون في حياتهم. ثم يسكتون ويُغادرون من جديد. إذا ترددنا عليها مرات كافية، فسوف نتعرَّف إلى العديد من الوجوه والأسماء وسوف تبدو المدينة بأكملها مكاناً مختلفاً - كما يحدث عندما تحتفظين بكلب».

أعتقد أنَّ الخوف عاطفة عالميّة يُكافحها الجميع تقريباً. ولكنْ الخوف ممَّ؟ من الألم؟ أم الموت؟ أم الخسارة؟ لا فائدة من الخوف من الموت لأنَّ الموت يمحو الخوف من الموت. فقدان الأحباب؟ لا يمكنك أنْ تُعدّ نفسك لهذا مهما حاولت أنْ تتخيَّل. سوف يؤثّر فيك بصورة مختلفة عمّا ظننتَ. إذن الخوف لا فائدة منه. إنه مجرد طريقة لطمس الحاضر والعيش في مُستقبل وهميّ. الاجتماعات لها أسلوب في جرّك وإعادتك إلى الحاضر. ولا يمكن أنْ نعرف السبب في نجاحها. والسبب في أنها تمدّنا بقدرٍ من السلام مُبهم. إننا نهبط طابق الكنيسة التحتيّ ونحن مهتاجون ونخرج ونحن هادئون.

تقول إيزادورا «أنا أحبّك. يجب أنْ أذهب».

وتسير في نيويورك. إنَّ إيزادورا على صواب. عندما تشعر بالخوف، يجب أنْ تُهدهده حتى ينام.

إنَّ نيويورك ممتلئة بعوالم سرّية من الأنواع كافة. عالم اجتماعات المُدمنين. عالم أهل المسرح التوّاقين إلى أداء أدوارٍ لن يحصلوا عليها أو كُتّابٍ صمّموا على الانتهاء من تأليف كتبٍ لن يقرأها أحد. أو عازفو كمان يائسون لأنهم لم يتدرّبوا بالقدر الكافي. كم هناك من يأس. ومن الكفاح. الجوّ يعبقُ به. يمكن الشعور به. ولا شيء في هذا العالم ينجح من غير الانغماس فيه كلّياً. الكثير من السكينة لا ينفع. ولكن هذا هو لغز نيويورك أو أي مكان يُكافح. يجب أنْ تتصف بالعزيمة. يجب أنْ تتحلّى بالشجاعة. ومن ثم يجب أنْ تعرف متى تتخلّى عنهما وتستسلم للتيار. فهل الأمر كلّه يتعلّق بالاستسلام؟

إنَّ التيار يحملني مباشرة إلى صديقتي السابقة ناديا نسيم، التي أصدرتْ للتوّ كتاباً عن كسّها المُذهل. وناديا لم تكلّمني منذ سنين عديدة، والسبب الظاهري هو أنها لم تُحبّ النصيحة التي أعطيتُها لها بخصوص عملها. ما كان ينبغي أنْ أخبرها أنها تترك عند قُرّائها إحساساً سيئاً. لكنَّ الأمر يتجاوز هذا بكثير.

إنَّ ناديا نرجسيّة جميلة، حمراء الشَّعر، تعشق انعكاس صورتها ولا تطيق أي شخص يرى خللاً في جمالها أو في شخصيتها. طولها ستة أقدام ودائماً تتّخذُ وِقفة تعرضُ فيها صورتها الجانبيّة وكأنها تستعد لالتقاط صورة لها. كتابها الأول كان عنوانه «مأساة الجمال». وجَرُؤْتُ على سؤالها عمّا إذا كانت الكتابة عن عبادة الذات قد تُنَفِّر منها قرّاءها. ولم يُعجبها سؤالي. كانت تعتبر نفسها أسطورة وكانت تكره أيَّ انتقاد لها.

تسأل ناديا، بنبرة صوت متخمة بالصداقة الزائفة: «كيف حالك، نس؟». ما الذي يحدثُ هنا؟ ماذا تريد مني؟

إنَّ الصداقة بين الإناث شديدة الغرابة. لقد احتَوَيتُ ناديا تحت جناحي كأمها عندما كانت تمرّ بتجربة طلاق فظيعة، غذّيتُها، عاملتُها كأنها ابنتي التي لم تكُنها إلى درجة أنّ ابنتي شعرت بالغيرة منها وأرادت

ناديا المزيد فالمزيد فالمزيد. إنهنّ دائماً يردن المزيد فالمزيد فالمزيد. وكرهتها غلينداً بعمق. كانتا جميلتين بشعر أحمر تتبادلان الكراهيّة.

ناديا مخلوقة تتصف بالطموح الانتهازيّ تُخفيه تحت شغفٍ بتغيير العالم. ناهيك عن جمالها. إنَّ أشدّ ما ترغب في فعله هو أنْ تُغيِّر العالم لكي يعبدها من غير أنْ ينتقدها، لكنها لا تعلم هذا. إنَّ معرفتها بنفسها هي أقلّ من معرفة أي شخص قابلتُه بنفسه في حياتي تقريباً. شيء مؤسف. إنها جميلة وذكيّة لكنها تفتقر إلى الصدق العاطفي.

«لستُ في أحسن حال. لقد توفي والدي، وماتت كلبتي، وزوجي أيضاً وضعه لا يتحسّن».

«هل أستطيع أنْ أدعوك إلى مشروب؟».

«لم أعُد أشرب. ولكن يمكنكِ أنْ تشربي أنت وأستطيع أنْ أتناول شيئاً آخر».

تقول ناديا «عظيم»، ونغوص داخل بار مظلم في الجادّة الثانية.

تقول ناديا «آسفة لأنني أثرتُ غضبك في تلك المرة».

«لا عليك من هذا. أنا لا أحمل ضغينة».

«كلا، لقد كنتِ شديدة الكرم معي، وأنا كنتُ ناكرة للجميل».

أسال «لا شيء يتطلّب العرفان بالجميل. كيف يسير العمل على الكتاب الجديد؟».

«أتلقّى الصفعات من اللواتي يُفتَرَض أنهن أخواتي».

«إنَّ هذا يُثبت أنك لا بدّ تقومين بعمل صائب».

«أتعتقدين هذا حقاً؟».

أقول «أنا واثقة من هذا. لا أحد يرمي حجارة إلى شجرة عقيم – كما يقول المثل العربي».

تقول ناديا «لكنها تتألّم».

«أنا متأكّدة من ذلك. أتذكّر النقّاد. أحد النقّاد الشهيرين قال إنني

(ضبعة ترتدي تنّورة). ولكن فكّري - إنكِ تُذكّرينَ الناس بمدى جوعهم، ولا أحد يُحبّ هذا».

تقول «لكنني أحاول أنْ أُغيِّر ذلك الجوع. أين الإحساس بالامتنان؟».

«الامتنان كلمة في القاموس. إذا كنتِ تحاولين أنْ تنقذي جنس الإناث لكي تتلقّي الامتنان منهم، انسي الأمر. الامتنان هو أندر الانفعالات. يجب أنْ تعلمي هذا».

«لكنَّ كتابي يُحاول أنْ يُعلّمهن كيف يَحصلن على المتعة الجنسيّة! أنا لا أفهم».

أقول «أنا أفهم. أنت جميلة، ومشهورة، ولديك عاشقٌ وسيم. وهذا يكفي. هناك الكثير من النساء الجائعات»

«فانيسا - لا يمكنك القول إنكِ تقبلين الوضع».

«أنا لا أقبله، لكنني أعلم أنَّ الثوريين دائماً ينتهون نهاية سيئة. فإما أنْ يتحوّلوا إلى طُغاة أو أنْ يُقتلوا على أيدي زملائهم من الثوريين. هذا ما يُبيّنه التاريخ لنا. فإذا أردتِ أنْ تصبحي ثوريّة، فتعوّدي على مواجهة الهجمات. من المستحيل تشريع الممارسة الجنسيّة».

«لا أصدّق أنكِ قلتِ هذا».

«لماذا؟».

«لأنكِ لطالما كنتِ مصدر إلهامي. وقبل أنْ أقابلك بوقت طويل، أردتُ أنْ أصيغ حياتي على نمط حياتك».

«حذار».

«لماذا؟».

«لأنني لم أفهم حياتي بوصفها أقلّ من هذا. لقد مررتُ بفترة عصيبة جداً».

«أخبريني عنها».

«يجب أنْ أؤلّف كتاباً أخبركِ فيه عنها. وأنا لا أكتب مثل ذلك النوع.

أنا أكتب مسرحيات، وسيناريوهات أفلام. إن كل ما يحتاجون إليه هو آذان مُرهفة للحوار».

«حسن، أنا واثقة من قدرتك على تنفيذه وربما حتى أنْ تغيِّري العالم».

«لستُ متفائلة كثيراً بشأنْ تغيير العالم إلى الأفضل. إنَّ تغيير النفس إلى الأفضل صعب بما فيه الكفاية. ولستُ واثقة من أنَّه يمكن للكلمة أنْ تنقذ العالم. إنَّ العالم في أسوأ حال، ولا أحد يُصغي للكلمة».

«لقد أصبحت حقاً متشائمة»

«ربما كنتُ دائماً هكذا. إنَّ الجنس البشري لا يمنحني الأمل. إننا ننهب الكوكب الوحيد الذي لدينا، نعذّبُ ونقتل أحدنا الآخر، نعامل المرأة كأنها نكرة في مُعظم أنحاء العالم. هذا جنون».

تقول ناديا «ولكنْ أعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ نغيِّر الأشياء».

«بالتركيز على كسّنا؟ لطالما دعمتُ الكسّ - نعم. ولكن سوف تُدهشين من قِلَّة النساء اللائي لديهن وقت الفراغ للتركيز على كسّهن - ناهيك عن أنه ليس لديهن أصحاب. لهذا السبب تُثيرين غضبهن».

«لكنني أريد أنْ يكون لديهن أصحاب».

«كذلك أنا أريد، لكنَّ الأمر أعقد من مجرّد التمنّي. إنكِ تُخبرينهن عن مدى أهميّة طاقتهن الجنسيّة، ومدى روعة كسّهن - وهذا كله صحيح - فيذهبن إلى المنزل مع أدواتهن الهزّازة أو أصدقائهن الخُرق. وطبعاً هنّ يحتقرنك. الأمر مُحزن حقاً. إنهن يرغبن في أنْ تحدث لهن الرعشات الجنسيّة التي تصفينها، الرعشات التي تستطيعين أنْ تحصلي عليها - لكنهنّ جائعات. إنهنّ أشبه بطفل جائع يضغط أنفه على زجاج نافذة محل بيع معجنات لذيذة. كيف يمكنكِ أنْ تغوي جائعاً بالتُخمة؟».

«طبعاً أنا أعلم هذا، يا فانيسا، لكنني أريد أنْ أُغيِّره».

«إذن اجلبي لهنّ عُشّاقاً متخصِّصين يستطيعون أنْ يوقظوهن».

أقول «ليتني أستطيع».

«وهذه مشكلة – فما إنْ تعرفي طاقتك، حتى تتوقي إلى إنجازها».

وتذكّرتُ فجأة حياتي الجنسيّة المتوقفة. أنا أعلم ماذا في مقدوري أنْ أفعل وأعلم أنَّ ناديا وصفته – ولكن ما أصعب العثور عليه، خاصة مع زوجٍ عجوز. زوج عجوز ومريض. ها هي. لقد قُلْتُها.

تقول ناديا «أعلم. أنتِ تُثيرين قلقي». لكنَّ ناديا لا تعلم بعد. ناديا لا تعرف حتى نصفها. لا أحد يعرف إلا حين يصل إلى تلك النقطة – الزوج المريض، الافتقار إلى الممارسات الجنسيّة الحرّة، أو حتى الممارسات الجنسية المُقيَّدة. ناهيك عن وهم «المرأة السعيدة في زواجها» بممارسة الجنس في علاقة جانبيّة.

كيف يمكن ممارسة جنس حرّ «في علاقة جانبية»؟ فعندما يكون الجنس رائعاً هكذا، فإنه يستغرق حياتك كلّها، ومُخيّلتك، وأحلامك. سوف تطيرين إلى أي مكان لممارسته، تُبحرين بقاربك عبر البحر المتوسط، وتطلبين من قِردة متن القارب أنْ يربطوك إلى الصاري قبل أنْ تقفزي إليه من جديد. إنه قوّة الحياة، النار التي تنبعث من العورة والسُرَّة، ومن السُرَّة إلى القلب، ومن القلب إلى المخّ. إنه كل شيء – خاصة الإبداع. وأنا أفتقده. وأفتقده أكثر لأنني أتذكَّر أنني كنت أمارسه.

أقول «صربتُ أقلق مؤخراً».

سرتُ إلى المنزل بعد انتهاء لقائي بناديا، أفكِّرُ في كل الذين حاولوا أنْ يُغيّروا قَدَر النساء عبر القرون وكم من مرة عادتْ الأشياء إلى ما كانت عليه في الماضي. هل كانت النساء أسوأ أعدائهم؟ هل سمحنا لأنفسنا بأنْ نحسد نساء أخريات إلى درجة الضرر بتقدّمنا؟ أمْ أنَّ الإناث الشابّات كنَّ شديدات القلق بشأن تخصيب بيوضهن حتى أنهنّ نسين أمر تحررهن؟ لا يمكن أنْ تنسي التحرُّر. يجب أنْ تقاتلي إلى الأبد.

أعتقد أنَّ ألدوس هكسلي كان على صواب بشأن التكاثُر في رواية

«عالم جديد وشجاع». فنحن لن نتمكّن من تحقيق المُساواة إلا بعد أنْ «نجمع» الحيوانات المنوية والبويضات كلاً على حِدة من الشركاء. لقد كان الرجال مُغالين في محلّيتهم وفي عنفهم. ولكن افصلي التكاثُر عن العلاقات الإنسانيّة وقد تحظين بفرصة.

كلنا يجب أنْ نفقس من البيضة. بعد ذلك نستطيع أنْ نختار آباءنا المُفضّلين بدل أنْ نعلَق مع آخرين وُلِدنا منهم. سوف نصنع «عائلات مُختارة». هل كنتُ سأختار أمي الخاصة؟ أشكُّ. لكنني كنتُ ربما سأختار والدي – آه، يا لأبي المسكين الميّت. كم أشتاق إليه! لقد كنتُ الأثيرة لديه وأخواتي لا يتركنني أنسى هذا.

إنَّ الحسد هو الذي أفسد عالم النساء. وطبعاً، الرجال أيضاً كانوا حسودين، لكنهم كانوا يعلمون أنَّ عليهم أنْ يقتلُ أحدهم الآخر إلى أنْ يتوصّلوا إلى نظام هَرَمي قابل للتطبيق. ثم يسقطون في مواقعهم المُحدَّدة – أو المُكرَّسة – على الأقلّ إلى أنْ يبدأ الذَّكَر الممتاز بالفشل. نحن معشر النساء لم نكن نعرف حقاً كيف نفعل هذا. لقد تظاهرنا بأننا لا نؤمن بالأنظمة الهَرَميّة، لكي يكنَّ أخوات في الظاهر – إلى أنْ ينفجر الجحيم. لقد كان نظاماً ناقصاً لتحقيق الاستقرار. من الأفضل أنْ نفقس ضمن نظام معيَّن والالتزام به. نعم، كنتُ أُصبحُ متشائمة متطرّفة. مَنْ الذي قال، «إنَّ كل مَنْ لم يبغض البشر مع بلوغه سن الأربعين لا يمكن أنْ يكون قد أحبَّ الإنسانيّة»؟ تلك كانت أنا. قانطة، مُشوَّشة، مُكتئبة.

من بين كل الأمراض التي ورثناها، الكآبة هي الأسوأ. عندما تنظرين إلى خفّك في الصباح ولا تصدقين أنّه يستحق أنْ تنتعليه كأنكِ تستيقظين وتجدين نفسك في أغوار الموت. وعدم رغبتك في أخذ دش وارتداء ملابسك لأنكِ شاهدتِ كل شيء، وعرفتِ كل شيء، ولم تعودي تهتمين هو عذاب يفوق كل الكوابيس. لقد ذهبتُ إلى ذلك المكان المُظلِم. ولا أريد أنْ أقع في ذلك الفخ من جديد. من قبل كان الجنس هو الذي يُنقذني – الجنس والوقوع في أحضان الحب. فما الذي يمكن

أنْ يُخرِجني من هناك الآن؟ موقع Zipless.com؟ أتمنى. أكاد لا أستطيع التفكير في ذلك الموقع من غير أنْ أشعر بالامتنان لوجود آشر في حياتي. شكراً للإلهة لأنه لم يكتشف هذا أبداً.

***

في طريق عودتي إلى المنزل، توقّفْتُ داخل محلٍّ راقٍ لبيع الأطعمة المُعلّبة حيث يمكن للطعام أنْ يُثمَّن بالذهب الخالص. كانت الساعة هي الثالثة من بعد الظهر وعلى الطاولات التي لم يكد يشغلها أحد جلستْ نساء طاعنات في السن – في مثل سن أمي تقريباً. كلّهن يتكلّمن لغات مختلفة – روسيّة، بولنديّة، برتغاليّة. ويأكلنَ باستمتاع وحيويّة شبه تَوراتِيَّين. إنَّ الاستمتاع بالأكل يبقى حتى أرذل العمر – هذا إنْ بقيَ شيء. وكل تلك السيدات كنّ حيزبونات – أفكاك وأنوف بارزة، وعيون غائرة داخل عِظام المَحاجر، وظهور محدودبة وأكتاف ترتفع إلى أعلى وهن يجرفن الطعام. في الغالب يعتمرن قبعات بالية أصبحت عتيقة الطراز منذ سنين عديدة.

إلى هنا سوف يؤول مشوارنا جميعاً – بعمليات تجميل أو من غيرها، بعمليات شدّ أو من غيرها. سوف نُصبح جميعاً حيزبونات ذات يوم – ربما هذا هو موضوع مسرحيّتي؟ إنَّ مُعظمنا سوف نُصبح وحيدات، البعض مع صديقات عجائز تقاسمنا معهن لغةً إذا لم أقُل ثقة كاملة. كنا جميعاً ننحدر على طول ذلك الدرب الملتوي المؤدي إلى تعرفين –أين. سوف نكسر عصينا ونحرق كتبنا حالما تتزوج بناتنا ويرحلن ويُصبحن أمهات. كنا كلنا إما سيكوراكس[38] أو بروسبيرا[39] أو حتى غيا[40]. ماذا كان لدينا نخشاه؟ لا شيء. لا شيء. عدم.

---

38 – سيكوراكس: شخصية خفيّة في مسرحية شكسبير «*العاصفة*». هي ساحرة قوية وشريرة – المترجم.

39 – بروسبيرا: تقصد الكاتبة النسخة النسائية من شخصية شكسبير بروسبيرو في مسرحية «*العاصفة*»، الملك العادل الذي ظلمه إخوته – المترجم.

40 – غيا: في الأساطير الإغريقيّة، رمز للأرض ومصدر كل حياة – المترجم.

رنَّ هاتفي رنيناً خافتاً. هناك بعض الصفحات تصفُ السفر إلى الفضاء الخارجي. في أول الأمر، حسبتُ أنَّها رسالة من أحد المُتيّمين – ولكن لا، هذه الصفحات تبدو من إيزادورا:

«تجوّلنا خلال الامتداد اللا متناهي للنجوم. في السماء الظلماء شاهدنا أضواء برّاقة – بعضها أزرق، وبعضها أصفر، وبعضها ذهبيَّة. تعوّدنا على هذه الرحلة وبعد عدد من الأشهر لم نعد نتساءل: ألم نصل بعد؟». الأوديسة استمرتْ أسابيع، وسنين، وزمن غير محدود. وُلِدَ أطفال. ومات أجداد وجدّات. ووُلِد المزيد من الأطفال. لم نسأل إنْ كان الأطفال صبياناً أم بنات. بدا السؤال بلا معنى. كل ما اهتممنا به كان الرحلة اللا متناهية. وكأننا كلنا تحولنا إلى أوديسات وكان مُقدّراً لنا أنْ نسافر إلى الأبد بينما الآلهة فوقنا تُراهن على مستقبلنا.

كانت أثينا هناك وأفروديت. زيوس كان يلعب النرد مع الكون. وهرمز، رسول الآلهة، طار بصندله المُجنَّح من مجرّة إلى مجرّة، جالباً رسائل من الآلهة إلى البشر. بدا كأنَّ الزمن قد اختفى. على أي حال، الزمن وهْم، كما الموت. وأخيراً، هبطنا على كوكب سيّار. غادرنا سفينتنا ونزلنا على سيقان البحر المرتعشة.

ماذا كان ذلك الكوكب؟ هو أحمر بلون الصدأ وحجارته ضخمة زرقاء تتخلَّلُها عروق الذهب. الفضاء غنيّ بالأكسجين حتى أننا لم نتمكن من المشي بل من الجري. قفزنا. شَعَرْنا كأننا شخصيات من إحدى الأساطير، نمشي في الهواء.

كان علينا أنْ نُثير شيئاً غريباً، لكننا كنا مُبتهجين بمنزلنا الجديد. لا بدّ أنَّ الهواء أيضاً كان مُفعماً بمادة دفعتنا جميعاً إلى الضحك وغنَّينا في وقت واحد. غنَّينا، وغنَّينا، وغنَّينا. إذا كان في استطاعتك أنْ تغني، فسوف تعلم أنَّ مشاكلك ليست عصيّة على الحلّ.

عمَّ كانت إيزادورا تكتب؟ عن عالم جديد تختفي منه مشاكل البشر؟ تابعتُ القراءة وتابعت وتابعت، مفكِّرةً: «إنَّ صديقتي الحميمة طارت إلى الفضاء!»، ومن ثم أغلقتُ الهاتف وطلبتُ الطعام.

اشتريتُ قطعة كبيرة من فطيرة لحم البط وسلطة إسبانيّة من أجل آشر، لعِلمي أنه يُحبّها. وقد أسعدني أنْ أجعله ينتظر في المنزل، لأنني أعلم أنَّ هذا لن يتكرَّر. كان إطعام الرجال والأطفال شيئاً يُسعدني جداً، خاصة عندما علِمنا أننا ذات يوم لن نُطعِم إلا أنفسنا. وكل الروتين اليومي الذي لطالما اشتكينا منه أصبح الآن حقيقة مؤكَّدة في الحياة.

رنَّ هاتفي بإلحاح. الرجل ذو بذلة الجنس المطاطيّة يرفض الاستسلام، لن يستسلم، لم يستسلم. إنَّ امتناعي عن الاستجابة يُثيره جنسياً.

سأل «هل أنت سعيدة في حياتك الزوجيّة؟».

كتبت الرد «نعم». بصورة ما، كنتُ أعلم أنَّ هذا صحيح.

إلهتي العزيزة، كيف حصل وفهم جيلي قضيّة المرأة خطأً؟ نعم، كنا في حاجة إلى تغيير العادات والقانون. نعم، كنا في حاجة إلى بيتي وغلوريا وجيرمين وأندريا وشولاميت وأليكس وإريكا ونورا والفتيات القائدات في بيركلي اللواتي أنقذن إيما غولدمان من خمول ذِكر لا تستحقه. كم كانت امرأة عظيمة لأنها علِمتْ أنَّ الثورة الحقيقيّة تتضمّن أيضاً الرقصّ! وهل تخلّتْ عن ممارسة الجنس مع الرجال؟ أبداً!

إلى أي مدى تُخطئ الحوارات. كيف كنا سنستثني آباءنا وأجدادنا وإخوتنا وأبناءنا وأزواجنا - كلهم - المعلّمين والأصحاب؟ نحن لم نقفز كاملي النموّ من بيضة الزمن. لدينا مُعلِّمون وعشّاق وشركاء حياة وأصحاب يؤمنون بنا. حتى أنا، وأنا أمشي بخُطى متعثِّرة خلف فتيات القيادة العظيمات بحذاء رياضة التنس، كان لديّ رجال كانوا مُعلّمين مُحبّين. لقد أحبّ ليب تمثيلي، وكتابتي، وذكائي. ووالدي وجدّي

عبداني، حاولا أنْ يُعلّماني كل ما عرفته عن الحياة والحب والمال. أدركتُ أنَّ السرّ الحقيقيّ للثقة في النفس هو حب والدك وجدّك لك.

هل خطؤهم أنّه استغرقَ مني وقتاً طويلاً أنْ أنمو؟ أبداً. لقد قدّموا لي حَب الرمّان على طبق من ذهب ورفضتُ أنْ آكله، مُعتقدة أنني أعرف أفضل.

والآن، والموت يكتنفني من كل جانب - وما زلتُ أرقص، مع ذلك - أعلمُ أنني خُلِقتُ لأهبَ الحياة والفن وأنَّ كليهما على قدر متساوٍ من الأهميّة.

ولو أنَّهم يُقدّمون لي حَبّ الرمان الآن، لأكلته وخبأتُ الطبق الذهبي في صندوق آمن لكي تُذيبه ابنتي عندما تُصبح مُستعدّة!

الجزء الثالث

الربيع

-12-

لعب دور الجدّة

«هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلكم من بعدكم. يُختَنْ منكم كل ذَكر. فتُختنون في لحم غُرْلَتِكم. وتكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يُختَن منكم كل ذَكر في أجيالكم. وليد بيتك والمُبتاع بفضّةٍ من كل ابن غريب ليس من نسلك. يُختَن ختاناً وليد بيتك والمُبتاع بفضّتك. فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً. وأما الذكر الأغلف الذي لا يُختَن في لحم غُرْلَتِهِ فتُقطَع تلك النفس شعبها. إنه قد نكثَ عهدي».

• **التوراة**، *سفر التكوين* / 17: 14-10

زعقَ هاتفي الخليويّ. إنها غليندا.

قالت ابنتي «ماما – جاءني المخاض. قابليني في المستشفى».

وهكذا انطلقتُ من جديد إلى ذلك المكان الذي تبدأ فيه وتنتهي العديد من دروب الحياة. وهذه المرة حدث في مستشفى جبل سيناء، حيث جناح الأمهات مملوء باليهود التقليديين بقبعاتهم عتيقة الطراز والشعر المُستعار من آخر طراز.

في طريقي إلى هناك اتصلتُ بإيزادورا.

قالت «أنت جدَّة غير مُقنِعة على الإطلاق. تبدين أصغر سنّاً بكثير من ذلك».

كانت غلينداً في غرفة المخاض تتنفّس مع زوجها، سام، الذي بدا شاحباً ومذعوراً. تذكّرتُ قبائل تجعل الأزواج يخوضون في مياه البحر مع أقرانهم من الرجال عندما تكون زوجاتهم في حالة مخاض. تبدو خطّة أفضل من انتظارنا الموحِش في المستشفى. ماذا في وسع الرجل أنْ يفعل من أجل زوجته في مثل ذلك الوقت؟ والذي كان زوجي حينئذٍ، والد غلينداً، رالف، المعروف باسم رومي، أخذ يُصورني بالفيديو وأنا أعاني بالمخاض وفي ذلك الوقت بدا هذا أشدّ بذاءة من أي فيلم إباحيّ. إكراماً لله، قُمْ بعمل مفيد – كأنْ تحاول ألا تغرق. إنَّ الأزواج لم يُخلقوا ليكونوا قابلات. فذلك يُسبب لهم الاضطراب.

أنا أحبّ أنْ أحبل، ولكن سوف يُسعدني أنْ أُلغي كامل عمليّة الإنجاب. ولو كان في وسعي أنْ أحبل بهدوء كما فعلت نساء حقبة ثلاثينيات القرن الماضي، لما اهتممت. ولكن في أيامي، كانت هناك دعاية واسعة «للولادة الطبيعيّة». وفي اعتقادي، لا شيء طبيعياً في عملية الإنجاب – بل الموت هو كذلك. قبل الطب الحديث، كانت الأمهات والأطفال يموتون كالذباب – وما زال هذا هو الحال في الكثير من أرجاء العالم. إنَّ الشيء الوحيد الذي علَّمني إياه الإنجاب هو عدم إظهار الطبيعة بصورة رومانسيّة. إنَّ الطبيعة المتعطشة إلى الدماء والساعية إلى إبادة كل ما هو ضعيف، ليستْ عظيمة كثيراً. لقد أشرفتُ على الموت وأنا أحاول أنْ أُنجب غلينداً «بطريقة طبيعيّة» – بذلتُ فيه من ناحيتي جهداً وهمياً. استمرت عملية الولادة تسع ساعات (بدتْ كأنها تسعون) قبل أنْ أستسلم وأخضع لعمليّة قيصريّة – ربما اعتبرتها جماعة الدفاع عن حقوق المرأة خطوة انهزاميّة. ولكن شكراً للإلهة على العمليّة القيصرية.

للأسف، قُدِّرَ لغلينداً أنْ تُكرر هذا النمط – بما أنَّ عنق الرحم عندنا

نحن الاثنتان لا يتمدَّد بيسر. ولكن هي على الأقل حصلتْ على العمليّة القيصريّة بسرعة. وليس سريعاً جداً بالنسبة إلى أمها التي تغالي في التطابُق.

ولكن عندما ظهر الطفل، متدثّراً بقلنسوته مُخططة باللونين الورديّ والأزرق، مُقمَّطاً بالأغطية التي تلقّفته، مُغمَض العينين، أحمر الوجه، مُجعّداً، وجدناه أروع مخلوق وقعت عليه عيوننا. كان وزنه يبلغ حوالي تسعة أرطال، ونجح بتفوُّق في اختبارات المواليد الجُدُد، وكان جلياً أنه عبقريّ. اتفقت غليندا وسام على تسميته ليوناردو تيمّناً بدافنشي. ونحن سمّيناه ليو.

لقد اختَزَلَنا إلى مرتبة الحمقى المبتسمين بتكلُّف، نبحث عن مواطن التشابه مع أفراد العائلة في هذا المخلوق الجديد الذي بدا مُشابهاً لكل طفل آخر. ورأينا فيه المستقبل – وهو شيء لم نؤمن به منذ وقت طويل. أبدينا إعجابنا بيديه وبقدميه المثاليّة، وببكائه العالي، وبرفسه الصغير المُحبّب. وها هو مخلوق مثاليّ اشتركنا كلنا في صُنعه.

طفل! وسوف يستمر الجنس البشري على الرغم من أخطائنا الحمقاء كلها – ناهيك عن قادتنا السياسيين. ماذا يوجد في الأطفال؟ لقد خُلِقنا لكي نتدلّه بحُبِّ أقدامهم، وعيونهم الواسعة، وهديلهم، وغمغمتهم، وقيئهم، وبولهم، ورائحة برازهم العذبة. على الأقلّ هذا رأيي. لقد اختزلني ليو إلى جوهريّ الأوّليّ كأم. لقد كنتُ الأم الرئيسة، المستعدّة لوهب كل ما أمتلك لهذه الأرطال التسعة الرائعة من الأمل.

أما غليندا، فكانت فرحة برواية وإعادة رواية قصة إنجابها – ومع كل إعادة تزخرفها. وأصبحت عملية إنجابها تطول وتطول، وتزداد أكثر فأكثر دمائها المسفوحة، وتزداد عظمة بطولتها.

لن أستطيع أنْ أتفوق على هذا. إنَّ عظمة الأمهات هي التي تُدير العالم. ولا نستطيع أنْ نفيها حقّها. ولا نفعل.

ذات مرة أخبرتني صديقة أنكِ قبل أنْ تقومي بزيارة أحفادك، تفرحين أكثر من فرحك وأنت ذاهبة لمُلاقاة حبيبك. في الغالب هذا صحيح. إنَّ

تركيزك ينتقل بطريقة حاسمة. إنَّ عشّاقك كلهم يُصبحون باهتين أمام هذه الكتلة الملتوية الصغيرة من الأمل. إنه المستقبل! وأنتِ أصبحتِ توّاً جزءاً منه – على الرغم من أنَّ هذا ليس خَطَأَكِ!

حتى الأطفال الموتى الذين يظهرون في التلفزيون يُصبحون حقيقيين بالنسبة إليك بطريقة موجِعة – أطفال تقتلهم طائرات مروحيّة، وألغام أرضيّة، وزلازل، ويُصبح المُختطِفون هم أولادك. لقد كنتِ امرأةً مُدخّنة أما الآن فأصبحتِ جدّة مُدخّنة وأطفال العالم كلهم هم أطفالك. ليتنا نستطيع أنْ ننظّم صفوف جدّات العالم كلهن – قد ننجح. لعلَّ الجدّات هن النساء الوحيدات في العالم اللواتي يفهمن المكان المناسب للرجال. يجب أنْ نتّحد لتغيير العالم! لقد أعاد عالمُ الجدّات الأمل.

أرفع ليو، أستنشق رائحته كوليد حديث العهد المُثيرة للشهيّة، فأنتقل إلى أرض الأطفال – أرض التناغُم حيث يرِدُ النوم بسهولة، ويتدفّق الحليب غزيراً كالدموع، وكل شيء على أحسن ما يُرام. تقول كلمات أغنية قديمة تصدح في ذاكرتي «كم ميل يفصلنا عن أرض الأطفال؟». من أين أتتْ؟ كانت ضائعة في الذاكرة المفقودة للطفولة المُبكّرة. ليت في استطاعتي أنْ أعود وأقتفي آثار نُتفٍ من الذاكرة.

ما استعدته من الماضي كان طفولة غلينداً – كيف حدّقتُ مُطوّلاً إليها، أرى الكمال مُجسّداً في كل إصبع يد، وإصبع قدم، وكم أحببتُ العناية بها، والإصغاء إلى قرقعة بطنها، وتعبها وأنا أنقلها من ثدي إلى آخر؛ وابتهاجي الكامل بما أطلقتْ عليه إحدى صديقاتي «مرحلة أنبوب الحياة». تدخل من فتحة وتخرج من أخرى – ما أبسط هذا وكم هو بدائيّ! كان مُريحاً أكثر بكثير من جلسة الاستماع أو انتظار النقّاد. إنكِ تحصلين على النقد في التوّ واللحظة – وكان جيداً.

لكنَّ غلينداً كرهت الإرضاع من ثديها – ربما لأنَّ الإعلانات كثيرة عنه.

وزادت أختي أنتونيا الطين بِلَّة بدخولها وإعلانها: «فقط تظاهري بأنكِ قردة».

قالت غلينداً «لكنني لستُ قردة. أحقاً تُحبّين هذا؟».

كنتُ أعلم أنني لو قلتُ إنه يُعجبني، فسوف تصرّ أكثر على ألا تُرضعه من ثدييها. لذلك لم أقُل شيئاً. إنَّ عدم قول أي شيء هو حِكمة الجدّات العميقة. اخرسي، أيتها الجدّة، لا يمكن أنْ يقبل أولادك أنك تعرفين *أي شيء!*

لقد أحببتُ حبّاً جمّاً الإرضاع من الثديين على مدى ستة أشهر أو نحوها – تلك المرحلة الأساسيّة من الوجود، الإرضاع والتبرّز اللذان يستهلكان حياة معظم المخلوقات الحيّة. وبكيتُ عندما بدأتْ تفطم نفسها بنفسها لأنها كانت طفلة كبيرة وبدأتْ تتناول طعاماً حقيقياً. ثم، بعد مُضيّ ستة أشهر أو نحوها، وتبدئين تشعرين بأنك واقعة في فخ جدول حياة الطفلة، ويتوجَّب تنفيذ ضخ الحليب باليد بالاستعانة بأنابيب صغيرة من البلاستيك. ومع ذلك، ولا يمكن أنْ أنسى الإرضاع من الثدي أبداً. لقد كانت طريقة شديدة البساطة لمعرفة حاجات مَنْ نُحبّ ونلبّيها. كانت طريقة حسّيّة بالنسبة إليّ، ومُثيرة ووافية في وقت واحد.

كانت الأمومة المتناغمة مع البيئة رائجة مع جيل غلينداً. كان من المُفترَض أنْ تنامي مع طفلتك، أنْ تحملي طفلتك بطرف عصا، وأنْ تستخدمي القماط القماشي، وإطعام طفلتك بالطعام المُعالَج. وقد تحوّلتْ الأمومة إلى عمل بدوام ونصف كسلوك متمرِّد على جيلي المُناصِر للمرأة. لقد شعرت النساء الشابات بتفوُّق حتى الجنون على أمهاتهن بسبب تلك العصا، والطعام المُعالَج، والنوم المشترك، والمراقبة الصارمة للدكتور وأسلوب الممرضة سير في العناية بالطفلة. الآن أصبحت الأمومة – التي تحولتْ إلى عمل على مدار ساعات النهار – عملاً بدوام ست وثلاثين ساعة في اليوم، والأمهات فخورات بشراسة بهذا.

لطالما آمنتُ بحاضنات الأطفال على الرغم من أنّهن في الغالب غريبات الأطوار والتعامُل معهن صعب، وهكذا تكفلتُ بدفع أجر حاضنة أطفال. كان اسمها دروسيلا. وكانت ذات شخصيّة قياديّة من بيليز[41] تعرفُ كل شيء ولا تدعك تنسى هذا.

إنَّ حاضنات الأطفال يكرهن الأمهات اللواتي يعتنين بالأطفال. وهذا حلَّ مشكلة كره غليندا للعناية بطفلها. فقد جفَّ حليب ثديها وكان ذلك الحلّ بالنسبة إلى غليندا خلاصاً جيداً.

لم أكنْ سأستمر في الاستمتاع بالأمر. وأعتقد أنَّ كل أم يجب أنْ تعثُر على طريقها بنفسها لتكون أُماً، وأنَّ لا فائدة من إعطاء النصائح حول الأمومة. وصعب جداً أنْ تكوني أمّاً من غير أنْ يكون بين يديك كتاب أو إرشادات تتبعينها. ولكنْ كم من كلام انتشرَ حول الإرضاع من الثدي وأساليب الأمومة الحديثة! إنَّ التنافُس يُحتدم بين النساء عندما يتعلّق الأمر بالأثداء! وكأننا اخترعناها مؤخّراً.

أنا أعرف كم هو مفيد أنْ تكتشفي فجأة حِكمة الجسد بعد أنْ تقضي معظم حياتك تنكرينه وتُنكرين ذكاءه اللا محدود.

لكنَّ ما يتّصل بالإرضاع من الثدي يمكن مُقارنته بما حدث بعد ذلك بثمانية أيام – الختان. الختان، أو الـ Brit Milah أو ميثاق الختان. أو كما أرغب في أنْ أفكّر فيه: «في المرة التالية، يا فتى، سوف ننتزعه كله!»، مَنْ كان يُصدِّق أنني سوف أتجول في أرجاء شقّتي بحثاً عن مرهم مُخدِّر لكي ندهن به قضيبه الصغير الظريف بينما ابنتي تُحرِّم عليّ الاقترابَ من ابنها!

وكما فهمتِ، فإنَّ عمليّة الختان تمّتْ في منزلي. وقد تحمّس آشر لاستضافتها. وانتظر أصدقاؤنا وأصدقاء غليندا وسام لمشاهدة شعيرة الأضحية العريقة. ويُخبرني حبيبي الطبيب النفسي أنَّ ذلك كله خطأ – ولكن لا يهم. إنها تؤمن بعمليّة الختان – وعديد من الناس الآخرين أيضاً.

41 – بيليز: دولة صغيرة جداً في أميركا الوسطى، كانت مستعمرة بريطانية تحت اسم هندوراس البريطانيّة حتى استقلّت عام 1981 وانضمت إلى دول الكومونويلث – المترجم.

كان الخاتن من المركز اليهودي الأساسي. كان ذا صوت مهيب رنّان، وشعر أسود كثيف ومُجعّد، وعينين حزينتين تحكي حكاية اليهودي التائه، وكان طوال الوقت يُلقي نكاتاً. ذكّرني بنكتة قديمة عن الخاتنين.

ماذا يضع الخاتن في نافذته؟
شجرة قزمة
ولماذا شجرة قزمة؟
أي شيء آخر يمكن لخاتن أنْ يضع في نافذته؟

كانت عملية ختان أول حفيد لي بمثابة الكشف بالنسبة إليّ.

هل تساءلتِ مرّة عن السبب في أنَّ الشبّان اليهود فاشلون جداً في ممارسة الجنس؟ هل تساءلت عن السبب في ولعهم بعارضات الأزياء ممشوقات القامة من سلوفينيا اللواتي يضعن تلك الصلبان الذهبيّة الكبيرة؟ هل تساءلتَ لماذا يقع الشبان اليهود في حب فتيات صينيّات أو مُشجّعات غير يهوديات شقراوات من كنساس أو من عارضات أزياء سوداوات ظريفات يرقصن مثل بيونسيه؟

والسبب بوضوح هو الميثاق مع يهوه أو الله. ***إنني آخذ هذه القطعة من قضيبك، بينما أمك، وأبوك، وجدّك، وجدّتك، يراقبون، مبتهجين. وأنت لا تفكّر إلا في قضيبك حتى آخر حياتك!***

طبعاً معظم الرجال لا يفكرون إلا في قضبانهم طوال معظم حياتهم. أما الرجال اليهود فيفعلون هذا بصورة أفضل - أو أسوأ، وِفقاً لوجهة نظرك.

أتعتقدين أنَّ ختان الإناث أمر سيئ؟ (إنه شنيع، مُدمِّر للصحة وفظيع - وتُسبّبه النساء لنساء أُخريات). لكنَّ النساء على الأقلّ لديهن أشياء أخرى يُفكّرن فيها غير كسّهن - كالأطفال، والسياسة، والتمثيل. على

الأقلّ النساء لا يُركّزنَ دون توقُّف على فروجهن (أو كما تقول أوبرا[42]، على فراريجهن). إنَّ الرجال يفكّرون في قضبانهم طوال حياتهم. لا تُخطئي في فهمي، إنهم يفكرون فيهم سواء أكانوا مختونين أم لا. لكنَّ عملية الختان تجعلها تبرز على مستوى آخر تماماً.

فلتذهب الأسباب الصحّيّة إلى جهنم. إنهم يفكرون في صحّة العجائز العنينين، وليس فيكَ، أيها الفتى الصغير. يمكنكَ أنْ تعتني بنفسك وتتطهَّر وتغتسل. نحن لم نعُد نعيش في الصحراء. أصبح لدينا حمامات الجاكوزي والبخار ومغاطس خشب الجبّارة الأحمر من كاليفورنيا - أو كاليفورنيت، كما أسميها دائماً، حتى قبل ظهور العروض التلفزيونيّة.

كلا، أيها الناس، إنَّ العجائز هم الذين يُحبّون هذه الشعيرة. الأمهات في المعتاد يهربن إلى الغرفة أخرى ويبكين. لكنّهنّ يُلَمْنَ عليه على أية حال. والنساء اليهوديات يَنَلْنَ القسم الأكبر من ذلك اللوم إلى الأبد. إمّا أنْ يتزوج الشبان اليهود الظرفاء منكن ويعبثوا مع ديانا روس أو بيونسيه أو ناعومي كامبل - أو يتزوّجوا من ساندرا أوه أو من ليسا لينغ أو يوكو أونو أو من مهتديات.

في الزمن الماضي، كانت أمك تُهدّد بالانتحار. والآن أصبحنا نحن أكثر ليبراليّة، لذلك أصبحت أمك تعانق الآنسة هنغ، والآنسة يونغ، والآنسة أونو، والآنسة ليو، والآنسة هو، والآنسة لو، والآنسة تشو، والآنسة تشوي، والآنسة لوي. واعلمي أنَّ الصبي الصغير التالي سوف يمرّ بهذا على أي حال!

في أيام شباب والديّ، كان هناك عرضٌ مسرحي طويل يحكي عن فتى يهوديّ يتدلّه في حب فتاة أيرلنديّة. ويُدعى «وردة آبي الأيرلنديّة». كانت تلك ثمرة مُحرَّمة في عشرينيات، وثلاثينيات القرن الماضي في نيويورك. فإذا أردتِ تحديثه لسمّيته «***زهرة آبي اللوتوس الصينيّة*** أو ***توتسي المُعالج الجنسي***». وسوف تكون الفكرة هي نفسها: فتى يهودي

42 - أوبرا وينفري.

لامع يهرب من أمّه إلى الهند أو الصين أو اليابان. (ويمكنك أنْ تعثري على الهند، وإفريقيا، والصين هنا في مدينة نيويورك. دون حتى أنْ تضطري إلى أنْ تستقلّي طائرة). الآن أصبحت الزيجات مختلطة بصورة روتينيّة. وهذا أمر عظيم من أجل الجينات كلها على اختلافها إذا لم نقُل من أجل الأمهات اليهوديّات.

حسنٌ. سمِّني مُعادية للساميّة (في سرّي أنا مؤيّدة للساميّة). ولكنْ لديّ هواجس حول الختان. وقد قابلتُ (وتزوجتُ) من العديد من اليهود. الـ alter kockers (أو بعبارة أرقّ «الضراط العجوز») لديهم كل التفاسير التي تحت الشمس. والتفاسير، قبل كل شيء، هي كل ما في استطاعة الـ alter kockers أنْ يفعلوه. الختان صحيّ، كما يدّعون. إنه يمنع الإصابة بالسَّيَلان. إنك لن تُصاب بتلك الفيروسات البغيضة المنتشرة هذه الأيام، معاذ الله. (أعتقد أنّه تحذير سرّي من المثليّة الجنسيّة). ولكن كيف يمكن بأي حال نسيان الألم، والخوف، وفوضى كون عمرك لا يتجاوز الثمانية أيام ومع ذلك يُقطَع جزء من قضيبك؟

يقول الـ alter kockers «إنهم لا يتذكّرون» – وهم لا يتذكّرون أنَّ الـ alter kockers تعني حقاً «الخَرَوات العجائز».

تقول الجدّات «إنهم لا يشعرون به».

ويقول الآباء «لقد فعلناه في المستشفى».

تقول أمي (التي كانت في الغرفة المجاورة تبكي بحُرقة) «إنه لا يشعر بأي شيء».

وها هو الخاتن قد وصل، بلحيته، ولفاح الصلاة، والقلنسوة، والنبيذ الأحمر وضمادات الشاش، ومقصّه اللامع ونكاته القديمة. في الحقيقة إنَّ بعض الخاتنين يمتصون القلفة المقطوعة من الطفل ويُسمون ذلك تصرّفاً أرثودوكسيّاً. (ولكن كل ديانة مُنظَّمة تفعل شيئاً سخيفاً – أعطني روحانيّة غير مُنظَّمة في أي يوم. على الأقلّ حينئذٍ تستطيع أنْ تختار شعائرك السخيفة الخاصة بك).

إنْ كان هذا ميثاقاً معقوداً مع الله، إذن الله ساديّ. لكننا نعلم هذا أصلاً. إنه ينحدر من سلالة بعل[43] على غرار كل الآلهة القديمة الخسيسة الأخرى. وهذا لا يعني أنَّ الآلهة أفضل. تذكّر قبل كل شيء كالي[44]، بقلادتها المصنوعة من الجماجم. إنَّ الحياة والموت دائماً متقاربان كتوأم.

حتى يسوع خُتِنَ، وعديدون يدّعون أنَّ يسوع كان عفيفاً - بعد أنْ أنزل مرتبة مريم المجدليّة من مُريدة إلى عاهرة، من زوجة إلى خليلة، من امرأة حكيمة إلى مومس. لكنني أبداً لم أصدِّق هذه النسخة من القصّة. والآن من المُفترَض أنَّ لدينا برهاناً مكتوباً على أنَّ يسوع ربما كان قد تزوج - وربما من امرأة تشبه أمّه، تلك المريم الأخرى.

في عهد أقدم من المسيحيّة - الذي عاصره يسوع اليهوديّ - كانت النساء مُحترمات بسبب حكمتهن وروحانيتهن. لكنَّ ذلك لم يُناسِب القديس بولس، ولا الرؤيويّ القديس يوحنا (الذي كان يتعاطى المخدرات في جزيرة باتموس[45]، حيث قمت بزيارة كهفه). عندما كتب عن الفرسان الأربعة والنار المتوهجة في السماء، فربما كان حقّاً مُخدَّراً. ربما كان أولئك الفرسان يمثّلون مشهد الغروب في باتموس كما يراه شخص مُخدَّر لدى خروجه من كهف - أو مشهد الشروق في باتموس - وكلاهما ساحر.

ولكن مهما كان ما يقوله العجائز، فإنَّ الختان يُؤلِم - حتى طفل بعمر ثمانية أيام الذي يتذوّق عندئذٍ للمرة الأولى طعم النبيذ - إنَّ الألم والإدمان على الكحول يسيران يداً بيد ترتدي قفازاً مطاطياً.

يقتلني أنْ أرى حفيدي يُعلَّم هكذا لكي يتعرَّف عليه نازيّو المستقبل. ما خطب شعبي المُختار؟ هل اختُرنا لنتألَّم؟ إنَّ مشاكل اليهود النفسيّة

43 - بعل: أحد آلهة الخصب عند الساميِّين. أحياناً يوصَف به أي إله زائف - المترجم.

44 - كالي، أو سيفا: إلهة الدمار عند الهندوس - المترجم.

45 - باتموس: الجزيرة التي نُفيَ إليها القديس يوحنا، وكتب فيها رؤياه - المترجم.

كلها - بدءاً بسيغموند فرويد وحتى ليني بيرنشتاين[46] وفيليب روث - يجب أنْ تنشأ من هذا الطقس المُريب. أريد أنْ أُخبر حفيدي الحبيب، احرص على ألا تتبوّل أمام أحد أعضاء عصابة سكينْهيد[47]. ولكن بعمره الذي لم يتجاوز الأيام الثمانية، لم يكن يعلم مَنْ هم السكينْهيد!

لا تعلّموه! لا تدعوا الرجال في المرحاض العامّ يعلمون أنه يهوديّ!

هكذا أردتُ أنْ أصرخ، لكنني بدل ذلك ضحكتُ بهستريا على نكات الخاتن كلها.

قال، مُعتقداً أنَّ ضحكي المجنون هو دلالة الاستحسان وليس القلق، «يا لكم من جمهور عظيم!». ومن ثم انطلقَ ليقوم بعملية ختان تالية.

إنني لستُ فقيهة بالديانة اليهوديّة، ولكن هل لي أنْ أُذكّر شعبي المُختار بأنَّ شعائر الختان بدأت مع النبي إبراهيم، الذي كان راغباً، إذا لم أقُلْ إنه كان مسروراً جداً، للتضحية بإسحق إلى أنْ منعه الله واستبدله بحَمَل صغير - أم هل كانت معزاة؟ إنَّ هذا يدفعني إلى الاعتقاد بأنَّ الختان كان بديلاً للأضحية الإنسانيّة. إنَّ تلك الديانات القديمة كانت دموية جداً.

هكذا يُقال.

ولكن بقلفة أو من غير قلفة، أنا أعشـــق ذلك الفتى اليـهودي الصغير المثالي. ومَنْ لا يُحبّه؟

---

46 - ليني بيرنشتاين: ليونارد برنشتاين، المؤلف الموسيقي وقائد الأوركسترا الأميركي اليهودي الشهير. صاحب «*قصة الحيّ الغربي*».

47 - عصابة اسكينْهيد skinheads عصابة من العنصريين البيض الأميركيين - المترجم.

-13-

ثقب الدودة

«أصبحتْ لا تُطيق أي شيء، حتى نفسها. وتمنّتْ لو أنَّ لها جناحين تطير بهما إلى مكان ما، تبتعد إلى مناطق نقيّة، وهناك تعود شابة من جديد».

• غوستاف فلوبير، من «*مدام بوفاري*».

من جديد راودني ذلك الحلم الغريب الذي أتذبذب فيه بين الماضي والمستقبل. ولكن هذه المرة أستيقظُ وأنا أعاني ألماً مُمضّاً. أنا في مكتب محترِف الإجهاض في الشارع السابع والخمسين.

أُخبر الممرضة «هذا ليس مكاني - أنا جَدَّة الآن».

تقول «سوف تكونين بخير. أنتِ فقط مُشوَّشة قليلاً».

«كلا، أنا لستُ كذلك - في أي عام نحن؟ هذا ليس مكاني!».

تقول «هسسسس... أستطيع أنْ أعطيكِ مُسكِّناً للألم».

وتذهب لتُحضر لي أقراصاً وماءً.

رأسي مُضطرب. أردتُ أنْ أعود إلى الزمن الماضي لأكون شابة من

جديد- ولكن ليس لكي أشعر هكذا. ثم، إنني لم اعُد أرغب في العودة بالزمن إلى الخلف. الآن بعد أنْ أصبحتُ جدَّة، أريد أنْ أبقى حيث أنا!

الأقراص بيضاء اللون. الماء فاتر. الممرضة لا تُصغي إليّ.

تقول، وهي تعطيني الأقراص، «سوف تكونين بخير».

«ليس الألم ما أعني، بل أعني أنني في الزمن الخطأ!»

تقول بهدوء «تنفّسي بعمق. إنَّ التمدُّد والتجريف جيدان». وأعطتني حقنة دفعتني إلى النوم.

حلِمتُ بأنني جدَّة ليو في أثناء إجراء ختانه. حلِمتُ بحَبَل غليندا ووضعها. ولكن عندما استيقظتُ، كنتُ لا أزال في نيويورك عندما كنتُ مراهقة – في الشارع السابع والخمسين القديم، بالقرب من قاعة الشاي القديمة. النافذة التي أراها مُعتِمة من السخام والسماء تزداد حلكة. أتعثّر وأنا أنهض وأحدق من الواجهة المُتّسخة بالسخام لمخزن ستاينواي، المحل الاقتصادي الذي يبيع الفرو القديم، والمعلبات الرديئة. كيف أخرجُ من هنا؟ لِمَ رغبتُ أصلاً في أنْ أعود شابة؟

أفكّرُ في كل الأفلام التي تدور حول السفر عبر الزمن التي شاهدتُها والكتب التي تحكي عن السفر عبر الزمن التي قرأتها. الجميع يتحدثون عن العودة إلى الماضي أو بلوغ المستقبل – لا أحد يُخبرك كيف نعود في الزمن! وتظن أنك عائد إلى الأشياء الرائعة أيام الشباب – الحيوية، والوجه الحسن، والطاقة الجنسيّة الفائرة. ماذا لو أنك تعود إلى *أسوأ* الأشياء في شبابك – كهذه؟ ويأتيني صوت أمي، مُعنّفاً: «لماذا تعتقدين أنَّ في استطاعتك أنْ تختاري! أنت دائماً تعتقدين أنَّ في استطاعتك أنْ تختاري! إنَّ بعض الخيارات دائمة، يا فانيسا!».

أُمعنُ النظر من جديد، بحثاً عن محل يُقدِّم قهوة ستاربكس أو محل من هذه الأيام، لكنني لا أجد. والجميع يعتمرون قبعات! لا بدّ أنني في الماضي بما أنه عالم من القبعات. أريد أنْ أعود إلى النوم لأستيقظ وأنا

في شقّة غليندا أرنو إلى حفيدي، ليو. لا أريد أنْ أعيش من جديد فترة مراهقتي الرهيبة!

ثم رأيته – في آخر امتداد محل ستاينواي محل بيع الكتب بيبلومينيا، والذي كان في حقبتيّ الخمسينيات والستينيات مبنى حديثاً، تهدَّمَ الآن، ويقع على الجانب الشماليّ من الشارع السابع والخمسين. وبدأتُ أبكي بكاءً لا سيطرة لي عليه.

هرع الطبيب داخلاً مع زجاجة من الويسكي وكأس طويلة من الكريستال (أتذكرين هذا النوع؟)

«ما الأمر؟ أهو نزيف؟ من الطبيعيّ جداً أنْ تنزفي ويحدث قليل من التقلُّص، وبعض النساء يشعرن بالحزن. لا تقلقي، سرعان ما ستشعرين بتحسُّن. هذا سوف يفيدك» ويصبّ لي مقدار كأس كاملة من الويسكي الدافئ.

أقول وأنا أنشج بالبكاء «أنا لا أشرب الخمر».

«*أنتِ ماذا*؟».

«أنتسب إلى دورة. لا أشرب».

«أية دورة؟».

أوه، يا الله، يجب أنْ أعود في الزمن، لأنَّ لا أحد كان يعلم أمر «الدورة» في ذلك الزمن. وبدأتُ أعوي بطريقة شنيعة. وأجعر.

طبعاً، أُصيبَ الطبيب بالذعر من كل ذلك الضجيج الذي أحدثته. لقد قام بأمر غير شرعي على الإطلاق والآن لا بدّ أنه فعله مع فتاة مجنونة وسوف تُبلّغ عنه.

قال بصرامة «تمدَّدي واسترخي».

وسرعان ما دخلتْ الممرضة وأعطتني حقنة أخرى. أنا واثقة من أنّني انتهيت – انتهتْ حياتي. لقد قرأتُ عن أطباء يُجرون عمليات إجهاض وعرّضوا مريضاتهم للخطر لكيلا يُقبَضَ عليهم مُتلبّسين. وبينما كنتُ أفقدُ وعيي، ركّزتُ على وجه ليو الطفوليّ النائم.

يسأل آشر «بمَ كنتِ تحلمين؟ كنتِ تتكلمين وأنتِ نائمة. هل أنت بخير؟».

أنظرُ إلى وجه آشر بارتياح جمّ. منذ إصابته بتمدّد الأوعية الدموية أصبحَ آشر رجلاً مختلفاً: رقيقاً، متعاطفاً، ممتلئاً بفرح كونه حياً. بعض الرجال يُحقّقون هذا إذا عاشوا حياة مديدة. يُصبحون حكماء.

أقول «بوركتَ. لقد عدتُ في الزمن إلى عهد مراهقتي. حسبتُ أنه حقيقيّ».

يقول آشر «يمكن للأحلام أنْ تمدّك بالمعلومات، إذا أحسنتِ تفسيرها. برسائل من الجانب المُظلم».

أعانقه، ودماغي لا يزال خدِراً بالنوم.

يُغمغم «نيسي»، وهو اسم من عهد الغزل العنيف، لم أسمعه منذ زمن طويل.

عندما يُقبّلني ببطء وبرقّة على فمي يُصبح نصفي داخل الماضي ونصفي خارجه.

أتمتمُ «دعني أنظّف أسناني».

«لا عليك»، وينزلق إلى أسفل ليُداعب كسّي.

أقول «يجب أنْ أتبوَّل».

وأهرع إلى الحمّام، فرحة بالحاضر، سعيدة لأنني تركتُ الماضي خلفي، وسعيدة بعمري الحالي.

يهتف آشر مُلحّاً «عودي!».

أقول «قادمة!».

أنزلق إلى السرير، مذهولة لأن آشر قام بالخطوة الأولى - وهو أمر غير عادي يصدر عنه.

بينما أتمدد إلى جواره، ولا أزال منبهرة بحضوره، يفتح ردائي الحريري ويلمسُ كسّي وكأنّه آدم اكتشف تواً كسّ حواء.

يقول «جميل».

ثم يبدأ بتمرير لسانه ببطء على طول شفري، مُقحِماً برقّة أحد أصابعه ليتحسَّس الجزء الأمامي من الجدار الداخلي لكسّي الرطب.

للوهلة الأولى ـ أتذكّر الانقباض والألم اللذين شعرتُ بهما في مكتب الإجهاض، ثم ذكّرتُ نفسي بوجوب أنْ *أشعر*، لا أنْ أفكّر، أنْ أسمح للدفء، للمتعة بأنْ تغمرني، أنْ أنفتح على لسانه، أنْ أستسلم كل الاستسلام.

عندما تتأمّلين، تبدأ أفكار ممزّقة تتوافد جيئة وذهاباً لكنك تُضطرين إلى أنْ تتخّذي قراراً بتركها تذهب. كذلك الأمر مع المتعة. تُقرِّرين أنْ تتحرّري من كل ما يُقاطعك، من التفكير، والشرود، ومعاقبة أصوات الماضي.

لسانه على بظري كسولٌ في أول الأمر، ثم أقلّ كسلاً، ثم مُلحّاً وهو يلمسُ الجزء الداخلي من فرجي بإصبعه وأنجرفُ مع أمواج التوقُّع التي تُفرِغُ عقلي وتجعلني أُركِّز فقط على المتعة، على ترك الماضي المؤلِم، على التخلّي عن الرغبة في العودة إلى هناك وأكون شابة وجميلة من جديد. *اللعنة* على الشباب والجمال – هذا أفضل من كل شيء – وأقذف بنبضات عنيفة يبدو أنها تتواصل وتتواصل بلا نهاية.

يضمّني آشر.

يُغمغم آشر «شعرتُ كأنَّ صاعقة ضربت عمودي الفقري عندما قذفت. شيء لا يُصدَّق. لم أشعر بأي شيء مُشابه من قبل».

أقول «لقد أثرت الـ kundalini».

«ما معنى هذا بحق الله؟».

«ما شعرتَ به – الشبيه بحيّة كهربائيّة في عمودك الفقري».

«إذا شئت. كان شيئاً مُذهلاً».

«حقاً».

«كونداليني هو قوة الحياة، الطاقة الجنسيّة. وبعض ممارسي اليوغا

يعتقدون أنك عندما تربط تلك الطاقة الجسديّة بالعقل، لا يبقى ما يمكن أنْ تفعل. عندما تحصل على مثل تلك النار – الجنس، الإبداع، المعرفة – فإنَّ كل شيء يأتي معاً».

«معك حق. الكونداليني، الشموندالييني – شيء عظيم. حسبتُ أنني أموت. وأنت أعدتني»

«أعتقد أنكَ فعلتَ الأمر نفسه معي».

تذكّرتُ هذا عندما قابلتُ آشر للمرة الأولى، بدا كأنه في حالة حرب مع جسده. كنا نذهب إلى بقعة جميلة جمالاً مُذهلاً في العالم، ونُقيمُ في جناح في فندق فخم حيث أفكّر في الحال في الجنس، ويبدأ يُثير الجلبة بأدوات اتّصاله المختلفة – كراك بيريز، هواتف الأقمار الصناعيّة، والكومبيوترات – ويُبعدني بحاجته الممسوسة إلى الاتصال بمكتبه. ويُثير جنوني. فأتعرّى تماماً إلا من ملابسي الداخلية الحرير وأرقصُ متنقّلة في أرجاء الجناح، أحاول أنْ أجذبه، فيثور غضبه مني. لقد شعر بأنّني أتحكّم فيه بشهوتي الجنسيّة، أعتقد أنني أستخدمُه كأداة للاسترخاء (ولِمَ لا؟) فيُصبح أشدّ تصميماً على مقاومتي. كان يُثير جنوني الكامل وكنتُ بين حينٍ وآخر أندفعُ خارجة وأقابلُ عشيقاً قديماً فقط بدافع الهياج الجنسي والإحساس بالرفض. وحالما قابلتُ عشيقاً قديماً لي في كريلون في باريس على أحد أجنحة النوم على السطح المسقوف خلال يومين من ممارسة الجنس الرائع. وهناك صورة لي أخذها أحد الصحفيين الملاحقين للمشاهير كاد يخرج معي، ولم يفعل، وأبدو فيها أكثر جمالاً وتوهّجاً مما ظهرت في أي صورة ظهرت لي في مجلة للإشاعات. والسبب هو ثمان وأربعون ساعة مع فرانكو، عشيقي السابق من فلورنسا. يمكن للجنس أنْ يفعل هذا – أنْ يجعل بشرتك متورّدة وعينيك تشعان بالضياء – ومن غير أنْ يعلم أحد غيرك وعشيقك. شعرتُ بأنني أستحق أنْ أشعر وأبدو مُشرقة هكذا. وبلا أي إحساس

بالذنب. فعندما تخلعين ملابسك على خشبة المسرح كثيراً، لا يبدو أنَّ تغيير الزيّ يهم. ربما لهذا السبب الممثلون مُشوّشون كثيراً. وكأنك تؤدين دوراً آخر – بوصفه ذلك الجزء من العمل وليس من المسرحية. ولكن بما أنَّ عملك هو التمثيل، فإنّ الإحساس بالذنب ليس ضرورياً.

أكان ذلك هو السبب في أنني تمكنتُ من العودة بالزمن إلى ماضي حياتي؟ لا شيء حقاً يُفسّره – ما عدا رغبتي الشديدة في العودة إلى شبابي، الذي انقضى الآن. لقد ارتحتُ كثيراً بعودتي إلى المنزل، مع آشر، حتى أنني أردتُ أنْ أُكفِّر عن كل رغباتي الخطرة في أنْ أتلاعبَ بالزمن. في الحقيقة، كنتُ مذعورة من أنْ أسقط في ثقوب الديدان رُغماً عني.

كانت ثقوب الديدان هي الرغبات، أليست كذلك؟ كانت موجودة دائماً، تنتظر أنْ تبتلعك. أنت لم تعرفي أبداً متى يمكن للجزء الأكثر إيلاماً من ماضيك أنْ يبتلعك – تماماً كما حلمتِ بالعودة إلى الجزء الأفضل من ماضيك – مهما كان. كانت المشكلة هي أنَّ الزمن ليس تحت تصرّفك. لماذا اعتقدتِ أنه كذلك؟ يا للعجرفة!

بدأتُ أقرأ كلّ شيء أعثر عليه عن السفر عبر الزمن – أُسُس أينشتاين النسبيّة، الأكوان المتوازية، تاريخ أدب السفر عبر الزمن. إنه موضوع لم يكفّ عن سحر الناس – إنه أشبه بإثارة الكونداليني عبر الجنس. ولكن كلما استزدتُ من القراءة حوله، قلَّ فهمي لتجربتي فيه. هل لأنني طالما كنتُ حالمة حيوية جداً؟ أم أنني بصورة ما كسرت روابط الزمن عبر قوة التمنّي؟ لقد عرفتُ إلى أي مدى يمكن للأمنيات أنْ تكون قوية. فكلما رغبتُ شيئاً بقوة، أحصل عليه. كان ينبغي أنْ أكون حذرة مما أرغب وإلا تفوّقتُ على نفسي في الدهاء. لكنني كنتُ أقتربُ من نهاية المسرحيّة على الرغم من مخاوفي. لقد اكتشفتُ سرّ الكتابة – إنه العيش في اللحظة الراهنة. لا تعيشي في أوهام الاستجابة المُحتَمَلة لأنكِ لا تستطيعين أنْ تتكهّني بالمستقبل.

أنا أعلم أنَّ السفر عبر الزمن تغذّيه الأمنيات جزئياً. وعندما بدأتُ

مسرحيتي حول العودة إلى شبابي من جديد، كنتُ قد قابلتُ العديد من الساحرات ودرستُ الكثير من كتب السِحر، وعلِمتُ أنَّ العرافة من غير أمنيات – أي *نيّة* – قد لا تنجح. ***أنت في حاجة إلى نيّة قبل أي شيء***.

في تلك الأثناء، كنتُ وآشر نتقارب أكثر فأكثر. كانت تجربته مع الاقتراب من الموت قد جعلته ينفتح بصورة ما. وأنا أيضاً انفتحت. لقد تذكّرتُ كم يمكن للشغف الحقيقيّ أنْ يكون غامراً، وكم يمكن أنْ يُصبح سبباً للوجود، ومدى قِلَّة عدد الذين يريدون أنْ يعترفوا بهذا. الشعراء انفتحوا وكُتّاب الأغاني أيضاً. لكنَّ معظم الناس أرادوا أنْ ينسوا الأمر عندما لم يعُد جزءاً من حياتهم. أصبحَ مُزعجاً جداً. ومُخيفاً جداً. لقد افتقدتِهِ كثيراً إنْ كنتِ تذكرين. بعض الرجال والنساء بحثوا عنه بلا توقّف في علاقات عابرة. لكنَّ النساء لم يرغبن دائماً في الجنس الحرّ الخالي من الحسّ بالأمان والحب. والرجال غالباً ما يجدون الشبق الصِرف شيئاً مُخيّباً – والأمر متوقف على الرجل نفسه وموقعه في الحياة. كان الجنس العلاجي الحقيقيّ ممتعاً *أحياناً*، كما عرِفَتْ الشعوب القديمة. كان يجب أنْ يكون أكثر بكثير مما سمّاه صديقي المرحوم أنتوني بيرجس «الدخول والخروج القديم». كان يفتقر إلى الوقت، والمُداعبة، والنيّة، والتواصل عبر العيون، والاستحمام معاً. كان الأمر غير فعّال – وهذا جزء من الاستمتاع به. كانت الممارسة الجنسيّة الأميركيّة شيئاً مُبالَغاً فيه كالعمل الأميركي – كان ذا هدف موجَّه، وهو بلوغ الرعشة المُشتركة. لكنَّ الجنس العلاجيّ لم يكن *فقط* يشتهي بلوغ الهدف، وهذا ما جعله أمراً غريباً بالنسبة إلى الكثير من الأميركيين. وهذا لا يعني أنَّ الرعشة الجنسيّة ليست الشيء الوحيد الموجود. كان الجسد كله آلة من آلات السيمفونيّة الجسديّة، ومُعظم الناس لا يعرفون هذا. أنا نفسي لم أعرفه عند هذه النقطة من حياتي.

لكنني كنتُ سعيدة لتقاربي مع آشر. وكان ذلك تغييراً مُفرحاً. ليت في استطاعتي أنْ أبقى في الزمن الحاضر ولا أعود إلى الماضي.

هل كانت حاجتي إلى الشهوة تُعيدني إلى الماضي؟ في الماضي عرفتُ تشكيلة كبيرة من الشهوة – بعضها مُرعب ومُهلِك، وفي بعضها الآخر أحسستُ كأنَّ الحاجة إلى عشيقٍ مُعيَّن تنهشني. أردتُ أنْ أشعر بذلك من جديد وألا أشعر به من جديد. هل في استطاعتك أنْ تشعري بهذا في أي عمر؟ بل هل هو ممكن أصلاً؟

ما زال الهاتف الخليوي يُرافقني في كل مكان كجنّيّ إلكترونيّ. لكنَّ اهتمامي يقلّ باطِّراد بأزيزه الوثنيّ.

إذا اتّصلَ بي رجلٌ يمكنه أنْ يمارس سِحره، بعيداً عن البذلات المطاطيّة متمثلاً شعراء ماتوا وانقرضوا، فربما، ربما يُثير اهتمامي، ولكنْ حتى ذلك الحين، كانت تجربتي في مجال الجنس الحرّ قد فقدتْ مذاقها. رغبتُ في التقارب المضطرد مع زوجي أكثر من رغبتي في الغرباء. شيء مُدهِش.

-14-

لغةٌ تتجاوز اللغة

«أتخيّلُ أنّ نعم هي الشيء الحيّ الوحيد».

• إ. إ. كمنغز

تقول أخواتي، ونحن نلج غرفة أمي «يستغرقُ منا وقتاً طويلاً كي نولد، ووقتاً طويلاً كي نموت».

ولكن هذه المرة يبدو أنَّ الوقت قد حضر. إنها تُحدِّق في فراغ المدى، تُريّل، وتبدو غير واعية على الإطلاق بوجودنا هنا. أرييلا، التي ترعاها، تصبّ مقدار ملاعق من حساء حبوب مُخفَّف داخل فمها. إنّ أكلها وشربها يقلّان باطِّراد.

أرسلَ فريق العناية المُسكِّنة صندوقاً سرّياً لا يُفترَض بنا أنْ تفتحه إلا عندما يصل مع مُزيل احتقان ليجلب النوم السريع إليها.

كانت موصولة بأنبوب أكسجين إلى جوارها. كانت أرييلا، الفتاة الجميلة من هاييتي بوجنتيها المرتفعتين، تستخدمه على دفعات. كانت تُعطيها، وِفق تعليمات الطبيب، جرعات صغيرة من المورفين عبر الفم لتخفيف ألمها.

على الرغم من هذا كله، وكما تقول أرييلا «هي قويّة. تستطيع أنْ تستيقظ في أية لحظة».

هذه المرة، لم أرغب في أنْ أُخبر صديقاتي أي شيء لأنها قد تعود إلى الحياة من جديد. وعندما دخلتُ غرفتها وأنا أقول «أنا هنا، أحبّك»، أدارت رأسها وبدأتْ تغمغم بكلام لا معنى له – تحاول أنْ تتكلّم، ولكن هذه المرة هو مجرد غرغرة، ولعاب ينزّ.

في المعتاد كانت تلفظ *أي إي إي إي*. الآن ترى قميصي ذا اللونين الأحمر والقرمزي وتحاول أنْ تُبدي ردّة فعلٍ على اللون مع صوت. لقد تخلّتْ أمي تماماً عن التحكُّم.

كيف أعلمُ هذا وهي غير قادرة على الكلام؟ إنني أعرفه لأنني أعرفها وأعرفُ حبّها للألوان البرّاقة. لا بدّ أنني ارتديتُ هذا خصيصاً لأجلها. طبعاً فعلتُ.

لكنَّ أرييلا رفعتْها بسريرها الكهربائي وهي تغرغر بجنون، تحاول أنْ تبتسم لمرأى قميصي.

أقول «لطالما أحببتِ الأحمر والقرمزيّ». وتزداد غرغرتها.

تقول أرييلا «إنها تُجيبك»، وأعلمُ أنَّ هذا صحيح، لكنها مُرهقَة وتغوص عائدة إلى الأسفل.

تقول أرييلا «هذه آخر مرة أقوم فيها بمثل هذا العمل. إنه شديد الصعوبة. لقد أمضيتُ كل تلك السنين مع أمك وراقبتها وهي تنحدر. أمرٌ لا يُطاق. ولكن يُسعدني أنني عرفتُها. كأنها كانت أمي» وطفقتْ أرييلا تبكي.

إننا نعتقد أننا نعرف كيف يأتي الموت، أننا شاهدناه من قبل، لكنَّ كل ميتةٍ فريدة من نوعها كالمَولد. ليس هناك قالب يُطبَّق على الجميع.

في الماضي كنتُ أقضي ساعات مُصغية إلى أمي وهي تغمغم بالهراء. لم يكن الأمر سهلاً. والآن بدأتُ أفهم أنه كان أيضاً وسيلة تواصُل. يقول الروميّ، الحكيم الصوفيّ العظيم، «هناك لُغةٌ تتجاوز اللغة».

كانت ممرضتها البولندية كارولينا تقول «إنها تنحدر إلى أسفل التلّ».

«في كل يوم تنام أكثر. إنني أخبرك أنت وأخواتك الحقيقة، كل الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. إنها تنحدر إلى أسفل التلّ - كمزلجة يجُرُّها حصان واحد».

كنتُ أُجري حوارات فلسفيّة طويلة مع كارولينا لأنني لم أعُد أستطيع أنْ أُكلِم أمي. أصبحتْ كارولينا هي صوتها المُتكلِّم. ما كانت أمي ستحبّ اللكنة البولندية لكنني أعلم أنها تحب أنْ يكون لها صوت. كانت سعيدة باستخدام صوت كارولينا - أو صوت أرييلا الآن.

حينئذٍ كل ما كان في استطاعتها أن تنطق هو «أييي يي يي يي» ولم نكن نعرف لماذا تقول ذلك. وتُردّد «أييي يي يي يي».

سألتْ كارولينا «لماذا أي يي يي؟».

أجيب «لماذا أي يي يي؟»، لأنني لا أعرف السبب.

لم أكنْ قد سمعتُ ذلك منها في الماضي.

وأمي لم تستطع إعطاء جواب. هي، ملكة لعبة السكرابل بكلمات من سبعة أحرف، هي صاحبة مستوى الذكاء اللامع، هي الشهيرة غرترود، التي أعطت النقد الممتاز لمسرحية «الأم شجاعة»، التي قامت بدور العظيمة الليدي ماكبث. هي صاحبة اللوحات الشخصية الزيتيّة، والمائيّة، وبأقلام «الكونته». هي مالكة الطبعات الأولى النادرة. اختُزِلَتْ الآن إلى أي ي يي يي.

وأُردّد «أيي يي يي. أي ي يي يي».

خلال الردح الأعظم من فترة طفولتي، آمنتُ بأنَّ أمي كانت على صواب في كل شيء. قلّدتُ أذواقها في المسرح، وفي الفن، وفي الموسيقى، وفي الكتب، وفي السياسة. مشيتُ وراء قيادتها في كل شيء حتى سن الثالثة عشرة المُخيف. ثم بدأتُ أتمرَّد - أي ي يي يي.

كنت أقول للـ أي يي يي «أمي، أحبّك».

هل كان الالتواء في شفتها المُجعّدة تدلّ على مشروع ابتسامة؟ لم أعرف. في غضون دقيقة أو اثنتين سوف يبدو أنها نائمة من جديد.

والآن هي نائمة، نوماً أعمق. هل الموت يُشبه نوماً بلا أحلام أم تظهر صور؟ وهل هي مشاهد من الجحيم أم من الجنّة؟ ما دمنا واعين، لا نستطيع أنْ نتخيّل خبوّ الوعي. لكنَّ رؤية أمي على شفا خبوّ الوعي، أبدأ برؤية المستقبل. لعلنا نُغالي في اقتناعنا بفرديّتنا. ربما السرّ يكمنُ في البقاء جزءاً من الكلّ.

هل في استطاعة قوة عُليا سرمديّة أنْ تُحافظ على هذه العقول الفرديّة نشطة في الحال؟ وماذا عن عقول كل الناس الذين عاشوا منذ الأزل؟ أيُعقل أنهم كلهم هنا في الهواء، لا يحتلون حيزاً لكنهم يؤثرون فينا؟ هل الأفكار تبقى؟ والذكريات؟ هذا هو اللغز الذي نواجهُهُ كلنا.

أراقبُ أنفاس أمي تدخل وتخرج من جسدها الذابل، وأحاول أنْ أستذكر وجهها، وأنفاسها، وتاريخها. وأتنفّس معها. كم سأتمكّن من التنفُّس معها؟

الآن تقول أرييلا بحزم «إنها تنحدر إلى أسفل التل بلا أدنى شك. أحياناً في الليل تنادي على والدك».

«ماذا تقول؟».

«تنادي اسمه».

«هل تسأله أين هو؟».

«كلا». تنظر أرييلا إليّ نظرة غريبة.

«حسن، أنا أريد أنْ أعرف أين هو وفيما يفكّر».

عندما أقول هذا ترميني بنظرة أشد إبهاماً.

أتذكّر حُلمي بوالدي وسط الثلوج وغضبه لأنه سيموت. أتذكّر ذات يوم قبل نحو عقدين من الزمن عندما اتصلتُ بوالديّ في صباح أحد

الأيام لأطمئن عليهما فقالت أمي بلهجة انتصار «نحنُ ما زلنا حيّين!». أتذكّر نبرة الذهول والانتصار. ثم أتكلّم مع والدي فينعق هو أيضاً «نحن ما زلنا حيّين!» والآن هو لم يعُد حياً وهي بالكاد تكون كذلك.

«هل سأتمكّن أبداً من تحمُّل غيابهما؟ هل يستطيع أحد ذلك؟».

عندما أتذكّر والديّ وهما ينعقان، «نحن ما زلنا حيَّين!» أعلم أنهما سيبقيان حيَّين داخلي.

كم أشتاق إليهما. إنَّ أي ي يي يي ليست بديلاً عنهما.

لا أعتقد أنني أحبّ أنْ أُنهي حياتي كما تُنهي أمي حياتها. ولكن لعلّها لا تعلم أنها تُنهي حياتها.

كيف أستطيع أنْ أعرف كيف سأشعر قبل أنْ أصل إلى هناك؟

هناك مشكلة.

في المنزل، يسألني آشر عن حالة أمي.

أقول «لا تسأل».

«أهي سيئة إلى هذه الدرجة؟ آمل أنكِ لا تقولين هذا عني».

«لكنك تتحسّن».

يقول «تعالي إلى هنا». أزحفُ إلى السرير معه وأضمّه بين ذراعيّ.

«أعلم كم يبدو هذا صعباً عليك - الوالد، الوالدة، وأنا، وبيليندا. لكنني أعِدكِ بأنني سوف أتحسّن وسوف أبقى هنا من أجلك».

عندما يقول كلاماً قويّ التأثير كهذا، تختفي الأشباح كلها.

ولكن ما هو الحب؟ أهو التخلّي عن التحكّم بالأمور؟

حسن، أعلمُ أنّه لا يتغيَّر عندما يجد التغيير. وأنا أعلمُ أنَّ شكسبير «غاص» في فهمه في السوناتا. وجيلي تعوّدَ على أنْ يقول «غاص» في النهار (كما يقول أطفالنا)

أعتقد أنَّ روبرت هاينلاين[48] كان مسؤولًا. كلنا قرأنا كتابه «غريب في أرضٍ غريبة» وأحببناه، وبعد ذلك غصنا في كل شيء.

***

أعود إلى الجنس. حقّاً، يا بنات، إنَّ السعي وراء الرعشة هو نهم صِرف. إنك تفكّرين فيها عندما يمر وقت طويل ولا تحصلين عليها. وبعد مرور وقت طويل تنسين، تُصبحين طائشة. إنَّ الجوع إلى الجنس يشبه أشكالاً أخرى من الجوع، لكنَّ الجوع ليس حبّاً. طبعاً الأطفال يُحبّون الذي يُطعِمهم ويرعاهم. لكننا لم نعُد أطفالاً - على الرغم من أنَّ كثيراً من الناس لا يصلون إلى سن الرشد. لكنَّ الراشدين، على قِلّتهم، يعلمون أنَّ الجوع ليس حبّاً - أم هل نعلم؟ القطط قد لا تعلم، لكنَّ الكلاب تعلم - ولكن دعونا لا نخوض في شأنْ القطط والكلاب.

قبل أنْ أتزوج من آشر كنتُ، كما أخبرتكم، أُصاحبُ ممثلاً شاباً كان لديه انتصابٌ دائم. ولكن هل كان ذلك حباً؟ أشكّ في هذا. وأشكُّ في أنَّ حتى انتصابه كان دائماً. حتى هو قد يُصبح عجوزاً - إذا لم يرتطم هو وسيارته العتيقة بشجرة قبل ذلك.

كان ولعه بالمخدرات - حشيش، كوكايين، ميثادون، وكل ما يخطر في بالك. مَنْ يدري إنْ كان ما زال حتى حياً، ناهيك عن أنْ يحصل على انتصاب؟ عندما كنتُ معه، ظننت أنَّ انتصابه الذي لا يفشل له صِلة بإغوائي. ولكن لم يكن الأمر كذلك. كان في استطاعته أنْ يحصل على انتصاب مع أي شخص يُداعبه ويُطعِمه - رفاق من رجال، ونساء، وحيوانات.

الانتصاب - كلنا نسعى إليه! القضيب القاسي الذي ينهضُ عالياً

48 - روبرت هاينلاين (1907 - 1988): أحد أبرز مؤلفي قصص الخيال العلمي أميركي - المترجم.

ويُثبت وجودنا. هكذا يُفكِّر الرجال - المستقيمون منهم والمثليون على قدم المساواة. والنساء أيضاً - على الأقلّ عندما يُثيرهن الجوع. ولكن هل هذا الانتصاب له أية صِلة بسِحرنا وبشهوتنا الجنسيّة؟ مَنْ يعرف؟

كان في وسع نيكوس أنْ ينيك كل شيء. كان من حي كوينز لكنه أحبّ جويس[49] وكأنه من كيلارني[50]. أقمنا معاً ورشة لتحويل الفصل الأخير من «يوليسيس» إلى عمل مسرحي:

«كنتُ زهرة جبليّة نعم عندما وضعتُ الوردة في شَعري كما كانت تفعل فتيات الأندلس... وكيف قبّلني تحت جداري المراكشي وفكّرتُ فيه كما في آخر ثم سألتُه بعينيّ ليسأل من جديد نعم ومن ثم سألني هل لي نعم أنْ أقول نعم زهرتي الجبليّة وأولاً طوّقته بذراعيّ نعم وشددتُه إليّ لكي يشعر بثديّ المُضمَّخين بالعطر نعم وقلبه كان ينبض كالمجنون ونعم قلتُ نعم سوف أفعل نعم»[51]

أصبحتْ شيئاً أشبه بشجرة كستناء عجوز - لكنَّ نجاحها كان ساحقاً. والممثلون أحبّوها. الزهرة في الشعر وكل ذلك.

حتى الأطفال أحبّوها - من أجل الجنس، أعتقد. إنَّ الجنس شيء عالميّ - كالجوع. نُعلّي كثيراً من شأنه في شبابنا. نجعله أشدّ أهميّة بكثير مما هو عليه.

إنَّ الجنس يتعلَّق بالجيل التالي الذي يُحاول أنْ يصل. ولا يتعلَّق بالتسامي أو بالفلسفة أو بأي شيء يتجاوزه. لكنه هكذا، أيضاً. إذا كانت الآلهة قد ابتكرته، فقد كانت بعيدة النظر. يبدو أنه يعني *كل شيء*.

---

49 - الكاتب الأيرلندي جيمس جويس.

50 - كيلارني: في أيرلندا.

51 - الأسطر الختاميّة من رواية «*يوليسيس*» لجيمس جويس - المترجم.

كم من رجل تزوجتُ من أجله، لاحقتهم من أجل الجنس... لكنه فقط أسلوب الآلهة في جمعنا معاً في حميميّة نادرة. إننا نمحنه قوَّةً تفوق ربما ما يستحق.

لكننا لا نعلم هذا إلا بعد أنْ يُرخي قبضته عن حياتنا.

أمي العزيزة،

أرجوك لا تموتي، أنا أعلمُ أنكِ نائمة، وتقضين معظم وقتكِ في الحلم - ليتني أعرف أحلامك - وأعلمُ أنه لم يعُد في مقدورك أنْ تكلّميني أو تسمعيني. ومع ذلك أريدك أنْ تعيشي إلى الأبد لأنني لستُ مُستعدّة أنْ أستمرّ من غيرك. هل هذه أشدّ الرغبات أنانيّة؟ أنتِ تقولين نعم. وأنتِ أيضاً لا تريدين أنْ تموتي. إنكِ تتماسكين لأنكِ تخشين الفناء - وتضيعُ فرادتك المُطلقة إلى الأبد. أنا أتفهّم هذا. أنا أيضاً لا أريد أنْ أفقد فرادتك، ولكن لا أريد أنْ أفقد فرادتي أنا، أكثر من أي شيء آخر.

تتصل أختي أنتونيا هاتفياً. تنفجر قائلة «لم يعُد في استطاعتي أنْ أفعل هذا من جديد. أريد شخصاً يعتني بي! إنها تتمدَّد هناك كملكة، ولكن ماذا عنّي؟ إنَّ أطفالي لا يأبهون».

أعمل على تهدئتها. أريدُ أنْ أتصرَّف بهدوء. أردتُ لها أنْ تهدأ.

«أنتِ تبلين بلاءً حسناً. لقد كانت حقاً فترة عصيبة طويلة وموجعة. فلا تستسلمي الآن».

هل أقول هذا لها أم لنفسي؟ إنني أريد الآن، أكثر من أي وقت آخر، أنْ يسود السلام بيني وبين أُختيّ، بلا استفزاز، فقط أنْ تقبل إحدانا الأخرى. هل سنتمكن أبداً من تحقيق هذا؟ وتمضي الأيام. وحالة أمي في هبوطٍ وصعود ثم هبوط. أحياناً أعتقد أنها ماتت. وأحياناً أعتقد أنها لن تموت أبداً. أحياناً لا أنتبه كثيراً لأساليبها الجديدة في التواصُل.

عندما يحلّ علينا الخَرَف ويستمر طويلاً، يتغيَّر معنى التواصُل. اللون يوقِظها، وكذلك الصوت. الموسيقى تُبهِجها، على الرغم من اعتقادي أنها لا تسمع. قطعة الشوكولاته تنزلق على لسانها كالحب.

تعتدل في جلستها وتحاول أنْ تهتف لمرأى لون قميصي – أحمر والقرمزي مع بقع خضراء. لعلها في شبابها كانت ترتدي من مجموعة أزياء Erto الأنيقة. ولطالما كان ذوقها في انتقاء الملابس راقياً، وسابقة لعصرها، وميلها الفني جامحاً. لكنها غير قادرة على الكلام. إنها تنقّ كضفدعة جالسة على حافة خضراء يكسوها الطحلب، ثم تقفز بسرعة إلى الماء. إنها ترفعُ كتفيها بقوة، وإنْ كانت الآن لم تعُد قادرة على الاعتدال في جلستها. إنها تهتف من غير أنْ تهتف. أنا أعلم أنها تستحسن تنوُّع ألواني – التي تشبه كثيراً تلك الألوان التي كانت ترتديها في أيام عزّها. لقد عثرتْ على نوع جديد من الكلام خال من الكلام. ثم تبدأ بالسعال وكأنها توشك على الاختناق.

إننا نجهل تماماً لغات مختلفة – ليست اللاتينيّة ولا الإغريقيّة، بل لغة الألوان، ولغة الطعام. إننا لا نعرف أبداً كل الأنواع المختلفة من الموسيقى الإنسانيّة. في استطاعة أمي أنْ تتكلَّم من غير أنْ تتكلَّم، وتضحك بلا ضحك، وتغني بلا صوت. إنَّ آباء الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة يعرفون هذا وكذلك يعلم الأطفال والمُحتضرون.

أجلس إلى جانبها بينما هي تنام وتصحو، وتصحو وتنام. ولكن ذات يوم اكفهرّتْ تعبيرات وجهها وخلت من التعبير. لقد تغيَّر شيء. تشعر أنتونيا به وتُخبرني بأنَّها لم تعُد قادرة على التحمُّل.

أقول «إذن، لا تأتِ، أنا هنا».

تقول «لقد لازَمْتُها أكثر مما ينبغي. إنه يقتلني. أنا التي ستموت أولاً. إنني ميتة منذ الآن».

«لا بأس. لا تقلقي»

تهمس أرييلا «لا تستطيع التحمُّل. دعيها وشأنها».

وهكذا أُقاوم إغواء الاتّصال بأختي الأخرى. سوف أبقى هنا وحدي. إذا استلزم الأمر استدعاء الممرضة المُقيمة، فسوف نستدعيها. وإذا بدا أنَّ الأم تتألّم، فسوف نفتح الصندوق السرّي الذي طُلِبَ منا ألا نفتحه. وإذا، وإذا، وإذا. أستطيع أنْ أتصرّف. أنا بالغة. أكاد أكون يتيمة.

لم يكن صدرها يخفق، وكان تنفسّها خفيفاً إلى درجة أننا لم نسمعه. وبين حين وآخر تبذل جهدها لتتنفّس وأعطيناها حقنة ضد الاحتقان. وتمنيتُ لوقت طويل أنْ أكون حاضرة عندما تغادر كوكبنا إلى القمر، أما الآن فأرى أنَّ الانتقال قد لا يكون ملحوظاً، خلاف انتقال والدي. إنها لا تريد أنْ تبقى هنا، بل تريد أنْ تنضمّ إليه – أينما كان. لا بدّ أنْ يكون هذا حباً. إنها تحلم بالقمر.

نناقش برنامج مكان الإقامة، صندوق الإقامة مع الطبيب. كنا قد قبلنا الحزمة المختومة ولكن طلِبَ منا ألا نفتحها إلا عندما تأتي الممرضة المُقيمة إلى الشقّة.

أسألُ «ماذا يوجد في الصندوق؟».

تقول لي خدمة مكان الإقامة عبر الهاتف، «سوف تُخبرنا الممرضة عندما تأتي».

على امتداد الساعات التالية، تفتح عينيها لكنها لا ترى شيئاً. عيناها خاويتان، كأحرف ميّتة، تُحدّقُ إلى الفراغ. لعلها أصبحت فعلاً على القمر.

أذهبُ إلى المنزل بضع ساعات، ولكن عندما يزعق الهاتف عند الساعة السادسة صباحاً، تكون قد ماتت.

اجتمعتُ مع أختي إيم في ظلام الصباح وذهبنا إلى شقّتها. كانت توني قد وضّحتْ أنها لا تتحمّل.

تقول أرييلا، والدموع البراقة تنهمر من عينيها البُنّيتين المستديرتين، «لا بدّ أنها رحلتْ في الساعات الأولى من الصباح». كانت مضطربة.

تقول إيم «غطي رأسها بالغطاء. إنها دلالة على الاحترام».

تقول أرييلا «طلبوا مني ألا ألمسها». ولاحقاً لاحظتُ أنها جرّتْ الغطاء لتُخفي الوجه الميّتْ.

أدخلُ الغرفة، وأزيحُ الغطاء، وأخرجُ أنبوب الأكسجين من أنفها، وأنزعُ الشريط الذي ثبّته هناك، وأقول «أحبك، يا أمي». بدتْ هي نفسها لكنها شديدة السكون ولم تُصبح باردة بعد. وتعبير وجهها هو نفسه.

تقول إيم «لا أريد أنْ أدخل إلى هناك».

أقول «ما زالت هي نفسها ، ما زالت دافئة. وجهها هو نفسه. يجب أنْ نودّعها». وأمسكت يد كل منهما وعدنا إلى غرفتها. تماسكنا بالأيدي ورحنا نحدّق إلى رأس الأم، العجوز الذي كنتُ قد أزحتُ عنه الغطاء في سرداب الزمن.

أُجبرُ نفسي على النظر بإمعان إلى قسماتها - الأنف الطويل، المعقوف، الذي أحبّه مُعجبوها اليابانيون، وعِظام الوجنتين المرتفعة، والعينان المُقبَّبتان المُغمضتان. كان الصوت القويّ قد صمَتَ.

تقول أختي «لقد وهبني الله السكينة لكي أتقبّل الأشياء التي لا أستطيع أنْ أغيّرها».

تقول أرييلا «لقد منحك الله موتاً جيداً، شكراً لله».

أقول «كلنا نحبّكَ حبّاً جمّاً. شكراً لكَ على الكتب، والمسرحيات، والموسيقى، والشِعر، والسينما. شكراً لكَ على غيرشوين وموتسارت وكول بورتر وبيتهوفن. شكراً لكَ على ديوك إلينغتون، وغيلبرت وسليفان، وميتروبولوس وبرنشتاين. شكراً لكَ على بيتس وديكنسون وميليه. شكراً لك على ليوناردو ومايكل أنجلو وهوغارد وفيجه لو برون. شكراً لك على حشو رؤوسنا حتى الزبى بمعرفتك المُذهلة لكل شيء». وقبّلتُ الهواء كما كنتُ قد قبّلتُها هي قبل ذلك.

وقفنا مشدوهات من قوة الموت.

اتصلنا بالممرضة المُقيمة لكنها لم تُجِب. فتركنا رسالة صوتيّة تقول «نعتقد أنها قد رحلتْ. احضري من فضلك لكي تُعلني موتها». ولم تأت الممرضة المُقيمة، ولم تتصل. ولا اتَّصلَتْ بأخصائي الشيخوخة، الذي علِمَ بصورة ما.

بينما نحن ننتظر معاً، تفتش أرييلا بين ذكرياتها عن كل تفاصيل اليوم السابق.

«كانت تغوص طوال النهار. وعندما تدخلين عليها تسمعين الضجيج الذي تُحدِثه». ابتلعت إيم لعابها بصعوبة. وشددتُ على يدها.

كنتُ أنا وإيم قد سمعناه بصورة مختلفة. أنا سمعتُ كامل رئتيها تحاولان أنْ تتخلصا مما فيهما. وإيم سمعتْ سُعالاً. وأرييلا سمعت نغماً مشروخاً. ماذا كان ذلك؟

العاملون المقيمون في المستشفى لم يأتوا، لكنَّ قائد الجنازة أتى. لم ترغب إيم في المشاهدة. ولا أرييلا. أنا شاهدت.

تحسَّسوا إنْ كان قد تبقّى نبض. لم يتبقَ أي شيء. كنتُ أعلم هذا مُسبقاً.

رفعوها عن السرير، وأخذوا الغطاء، ووضعوا أعضاءها النحيلة داخل كيس من البلاستيك الأبيض، يُشبه الكيس الذي يوضع فيه الثوب. أجبرتُ نفسي على مشاهدة هذا كله لكي أتذكّر مدة خِفّة وزن الجسد بعد الموت. وكيف نتقلّص كلنا إلى كتلة من الجلد والعِظام – حتى أولئك بيننا الذين يقلقون بشأن أوزانهم.

ولم نفتح الصندوق أبداً.

بعد وفاة أمي، مرّتْ عليّ ليالٍ عديدة لم أستطع خلالها النوم – على الرغم من أنني في المعتاد أنام كأسعد الأطفال.

في الليلة التي تلت وفاتها، رحت أقطع أرض شقتي ذهاباً وإياباً، أصغي لعلّي أسمعها، وفي الليلة التي تلتْ دفنها، فكّرتُ في تناول

أقراص مُنوّمة مع أني لا أتعاطى الأدوية إلا عندما أشعر بتعب شديد. لكنني أحجمت. إنْ كانت أمي لا تزال موجودة، فأريد أنْ أكون حاضرة لأرحّب بها.

ذات ليلة حلمتُ بأنني في الهند مع زوجي. وفي صحبة كلٍ منا مرشدٌ روحيّ[52]، ترافقُ زوجي امرأة ترتدي ساري ذهبي ويُرافقني رجل هندي ضئيل أشبه بـ«رامبلستيلتسكين»[53] في كتاب للحكايات الخرافيّة كان في حوزتي وأنا طفلة. كان أسمر البشرة كالجوز المشويّ وأقصر مني قامة، لكنه وعد بأنْ يوفّر لي الرضا الذي أحتاج إليه.

أبديتُ احتجاجي بقولي إنني متزوجة ولا أريد أنْ أخون زوجي، لكنه قال إنّ زوجي موافق على هذا. في الليلة التي أتى إليّ، زلقَ قضيبه القصير والقاسي في فرجي، ونكحني بصعوبة. في أول الأمر لم أشعر بشيء ولكن، بعد أنْ انسحب مع سيل من الكلمات العذبة، شعرتُ بكسّي ينبض برعشة قويّة حتى أنني كنتُ في حالة من الارتياح الغامر عندما استيقظت.

المرأة المُرشِدة وفّرت لزوجي أيضاً رعشة رائعة وأبدينا معاً إعجابنا من المدة الطويلة التي مرّتْ علينا قبل أنْ نكتشف جزيرة العلاج الجنسي هذه التي تقع في شبه الجزيرة الهنديّة. لقد اكتشفنا نحن الاثنين ما احتجنا إليه – بلا خوف أو شعور بالذنب أو اضطراب.

سألتُ «كيف لم نعرف بوجود ذلك المكان؟».

قال آشر «لا بدّ أننا كنا مجانين! إنه ممتاز!».

---

52 – المرشد الروحي هنا، يقصد به رجل بوذيّ يُدرِّب الرجال والنساء على أصول الممارسة الجنسيّة المُرضية لكليهما – المترجم.

53 – رامبلستيلتسكين: في إحدى القصص الخرافيّة الألمانيّة، هو قزم يُساعد عروس الملك شريطة أنْ تعطيه مولودها الأول أو تُخمِّن اسمه، فتنجح العروس في تخمين اسم القزم، وفي ثورة من الغضب يقوم القزم بتدمير نفسه – المترجم.

بعد ذلك بعدّة أيام عثرنا داخل الصندوق الذي لم نفتحه على حقن من المورفين.

لقد عرِفَ الإغريق القُدامى أنَّ الموت هو صديق. عرِفوا أنَّ قصة تيثونوس ليست مُضحكة.

تقول القصة إنَّ إلهة الفجر، إيروس، وقعت في حب أمير طرواديّ وتوسلت إلى زيوس أنْ يجعلها عشيقة مخلوق فانٍ. ولكن في غمرة جنون حبّها نسيتْ أنْ تطلب منه الشباب الدائم. وأصبح تيثونوس الرجل الذي لا يستطيع أنْ يموت، وطفق يجوب أصقاع الأرض يستجدي إلى الأبد الرحمة عندما بدأت عيناه، وأطرافه، وأحشاءه تتعفّن وتسقط وتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شيخ مُقعد.

وكل ما تبقّى له أنْ يفعل هو أنْ يتكلّم، ويتكلّم، ويتكلّم.

في نهاية المطاف حوّله إله رحيم إلى جدجد.

لغة – الجدجد أيضاً لديه لغة.

في بروفينس يعرفون الحِكمة العقيمة للجدجد ويُرافقني.

كان لدينا أنا وآشر منزل في بروفينس في كوخ صغير وجميل اسمه روسيليون. وهناك تثير الجداجد ضجيجاً مرحاً طوال الليل خلال فصل الصيف.

لكنَّ الموتَ لا يُنهي أيّ شيء. الموت يُباشر الحصاد – حصاد الألم، وإدارة الأعمال، والعمل المكتبي. والتحوُّل التدريجيّ لوالد صعب المراس إلى شبه قدّيس.

اشطبْ كلمة شبه. ويُصبح الآباء أكثر نُبلاً فأكثر بعد أنْ يموتوا. ويُصبحون أيضاً مُسلّين أكثر ومحبوبين أكثر. ويتوصّلون إلى أنْ يحظوا بحبّك اليائس.

-15-

ترفّق بالموتى

«وأقول لك، ترفّق بالموتى، كما ترغب في أنْ تُعامَل، الآن، خلال ما وَصَفْتَه بأنه حياتك».

• هارولد بنتر، من كتاب «*أرض مُقفِرة*»

مرات عديدة صلّيتُ كي تموت. لقد كانت شديدة الوهن والضعف حتى أنني غالباً لم أكنْ أُطيق زيارتها. ولطالما فضّلتُ أنْ أكون مع ابنتي وحفيدي على أنْ أكون معها. لم أرغب في أنْ أُحدّق إلى الموت حتى النهاية الختاميّة. ولكن عندما ماتت أخيراً، أُصِبتُ في كياني كلّه بصدمة. تهيّجتُ ولم أقوَ على النوم. وذات ليلة تناولتُ قرصاً مُنوِّماً وشعرت كأنني أمتطي متن الغيوم، وأنا في سلام للمرة الأولى. وفي ليلة أخرى رحتُ أذرع أرض الغرفة، يُجافيني النوم ولا أرغب في تناول قرص. أردتُ أنْ أطير معها، مُخلّفة ورائي كل خوف. أردتُ أنْ أتدحرج إلى قبرها كإحدى بطلات شكسبير. أردتُ أنْ أصرخ، أنْ أبكي، أنْ أتهلّل، أنْ أرقص، أنْ أموت. وهكذا تقلّبت أمزجتي على مدى أسابيع.

هناك غاية في الموت لا يمكن التكهّن بها بالمخاوف والصلوات.

عندما أصبحت خرساء ولم تعُد تستطيع أنْ تستيقظ طوال بضع دقائق دفعة واحدة، وصليتُ لأجلها كي تموت. ولكن عندما ماتت، لم أعُد أرغبُ في موتها على الإطلاق.

لقد وجدتُ الاستجابة العامة لرحيلها مُدهشة حقاً. كانت الاستجابة أقوى مما توقّعت نظراً إلى سنّها المتقدِّم وطول مدة غيابها عن الساحة العامة. ولم يتذكّرها إلا عددٌ قليل من الأحياء عبر أولادها وأحفادها. ومع ذلك بقيَ ذكرها في أوساط البرامج الترفيهيّة - وعندما توجد هناك، تبدو كأنك لا تموت أبداً.

كانت الصناعة في زمنها تزدهر على أيدي شركات فوكس، وتومسون ورويترز، وأسوشيتد بريس وما شابهها. لذلك كانت حياتها لا تزال تُحلِّق - ربما على كوكب المريخ - وتستجلب *الفضول*. أو على الأقلّ على القمر.

كان هذا بالنسبة إليّ شيئاً مُرضياً - على الرغم من وجود الكثير من الأخطاء في المجال. كان والدي يوصَف بأنه ممثل استعراض هزليّ وكذلك هي، على الرغم من أنَّ المسرح الاستعراضي الهزلي كان قد مات عندما ارتقيا خشبة المسرح. وثار غضب أختيّ عليّ، وكأنّني المسؤولة عن تلك الأخطاء. لم أتمكن من إقناع إيم بأنَّ الصحافة لها حياتها الخاصة - وغالباً ما تنفصل تماماً عن مسار التاريخ. ولم أستطع أنْ أُقنع أنتونيا أيضاً. كل الصحافة شدّدت على الأسماء البارزة - اسمي، واسم آشر، والفنانين الذين جلبناهم، وممثلين ذوي شهرة أكثر سطوعاً كان والداي قد عملا معهم. غيرشوين من أجل شقّته، وكيوكر من أجل إخراجه، ومحل بيع الكتب بيبلومينيا من أجل نُسخ الرابطة الموقّعة. الصحافة أثارت جنوني، لكنني كنتُ قد تعوّدتُ عليها ولم أتوقّع الدقّة. كنتُ أعلم أنَّ الأنظار تجذبها الأسماء البارزة، وكل ما يريده الجميع اليوم هو جذب الأنظار. ولا أحد يأبه للحقيقة.

لكنَّ أُختَيَّ وضعتا اللوم عليّ، كما تفعلان دائماً.

أرادتا أنْ تتخلّيا عن إرث والديّ - في حين أنَّ كل ما أردتُ هو أنْ أحافظ عليه، وأعرضه، وأجعله حقيقياً كما كان في طفولتي.

وتقول إيم عبر الهاتف «فلنجتمعْ في الشقّة ونناقش الأمر. حتى أنتونيا تقول إنها قادمة»، ويغوص قلبي داخل حذائي الذي ثمنه ألف دولار.

أناشدها «ألا نستطيع أنْ نتناقش عبر الهاتف أو الإيميل؟».

وتُصرّ «كلا - يجب أنْ نجتمع نحن الثلاث».

وهكذا تربطني.

يجب أنْ تكون هناك تسمية للجو السائد في الشقّة بعد أنْ يذهب أصحابها إلى عالم آخر - إلى المطْهَر، أو الجنّة، أو الجحيم. إنَّ الجوَّ ليس ساكناً، بل يعجُّ بالأشباح. فلنقُل إنّه مشغول. كان الإخوة غيرشوين، جورج، وفرانكي، وأيرا، لا يزالون هناك طبعاً، يغنون وهم يعزفون على آلة البيانو وثمة غمامة من الكآبة تخيِّم فوق رؤوسهم بسبب الوفاة المُبكِّرة لجورج. الجميع قالوا إنَّ الإخوة غيرشوين لم يتمكنوا من تجاوز محنة وفاة أخيهما. سمعت ذلك من أمي - التي كانت صديقة حميمة لفرانكي غوغوفسكي، وجورج وأخت أيرا الصغيرة. كان الإخوة غيرشوين ينحدرون من أوديسا - كشأن عائلتي. كانوا يحملون تلك الصِفات التي يتحلّى بها الأشكيناز فيذيعون الأغاني، ويغنون، ويرقصون، ويكتبون كلمات الأغاني، وينجون من سطوة هوليوود، وانتقلوا من بروكلن إلى مانهاتن من غير أنْ يتضرروا. وفي هذه الأيام، ينتقل أولاد الفنانين من مانهاتن إلى بروكلن. وفي تلك الأيام، كانوا يتوقون إلى ترك بروكلن إلى مانهاتن. لكنني أعرف القصة الخفيّة. لا شيء كان كما يبدو. إنَّ الحياة حُلم؛ حفلات تنكّرية ممتعة كالكريما، إلى آخره.

في آخر مرّة تنفّستُ هذا الهواء كانت أمي قد توقّفتْ عن التنفُّس وجاء المسؤولون عن الجنازة لكي يُكفّنوها ويأخذوها. بعد ذلك كانت

الجنازة – كغيرها من الجنازات، لكنها طبعاً *تختلف* عن الجنازات كلها في الأعداد الغفيرة من الناس الذين واكبوها – من محامين، ومُحاسبين، ومدراء تنمية، ومُعجبين مخبولين مع دفاتر تواقيع متهرئة وآلات تصوير قديمة قذرة. إنهم يتجمعون كالذباب حول جثث المشاهير، وأنصاف المشاهير، والذين كانوا مشهورين، وكانوا أصدقاء مَنْ كانت مشهورة ذات يوم. وقبل عهد قريب شاهدتهم يتجمعون حول الباب الجانبيّ لفندق كارلايل عسى ولعلّ أنْ يمرّ من هناك ميك جاغر.

عزفنا مقطوعات لغيرشوين طوال فترة الجنازة كما كانت أمي قد تمنّت ذات يوم. وصدح بيانو غيرشوين، بمقطوعات «الرابسودي الأزرق» و«أميركي في باريس» وأوبرا بورغي وبيس. وعلى غرار غيرشوين، كان والداي يُناهضان التفرقة العرقيّة متقدّمَين بذلك على عصرهما، ولا بدّ أن المسؤولين عن الجنازة قد شاهدو أشخاصاً مُلوّنين في جنازة أمي أكثر مما شاهدو في كل الجنازات التي نظّموها قبل ذلك. إننا نبدو حقاً أننا نعزل جُثثنا، وهكذا كان الحال في المقبرة.

دفنّاها بجوار والدي في المقبرة اليهوديّة في إلمونت، لونغ أيلند، قبالة مضمار سباق متنزّه بلمونت. كانت كامل الـ*mishpocheh* (العائلة) موجودة هناك – جدّاي، جدّا آشر، والداي وقريباتي وأقربائي وأقرباؤهم، ووالدا آشر، وقريباته، وأقرباؤه وأقرباؤهم. والغريب في الأمر أنَّ أجداد آشر اشتروا قطعاً من الأراضي مُجاورة لأجدادي – وربما كانوا قد اشتروها في الوقت نفسه تقريباً من دجّال أو مُهرِّج من بروكلن أو من الحيّ الشرقي السُفلي. كان أفراد الجيل الأول من الأشكيناز كلهم قد أسّسوا جمعيات دفن من أجل أنْ يشتروا أرضاً يدفنون فيها موتاهم *الخاصين*. وتخصيص أرض للموتى من التقاليد اليهوديّة. إننا نمشي على الأرض ومن ثم نُدفَن تحتها.

إنَّ ردم التراب فوق التابوت يُحدثُ صوتاً موحشاً جداً. وتُدركُ فجأة أنك *تتركهم* هناك. كيف تقوى على ترك أمك وسط التراب البارد؟ وتفغر حفرةٌ فاها داخل قلبك، في الضفيرة الشمسيّة، في الـ*kishkas* (الأحشاء).

كلا، كلا، كلا، كلا. كيف يمكن أنْ أترك أمي الوحيدة هناك؟

وهكذا انتقلنا من قبرٍ إلى آخر، تاركين وراءنا علامات من حجارة، على عادة اليهود. ذهبنا إلى هناك، وتلقّينا العزاء، ثم عدنا إلى المنزل. ولكن ليس لفترة طويلة.

***

قالت إيم «هيا نرتّب أغراضها».

«أينبغي أنْ نفعل؟».

قالت أختي «نعم، نيس».

وهكذا باشرنا بالعملية الرهيبة في الخوض في الغثّ والسَّمين من أشياء.

عثرتْ إيم على صندوق، وعلى كرتين من النحاس. لعلهما من مجموعة[54] Ben Wa Balls. ما حاجة والدي إليها - أمن أجل أمي؟ أم من أجل امرأة أخرى؟ أخرجتها إيمي. كانت تقرع ونحن ننقلها بين أيدينا.

قالت «إنها كرات أبي النحاسيّة. إنها من حقّك!».

أكان ما قالت مديحاً؟ أم إهانة؟ وقرّرتُ أنْ أعتبره مديحاً. على المرء دائماً أنْ ينتقي هذا الخيار.

قلت «شكراً لكِ، إيم. أنا في حاجة إليها. يُسعدني أنْ أحتفظ بها». ولم أبُحْ بما جال في فكري عن الكرات. وألحّت أختي الصغرى - التي لا تزال أصغر سناً بخمس سنوات وأكثر براءة (على الرغم من أننا نحن الاثنتين كنا نحوم حول عامنا الستين) - على اعتقادها بأنها كرات والدي النحاسيّة - والتي بوصفي «صبيّ» العائلة تصبح من نصيبي.

لاحقاً، في المنزل، وزنتُ ثقلها بيديّ وتيقّنتُ من أنها لا بدّ هدية «فاحشة» من أصدقاء «فاحشين». كان أصدقاؤهما دائماً يرسلون هدايا

54 - كرات من نحاس تُستخدم طبياً لتنظيف المسالك التناسلية، وتُستخدَم في بعض الممارسات الجنسيّة الشاذّة.

فاحشة على سبيل النكات، كنتُ أمتعض منها في عهد المراهقة. ولما كان والداي منفتحين في أمور الجنس و«الفحش»، كان لديهما أصدقاء يهتمون بالفن مثلهما يجلبون تلك التحف الرخيصة التي تصلح هدايا إلى حفلاتهم التي لا تنتهي. وربما لم يستخدمها أي منهم كـ Ben Wa Balls أبداً. على الأقل هذا ما تمنّيت.

أتذكّر ذات مرة، قبل زمن بعيد، في حفلةٍ أقامها والداي في قاعة الرقص الكبرى في الشقة، أنني لمحتُ (وأنا على الدَرَج) صديقةً لهما تتعرّى من ملابسها وهي ثملة وتغني «أحبّ أنْ أشرب، أحبّ أنْ آكل، أحبّ أنْ أنيك!».

وامتلأت نفسي بالاشمئزاز - كما تشعر المراهقات حيال العلاقة الجنسية بين الوالدين. لكنني أيضاً فُتِنتُ. وقرّرتُ أنْ أمارس حياتي الجنسيّة بصورة مختلفة.

فهل فعلت؟ هذا السؤال أعمق بكثير من أنْ أخوض فيه وأنا أفتش بين الغثّ والسَّمين من الأشياء!

المجوهرات كانت مسألة مختلفة.

كلنا أردناها. كنا ثلاث بنات والنتيجة؟ شجار حول اللآلئ.

كانت أمي بوهيميّة، هيبّية ثرية، فتاة تضع وردة في شعرها - لكنها كانت تحبّ المجوهرات. وقبل أنْ تموت البحار، كانت مع أبي مثّلتا في طوكيو، وهناك الكثير والكثير من اللآلئ. لآلئ من النوع الذي يجعل البنات يُصبن بالدوار من شدة رغبتهن فيها. لم تكن من النوع الرخيص السخيف الذي يوجد في المياه العذبة الذي يتداولونه الآن - بل لآلئ كبيرة الحجم، لآلئ مابيه[55]، لآلئ متشابهة بلون الكريم، لآلئ ورديّة تلمع كحلمات غضّة، لآلئ باروكيّة تومض باللونين الأزرق والأخضر كمخلوقات فضائية كرتونيّة (النوع الرخيص)، لآلئ ذهبيّة، لآلئ فضيّة، لآلئ بيضاء بلون لؤلؤيّ لكي توضع على صدور عارية كأنكِ إحدى محظيات العصر الجميل عند كوليت - أو في الحقيقة عشيقها.

---

55 - نوع من اللآلئ كبيرة الحجم التي تتشكّل داخل الصَدَفة - المترجم.

كنتُ قد قرأت رواية «شيري» و«نهاية شيري» مرات عديدة وحلمتُ بعشيقٍ يرغب في ارتداء لآلئي - وأخيراً يُطلق الرصاص على نفسه بسبب حبّه لي. على الرغم من أنَّ ليس حب ليا ما تسبَّبَ في قتل شيري، بل استحالة إيقاف الزمن.

كان يُشبهني. لقد *كان* أنا - لكنني لم أكن أحمل مُسدساً. وبمسدس أو من غير مسدس، كنتُ سأتقبّل الشيخوخة كما تقبَّلتها ليا ولم يتقبّلها شيري - وأتنقّل على سُلَّم الحياة صعوداً وهبوطاً.

رنَّ جرس هاتفي. كان دائماً يرنّ في أشدّ الأوقات غير المناسِبة.

قالت إيم «هاتفك».

قلت «نيكي هاتفي».

قالت «كلا شكراً».

عانقتها. لم يكن في نيّتي أنْ أخبرها عن الأوهام الجنسيّة التي تأتيني عبر هاتفي. والداي كانا شهوانيين. فكم دام ذلك؟ آمل أنه كان زمناً طويلاً. ولكن كأيّة ابنة، لم أرد أنْ أفكّر في هذا وأغوص في الأخيلة. كنتُ أعلم أنَّ والدي تردَّدَ على صالونات التدليك التي تنتهي نهاية سعيدة في فترة ما من الجزء الأخير من حياته. عِلمتُ ذلك لأنني رأيتُ فواتير بطاقته الائتمانيّة في تلك الفترة. ماذا يمكن أنْ تعني عبارة «نهاية آسيويّة» غير ذلك؟ المزيد من القوة له! الجنس هو الحياة - لكنَّ الأولاد لا يريدون أنْ يعتقدوا أنَّ آباءهم يفعلون ذلك.

انتقلنا إلى المجوهرات. إنها أقلّ تشويشاً. أرادتْ إيم اللآلئ الورديّة الكبيرة. وكذلك أردتُ أنا.

قلتُ «يجب أنْ نتّصل بأنتونيا».

قالت إيم «إنها لا تريد مجوهرات. تريد فقط مالاً».

«ولكن يجب أنْ تُتاح لها الفرصة!».

قالت إيم بمرارة «فلتذهب إلى الجحيم. إنَّ لديها من المال أكثر مما لدى أي منا - ولديها أكثر من الأولاد».

«لم أكن أعلم أنَّ الأمر يزعجك. أنتِ لديك المخزن وكل الكتب النادرة».

«كان ذلك أقلّ ما يمكن الحصول عليه بما أنَّ زوجي المسكين هو الذي أنقذَ أعمالنا من الانهيار!»

«يا إلهي، يا إيمي، أحقاً تعتقدين هذا؟».

«أنا لا أعتقد - بل هذه حقيقة واقعة. الحقيقة هي حقيقة هي حقيقة. أنتِ كنتِ غائبة تصنعين أفلاماً وتتزوجين، وتتزوجين من جديد. وكانت هي بعيدة تعاني الهستريا في أيرلندا وتنجب الأطفال! ونحن هنا نعتني بالجميع في أحوالهم المتدهورة. ليست لدينا حياة خاصة بنا!».

«ماذا؟ لقد حصلتِ على الحياة الذي أردت - محل بيبلومينيا - الكتب، دفاتر التواقيع، الوحدات الأبويّة التي تناسب معها. هذا بالإضافة إلى المبنى في الشارع السابع والخمسين، وقيمتها كلها لا يُستهان بها».

«هل تدركين عدد الرهونات التي كانت عليها؟ لقد كان والدي سمسار عقارات فاشل جداً. ومع وصول إرثها إلينا، كانت قد راكمتْ ثلاثة رهونات!».

«لكنكِ بعتِها مقابل ثروة!».

«ثروة؟».

«حسن، أخبريني بكم بعتِها؟».

قال إيم «ليس بالكثير».

«بكمْ؟»

«حسن، إذا ذكرتُ لك رقماً، فسوف يُضلِّلُك».

«التزمي بالحقائق أرجوك، يا إيم؛ أنت تحبين الحقائق!».

«حسن، بعد الرهونات، ونفقات إدارتها، ونصيب ماما والبابا، فإنَّ الـ...».

«هيا، إيم، لقد سمعتُ أنكِ حصلتِ على أكثر من مائة مليون».

«هذا كذبٌ سافر! مَنْ أخبركِ هذا؟».

«لا أتذكّر».

«لكنَّ زوجك ثريّ ثراء كروسوس»[56]، وفي آخر مرة نظرت، كانت لديك خمسة منازل – في نيويورك، ولندن، وباريس، وآسبن، وروسيلون، هذا غير اليخت، الأطول من غالبيّة المُجمعات السكنيّة!

«هل أوقفتها على طولها وقِستِها؟ أنتِ تُذهليننني، يا إيمي. لم يخطر في بالي أنكِ شديدة البراعة في إحصاء أموال الآخرين!».

«لقد كان مجرَّد مبنى آيل إلى السقوط».

«مبنى صغير آيل للسقوط في الشارع السابع والخمسين – بجوار ستانواي هول!»[57]

لم تُجِبْ إيم لكنها بدت نكدة. لم تكن سعيدة بما آلتْ إليه حياتها. تلك كانت المشكلة. وليس هناك أي مبلغ من المال يمكن أنْ يحلّها. يمكن للمال أن يُحرّك العالم، ولكن لا يمكنه أنْ يُنقذ عائلة من تعاستها. أو زواجاً من خيبته. أو شعورك بأنك لم تُجازف بحياتك من أجل الفرح.

افترضتُ أنها لا تمتلك مبلغاً ضخماً من المال من أجل مخزن الكتب القديم المبني بالحجارة البنيّة. لم أكنْ منتبهة. لا شكّ في أنَّ والدي حصل على حصّته، لكنَّ إيم وزوجها المتوفى قد حصدا ما تبقّى – مهما كان مقداره. لا شكّ في أنه كانت هناك نفقات. إنها موجودة دائماً – ضرائب، فوائد الرهن، محامون، مُحاسِبون، إلى آخر اللائحة. هناك *دائماً* تكاليف يجب أنْ تُدفَع، ولكن هذا لا يعني أنها لم تحصل على أي شيء. كل ما في الأمر أنها أرادتْ أنْ تُصدِّق هذا، وأنا لم أُصدّقه. لقد شعرتُ بأنها سرقتْ ميراثي في مقابل شهرتي البائسة، وكنتُ شديدة الغضب. وصمّمتُ على الحصول على أفضل اللآلئ. يجب أنْ أتخلّى عن الأمر.

---

56 – كروسوس (توفي عام 546 ق.م؟): آخر ملوك ليديا. كان مشهوراً بثرائه الفاحش – المترجم.

57 – ستينواي هول: مبنى ضخم وفخم في نيويورك يضم قاعات لعزف الموسيقى والعروض المسرحية وصالات البيع... إلى آخره – المترجم.

ما الداعي إلى التقاتُل من أجلها؟ إنَّ لديّ ما يكفي. على الأقلّ هذا ما اعتقدتُ في ذلك الوقت. لكنني كنتُ حانقة؟ لقد استولتْ أختي الصغرى على ميراثي. لعلّه كان مجرد مبنى قديم مُتداعٍ من الحجارة البنيّة تنبعثُ من دَرَجِه رائحة غريبة والمزيد من الكتب النادرة تفوق قُدرتنا على جردها بصورة صحيحة. ولعله كان عفناً إلى درجة أنه غير قابل للتجديد، لكنَّ موقعه ممتاز، وكان والداي قد اشترياه في عام 1951! كانت تلك طريقة عائلتي في انتقاد عقارهما بشدّة، وفي الشكوى من توظيفاتهما، لكي تُبعِد عين الحاسد الشريرة. ولكن إذا تذكّرتَ أنهما بدأا بشراء دفاتر التواقيع قبل أنْ يعلما قيمتها، وأنَّ عقارهما كان قائماً في منطقة تزداد فيها أسعار العقارات باطِّراد، وأنّهما كانا يتمتعان بذائقة ممتازة ويعرفان كل نجوم السينما والفنانين، والمؤلفين الموسيقيين في زمنهما - تعلم أنه مَنْ يأخذ أغراضهما فسوف ينتهي به الأمر إلى أنْ يُصبح قاطع طرق.

لقد أردتُ اللآلئ الورديّة، اللعنة! وسوف أنالها - بالإضافة إلى الكرات النحاسيّة!

بحثنا عن اللآلئ التي كانت أمي تحتفظ بها داخل صندوقٍ مُقفل مُقحَم داخل حفرة في غرفتها تحت السجادة الصينيّة بلونها البنفسجي الخفيف.

فتّشنا عن المفتاح على مدى ساعات، وعثرنا عليه داخل صندوق للمجوهرات في غرفة ملابس أمي، وفتحنا الخزنة الأرضيّة ونحن محبوستا الأنفاس. كانت ممتلئة بتلك الحقائب والصناديق الحريريّة الصغيرة التي كان الصاغة اليابانيون يعرضون اللآلئ داخلها، ولكن لم تتبقَّ فيها أية قلادة. كانت هناك بضع لآلئ متفرقة - مخدوشة ومتفاوتة الأحجام - ولكن لا قلادات، ولا خواتيم، ولا دبابيس، ولا أقراط.

انتحبت قائلة «أين ذهبتْ؟».

قلت «أين ذهب أي شيء؟ إنَّ اللآلئ مخلوقات حيّة، وتجري مبتعدة».

قالت إيم «*أنت* أخذتها!»

«ليتني فعلت، لكنني لم أفعل».

رمتني إيم بنظرة حانقة كما ينظر مرتهن إلى مُجازفة سيئة. «قولي الحقيقة».

قلت «أنا دائماً أخبرك الحقيقة. وأنت دائماً تعتقدين أنني أكذب».

«فمن بحق الجحيم أخذها؟».

«يمكن أنْ يكون أي شخص - أحد المعتنين بها، ممرضة، طبّاخة. هناك العديد من الأشخاص ولجوا حياتها وخرجوا منها. وهذا يحدث طوال الوقت. كانت صديقتي ليفيا قد أخبرتني بعد وفاة والدتها: لم يتبقَّ في الخزنة غير فأر من مطّاط»، وقالت كلاريسا «لقد استبدلوا الحجارة الكريمة التي كانت تكسو طائرها الكناري الضخم بالزجاج». إنَّ الأحجار الكريمة تمشي ويبقى بريقها في أذهاننا. ربما لم توجد أصلاً - كالجوهرة الضخمة بحجم فندق الريتز[58] أو الغابات المُرصّعة بالأحجار الكريمة الخاصة بالأخوات الاثنتي عشرة الراقصات[59]

قالت إيم «اللعنة! كان ينبغي أنْ تُعطينا إياها قبل سنينٍ عديدة»

قلت «أعتقد هذا». ولكن في سرّي كنتُ مبتهجة لأنَّ إيم لن تحصل عليها. لا أحد سيحصل عليها.

«أحياناً تتفلسفين - على الرغم من كل الجواهر التي منحك آشر إياها!».

«هل تريدينها؟ هل تقايضينها بطبعة فوليو[60] من أعمال شكسبير؟».

نظرتْ إيمي إليّ بسخرية. نعقَتْ «لقد بعتُها منذ زمن بعيد».

قلت «دعينا لا نفعل هذا مرة أخرى. أنا مُرهقة». لماذا كنتُ أتقاتل حول المال والمجوهرات مع شخص أحبّه حبّاً جمّاً؟ لقد أردتُ أنْ أستعيدها كلها. ولعلها هي أيضاً أرادت ذلك.

---

58 - «جوهرة ضخمة بحجم فندق الريتز»: عنوان قصة قصيرة للكاتب الأميركي ف. سكوت فيتزجيرالد - المترجم.

59 - الأخوات الاثنتي عشرة الراقصات: عنوان قصة خرافية ألمانية - المترجم.

60 - طبعة فوليو: هي الطبعة الأولى الأصليّة من الأعمال الكاملة لوليم شكسبير التي صدرت عام 1623 - المترجم.

قالت إيم «وأنا أيضاً».

أقفلنا الخزنة الفارغة، ولففنا السجادة، وغادرنا من الباب الأمامي. ذات يوم سوف أُضطَرُّ إلى أنْ أجد الغفران من أجل أختيّ ومعهما. كان ذلك تحدّي حياتي التالي.

بعد أنْ دفنّا أمي، لم أستطع أنْ أُصدِّق أنها ماتت. كنتُ أستيقظ في الصباح الباكر وقد تراءت لي مستلقية على السرير كالمعتاد في الجانب المقابل من المُتنزّه.

أعاتبُ نفسي قائلة «يجب أنْ أقوم بزيارتها!». ثم أتذكَّر أنَّ ما تبقّى منها ووريَ الثرى في المقبرة. لكنَّ ذكرياتي عنها تغيَّرتْ. بدل الجثة المئويّة المُخيفة المتمددة على السرير، أصبحتْ الأم الحيويّة في أيام شبابي. كانت تتزلج على الجليد، وترقص، وتقفز، وتصرخ، وممتلئة بالنشاط. وعلى الرغم من فشلي في العودة في الزمن إلى الخلف، بدا لي أنها هي استطاعت. كان ذلك هو سرّ العودة في الزمن إلى الخلف. ولكي تفعل هذا يجب أنْ تموت أولاً.

شعرتُ كأنَّ شخصاً دكَّ كل الأُسُس من تحتي، وكأنني كنتُ أطفو في الفضاء ولا أرض أستقرُّ عليها. ثم أذهبُ إلى منزل غليندا وأُحدِّقُ إلى الشكل الذي لا ينام لحفيدي، ليو. الآن أصبح هو سبب رسوخي. لقد كان صخرتي – على صِغَر حجمه.

إننا نَثبُتُ بهذه الحياة بصلاتنا بالآخرين – بالعائلة، والأصدقاء، والعشّاق. وإلا انجرفنا إلى الفضاء. وتمنّيتُ لو أنَّ إيزادورا معي هناك، لكنها كانت قد انطلقتْ في رحلة طويلة إلى الهند.

في المرة التالية ذهبتُ إلى شقة والديّ، فوجدتني وسط مسرحيّة. كان المكان ممتلئاً بالحمّالين، والصناديق، والأقرباء يُصنّفون الصور الفوتوغرافيّة القديمة، وتجّار الخردة، وسماسرة العقارات، والدهّانين،

وكاشطي الأرضيّة، والفضوليين. لم يخطر في بالي أننا سوف نبيع بقايا العائلة، لكنّها كانت ثمينة جداً ولا يمكننا المُحافظة عليها وكنا في حاجة إلى نقود. وكان والداي قد استأجراه ذات يوم مقابل مائتيّ دولار في الشهر والآن أصبح يساوي ملايين. لذلك كان علينا أنْ نتخلّص من أطنانٍ وأطنانٍ من الأغراض - لا أحد لديه مُتّسع للاحتفاظ بها. الصور الفوتوغرافيّة كانت الأسوأ، إنها حُثالة حيوات ضائعة.

ما أردتُ حقاً أنْ أفعل كان إنشاء مُتحف لوالديّ - أغطي جدرانه بصور فوتوغرافيّة، وبالصور الشخصية لهما ولبناتهما - نحن! - مُتحف لا يمكن تدميره. مكان إقامته واضح: محل بيع الكتب القديم ببيلومينيا بروائحه الغريبة وجدرانه المُبقّعة. لكنَّ أختَيَّ كانتا قد باعتاه. والآن نستعد لبيع الشقّة. سوف تُختزَل ذكرى أبَوَيّ إلى قبرَين ضيّقين، آخر عِقارَين لهما. ولن يضمَّ أي متحف للبراءة أو التجربة ذكرياتهما. سوف يُباع كل شيء بسبب الافتقار إلى المكان. إنَّ الذكريات تفسح المكان للمال.

ليتني أؤمن بالله - في الحقيقة بأي إله. بلاكشمي، بغينشا، بيسوع، بالله Allah. ليتني آمنتُ بأنَّ أمي لم تكن تتعفّن في تابوتها تحت الأرض. ليتني آمنتُ بأنَّ حياتها تعني شيئاً آخر غير إنجابي وإنجاب أختَيّ. ليت هناك آلة حاسبة ذهبيّة تُقدِّر قيمتها في السماء أو صعوداً ملائكيّاً أو انتقالاً إلى القداسة - شيئاً يجعل لحياتها معنى بعد أنْ غادرتْها، شيئاً إلى جانب شهرتها وبناتها المتقدمات في السن. لِمَ لا أؤمن بإله وأو إلهة أو نعمة إلهيّة؟ لِمَ أصبحتْ حياتها ركاماً من الغبار - وحياتي أيضاً؟ إنَّ كل فرحها بالحياة، وغضبها، وموهبتها تتعفّن الآن في تابوت. يقول المثل الإيطالي «بعد انتهاء اللعب، يتمدد الملك والمملوك في التابوت نفسه».

والملكة والمملوكة أيضاً. ليتني آمنتُ بأنَّ التناسُخ يلي الموت. ليتني آمنت.

لكنَّ بوذا لم يؤمن بالمولد ولا بالموت. عندما تتوفر الظروف الصحيحة، يظهر المخلوق. وعندما تغيب، يبقى المخلوق مُستتراً. لقد

استترتْ أمي الآن. لعلها تظهر من جديد بشكل آخر. طالما آمنتْ هي نفسها بذلك. كانت مولعة بالأزهار وبالفاكهة وبالخضروات وما كانت لتُمانع في أنْ تُحمَل إليها كما تُحمَل أزهار الدهليّة، والورد، أو عود الصليب. وحتى الخوخ. أو البندورة. كانت تعرف أنَّ كل شيء مترابط.

أكان هذا مواسياً؟ نعم ولا. إنَّ المولد والموت مفهومان لا معنى لهما في البوذيّة. ترتفع الموجة إلى ذروتها، وتندفع قُدُماً، ثم تنكسر وترتفع من جديد. ونحن أمواج سوف ترتفع من جديد، وتسقط من جديد، وترتفع من جديد. نحن لسنا مادة صلبة بل مائعة. نحب البحر لأننا نحن البحر. الموجة هي موجة هي موجة. مع الاعتذار لغرترود شتاين[61].

أرسلتُ صفحات إيزادورا إلى وكيلتي فجُنّت من شدّة إعجابها بها. كنتُ أعلم أنني لستُ مُخوّلة بمشاركتها، فقلت للوكيلة إنها كُتِبَتْ بيد صديق اسمه ويل وايلد. ولكن لن أقول من أين جلبته. هل ويل من اسم شكسبير؟ ووايلد من أوسكار؟ المؤلفان المُفضلان لديّ. ولكن مَنْ يهتم؟ إنَّ الأسماء أقل أهمّية من الرؤية.

باعت وكيلتي كتابها إلى شركة سينمائيّة مقابل مبلغ فاحش من المال ومن ثم بيعَ إلى شركة نشر لقاء مبلغ فاحش آخر.

وشعرتُ بتوتُّر شديد لأنني سأخبر إيزادورا. لم يكن لديّ الحق في فعل ذلك والآن بدا أنَّ ويل وايلد على وشك أنْ يُصبح نجماً.

كان ويل وايلد وحيداً على الكوكب، مُستعداً لإطلاق عمله الأول. ماذا سأفعل؟

---

61 - قالت: «الوردة هي وردة هي وردة» - المترجم.

الجزء الرابع

الصيف

-16-

بوليوود في غوا

«لأنهما عاشا طويلاً وعرفا أنَّ الحب كان دائماً حباً ـ في كل زمان ومكان، لكنه يشتدّ صلابة مع اقترابه أكثر من الموت».

• غابرييل غارسيا ماركيز. من رواية ***«الحب في زمن الكوليرا»***.

إنّ أهمّ ما ينبغي تذكّره هو أنَّ الحياة مهزلة. هنا فقدتُ والدي، وأمي، وكلبتي، وكدتُ أفقد زوجي، لكنني بقيتُ قادرة على رؤية عبث الحياة. وذلك عندما تلقّيتُ دعوة لزيارة الهند. وكان ذلك شيئاً رائعاً بما أننا كنا في الأصل نُخطِّط لنقوم بجولة في الهند.

لا تمُتْ قبل أنْ تشاهد الهند. كان الحظ حليفنا لأننا في الوقت الذي قرّرنا أنْ نهرب من نيويورك إلى شبه الجزيرة الرائعة والمُخيفة، تلقّيتُ دعوة للمشاركة في مهرجان سينمائيّ أُقيم في غوا. وبدا أنَّ عرضي التلفزيوني القديم الجليل، «*عالم بلير*» قد حقّقَ نجاحاً ساحقاً في الهند. وفي الوقت الذي كان ملايين الهنود يُشاهدونه ويتطابقون معه كنتُ قد نسيته.

إنَّ أغرب شيء في عالمنا بوسائل إعلامه التي لا تُنسى هو المسافات التي تصل إليها ومدى دوامها. وفي مجرات نائية، ثمة مخلوقات فضائية تشاهد مسلسل «*أحبّ لوسي*» وتحاول أنْ تفهم معنى ما يجري فيه. وأستطيع أنْ أتخيَّل يوماً تُصبح فيه الأرض غير مأهولة إلا من مسلسلاتنا التلفزيونيّة تتدفق في الفضاء. فهل هذا هو معنى الخلود؟

كنتُ قد زرت الهند قبل ذلك ولكن ليس آشر. على أي حال، إنَّ الهند بلاد متنوعة وشاسعة بصورة مُذهلة بحيث من الصعب التعرُّف إليها إلا بعد القيام بألف رحلة. ويجب أنْ تعيش هناك فقط لتبدأ لكي تستحسن عبق رائحتها وتنوّعها المُذهل. إنَّ الهند كونٌ شاسع مملوء بالألوان والروائح والعجائب والرعب. وكنتُ قد رزتُ بومباي، ونيو دلهي، وراجستان وعلِمتُ أنني فقط لامستُ السطح الخارجي لشبه الجزيرة. طبعاً، وسخرتُ كثيراً من احتمالات أنْ تُغيِّر الهند حياتي. لم أكد أصدّق أنَّ مثل تلك الأمور ممكنة الحدوث. لكنني كنتُ في حاجة إلى فترة استراحة من كل تلك الميتات التي أرهقتني – وبدا أنَّ الهند هي المكان المناسب للّجوء إليه. وكنتُ قد قرأتُ مؤخراً كتاباً مُضحكاً ومؤثّراً تجري أحداثه جزئياً في فارانسي واعتقدتُ أنه أبرز مواطن التفاوت الهائلة في الهند – الروحانيّة والقذارة، القداسة والدجل، أعلى مستوى التحضُّر وأسفل مهزلة. لقد علِمتُ أنّ علينا أنا وآشر أنْ نذهب إلى الهند معاً، لكنني لم أكن قد علِمت السبب. خلال فترة مراهقتي كنتُ قد قرأتُ راباندرانات طاغور وانتشيتُ. ولاحقاً وقعتُ في حب الهند وِفقاً لتجارة العاج. ولاحقاً قرأت رواية إ. م فوستر «*ممر إلى الهند*» بلا رحمة، متأمّلة في الشخصيات التي ربما ألهمته بها عشيقته الهنديّة. لم أكنْ أعرف أنَّ أياً من تلك الصور عن الهند – ولا الصورة التي رسمها هرمن هسّه ولا صورة سلمان رشدي ولا صورة كيران ديساي – تمثّل الهند الحقيقيّة. ربما لم تعد هناك هند حقيقيّة كما أنه لا توجد أميركا حقيقيّة. ومع ذلك، كان لا بدّ من أنْ أذهب من جديد. وفي وقت من الأوقات كانت مدينة

البندقية هي المكان الذي وجد فيه الأميركيون والأوروبيون قصراً ثميناً يحمل شكل وروح القرن التاسع عشر. وفي القرن الحادي والعشرين، الهند هي المكان. إننا نستحضرها بوصفها مكاناً مثالياً - مُبرِزاً حاجتنا إلى هندٍ مُتخيَّلة. ولم أكنْ أختلف عن أي حالم مُضلَّل آخر.

انطلقنا إلى دبيّ على متن الخطوط الجويّة علي بابا - بما فيها من غرف خاصة، ودش، وغرف نوم تفوح بعطر الورد. إنّ خطوط علي بابا الجويّة تجعل باقي الخطوط الجوية تبدو أشبه بناقلات مواش. مُضيفات الطائرة دائماً يجلبن إليك المناشف الساخنة - التي هي في الحقيقة مناشف لكنها ليست ساخنة على الإطلاق - ومنامات من الحرير وخفّاً مُزخرفاً. وتتوفر أطباق صغيرة من المُشهيات سواء أكنتَ مُسلماً، أو هندوسياً، أو يهودياً، أو لا شيء مما ذُكِر. لا تجد أياً من الأطعمة المُحرَّمة أو تراها أو حتى تتذوّقها. والأسلوب الذي يُنجِز به طاقم العمل هذا كله مُذهل. لكنهم أنجزوه. وطرنا وطرنا وطرنا إلى أنْ توغّلنا عميقاً داخل الماضي الأسطوريّ. الحاضر الأسطوريّ.

ظلّتْ غوا مُستعمَرَة برتغاليّة حتى حقبة الستينيات - وهذا كافٍ بصورة لا تُصدَّق. وتضم غوا كاتدرائيات رائعة، وساحات عامة تبدو أوروبيّة بكل وضوح، وذكريات عصرها من محاكم التفتيش. إنّ سحر تاريخها لا ينضب.

كان المطار مثالاً للفوضى الهنديّة النموذجيَّة الشاملة. إذا وضعتَ حقيبتك أو هاتفك الخليوي جانباً، فسوف يُسرَق بأسرع من نطقك كلمة «ماهاريشي». ترى سيخاً بعماماتهم، وعرباً بردائهم الأبيض الطويل، ونساء يضعن البرقع أو يرتدين البلو جينز. يمكن مُشاهدة تنوُّع العالم بأكمله في مطارٍ هنديّ. بحثنا حولنا عن أي أثر لراعينا - بوليوود في غوا - وأخيراً شاهدنا يافطة تقول «السيدة بلير وضيفها».

افترضتُ أنَّ التلويح بالأيدي، والتهليل الطارئ كان من أجلي. كنا فريقاً من خمسة أشخاص: امرأة شابة ممشوقة القامة اسمها بارفاتي

ترتدي ساري بلونَي الكريم والذهبي؛ وحمّالها يضع عمامة ذهبيّة؛ وثلاثة رجال يضعون عمامات من المؤتمر لم تكن أدوارهم قد اتّضحتْ في الحال. تناولوا حقائب أيدينا ورافقونا إلى إحدى السيارات.

قالت بافراتي «أنا مُرافقتكما إلى المؤتمر. وسوف أصحبكما إلى كل مكان وأُسهّل لكما الأمور كلها. لا تقلقا بشأن باقي حقائبكما. سوف يُحضرها زملائي ويحملونها إلى فندقكم».

أخذت إيصالات الأمتعة مني وأبعدتْ الرجال الثلاثة بحركة من يدها.

قلتُ لآشر بقلقي المعهود «لن نرى أمتعتنا بعد الآن».

قال «إذن سوف نجلب أمتعة جديدة. لا تقلقي». كانت الهند قد بدأتْ تشيع السكينة في روح آشر. لكنَّ الهند لم تكن السبب الرئيس – بل لأنه نجا من أزمة اقترابه من الموت. وأنا أيضاً نجوت منها. إنْ كان التأمُّل يبحث عن النور في نفسك، فإنني لمحته. لقد احتجتُ إلى الجنس إلى درجة أنني لم أدرك أنه يختلف عن الحب.

لعله المناخ، أو الرطوبة، أو الألوان الصارخة – أو في الحقيقة قد يكون تعب السفر – لكنَّ الهند، كالاقتراب من الموت، تنفحك شعوراً مختلفاً بحياتك. كأنك تولد من جديد. ها أنت في مهد الدين والحضارة العريقة وتشعر بإمكانيّة بدء حياتك من جديد.

صحيح أنَّ البحث عن التنوير يبدو متواصلاً داخل النفس الإنسانيّة. وكل حضارة تفهم هذه الرحلة بصورة مختلفة – وفي عصرنا أفسحتْ الرحلة إلى الهند مكاناً خاصاً في القلب الإنسانيّ. هناك تتعرّف على هويتك وعلى ما تؤمن به. إنها سِمة أجنبيّة وغريبة أنْ تلعبَ الهندُ الدورَ الذي لعبته إيطاليا بالنسبة إلى خبراء القرن الثامن عشر. ولديّ العديد من الأصدقاء ذهبوا إلى الهند ليُغيِّروا حياتهم، وادّعى معظمهم أنها فعلت. إنَّ الهند وعاء يغلي من الأساطير والألغاز. الهند هي مِحكّ أكثر منها قبلة للسائح.

عندما وصلنا إلى جناحنا، اكتشفنا أنَّ أوراق الورد منثورة على غطاء سريرنا الواسع الحريري ذي اللون الذهبي وساقيان شابان وسيمان بعمامتين على استعداد لفتح حقائبنا في غرفة تغيير ملابس فيها بركة من الرخام. أبعدهما آشر بحفنة من الروبيات وانطرحَ، كما فعلتُ، على السرير. نمنا نحن الاثنان مدة طويلة جداً. وفي أحلامي بدأتُ ألج وأخرج دون توقف بين مراحل حياتي المختلفة - ومن جديد سافرت عبر الزمن وكأنَّ الهند ثقب دودة داخل الماضي. كانت أحلامي شديدة الحيويّة حتى أنها بدتْ كأنها ليست أحلاماً. وقُبيل أنْ أستيقظ مباشرة، راودني أحد أحلامي بالقضبان - قضبان ورديّة، قضبان بنّية، قضبان صفراء - وكلها منتصبة وصلبة وتستعد لتنكحني. ثم استيقظَ آشر ومارسَ الجنسَ معي حقاً ببطء. لقد غيَّره حُلمي، جعله حسّاساً بطريقة جديدة. وتلاحمنا معاً كجزأين من شخص واحد. ولم أفهم هذا من قبل لكنني الآن فهمت. لم يحدث من قبل أنْ أخذنا وقتنا في ممارسة جنس بطيء في عالم مُسرِع. تذكّرتُ عبارة إيزادورا - «جنس بطيء في عالم مُسرِع».

أو ربما كان السبب هو الهند. لقد عادتْ إليه شهوته الجنسيّة. أو المُحتمل أننا نحن الاثنين عُدنا شابّين من جديد، كما رغبتُ، أو ربما كانت المرة الأولى التي تخلّيتُ فيها عن التحكُّم. وإنْ كان للنشوة وجود في أي مكان، فإنها حتماً موجودة في الهند. لعلّي كنتُ أختبر للمرة الأولى ما تحدّثتْ إيزادورا عنه. أكان هذا استسلاماً؟

أنشد آشر «نيس، نيس، نيس» وهو يغوص في مركزي الرطب. بعد ذلك نهضنا واغتسلنا في البركة الرخاميّة. شعرتُ، وأنا جالسة في الماء الدافئ المملوء ببتلات الورد، كأنني أعيش من جديد تجربة الأسبوع الأول الذي قضيناه معاً في مغطسي الحارّ في فيرمونت. أمضينا ساعات طويلة نتبادل الأحاديث الحميمة، نتبادل حكاية قصص من حياتنا. وامّحى الزمن بيننا - كما امّحى في أول لقاء لنا. وتذكّرتُ الأسباب كلها لحبي له، وشعر هو بذلك. وكأننا انتقلنا إلى مستوى جديد من الفهم.

قال آشر «لم يعرفني أحدٌ حقاً قط قبل أنْ أقابلك».
قلت «ولا أنا أيضاً حدث معي هذا. وأردتُ أنْ تعرفني من كل قلبي».
قال «أو من كل كسّك. هل يصلح هذا التعبير؟».
قلت «أصبحَ يصلحُ الآن».

دُعينا ونحن مُتعبَين لنظهر في حفلة فخمة يُقيمها على شاطئ البحر أحد رُعاة المؤتمر – أحد أساطين بيع الهواتف الخليوية لديه من المال أكثر مما لديه من حُسن الذوق. كان منزله سُرادقاً من الرخام الأبيض صُمّمَ ليكون نسخة مُصغّرة من تاج محل أغرا. كانت زوجته ترتدي البياض، وهو أيضاً ارتدى البياض، وارتدى خدمه ونُدُلُه[62] القرطاس القرمزيّ. الطعام كان مزيجاً من الأطباق الغربيّة والهنديّة قُدِّمت على صوانٍ لامعة كالمرايا.

أخبرني «كنتِ مُبدِعة بدور بلير. ماكرة، متآمرة ومُنافقة، كغالبيّة الجميلات. هل أنت كذلك في حياتك؟».

قلت «آمل ألا أكون. كان المقصود أنْ تكون نذلة، لا ملاكاً».

«حسن – لقد أحبّتكِ نساء الهند ورجالها أيضاً – ونحن جميعاً نركع عند قدميك. نحن نعتقد أنكِ لستِ أقلّ من تجسيد لكالي».

«هل ينبغي أنْ أشعر بالإطراء؟».

«من غير شك، يا سيدتي العزيزة. إنَّ كون المرء شيطاناً أشدّ تأثيراً من كونه طيباً».

عند هذه النقطة، اندفعتْ زوجته، وقبضت على يدي، وقبّلتها بحبّ. قالت بحماقة «لقد كشفتِ عن روح المرأة. لقد حرّرتِ الدراما من روح المرأة».

لم أدرِ كيف أستجيب لكنني تذكّرتُ أنَّ عبارة «شكراً لك» تنفع لكل الأغراض.

---

62 – نُدُل: جمع نادل: خادم.

أخبرتُ مضيفتي «شكراً لك، شكراً لك. أمرٌ لطيف أنْ تدعيني».

«وقد تلاحظين أنَّ حلقات برنامجك تُعرَض في حلقات واسعة من الحفلة» وأشارتْ إلى شاشة ضخمة على الجدار البعيد - وأنا أظهر عليها بدور بلير، أصغر بعشرين عاماً وأضع على كتفيّ دثاراً سميكاً. كان مشهداً غريباً نوعاً ما وأنا أنظر إلى نفسي هكذا - كأنني أدخل في فوضى زمنيّة وأُصبحُ شابة من جديد. وذات مرة، كان هذا جُلّ ما أريد. والآن وقد تحقّقَ، تساءلتُ عن النتائج.

قلت لصديقيّ الجديدَين «إنني أشعر حقاً بأنني شابة».

قال آشر «وما زلت جميلة».

أمرتْ المُضيفة بإحضار الطعام لأجلنا على الصواني اللامعة، ورافقتنا هي وزوجها إلى طاولة مجاورة لكي نجلس عليها نحن الأربعة.

قالت مُضيفتنا «تعلمين، طبعاً، أنَّ الهند كلها تظن أنكِ إلهة».

قلت «ولكن لديكم العديد من الآلهة الجميلة».

قالت مُضيفتنا «آه، لكننا مولعون بالصور، بصور متوهجة تأتينا من الغرب».

قال زوجها «هذه بالضبط هي مشكلتنا. لقد يمّمنا وجوهنا نحو الغرب في حين أنَّ الهند هي أمّنا جميعاً. يجب أنْ نتعلَّم كيف نعبدها من جديد».

«إنني أتّفق معك تماماً. إنني مستعدة لفعل أي شيء لأصبح إلهة - أو حتى أنْ أمثّل دور إحداها».

اقترحَ مُضيفنا «إذن ستبقين هنا وتصنعين فيلماً؟».

«ولِمَ لا؟».

«إنّ حُلمي هو أنْ أوقظ من جديد روح الأنثى في الهند بفيلمي عن الآلهة الهنديّة. فهل ستقرئين السيناريو؟».

قلت بلا اهتمام «بكل سرور. حالما أرتاح قليلاً».

قال الشخص البارز، الذي اتّضحَ أنَّ اسمه راجيف، «ممتاز!». تهلّلتْ زوجته لجوابي. كنتُ قد تعوّدتُ على أنْ أعطي في الحفلات وعوداً لا أفي بها. كيف كان لي أنْ أعلم إنْ كان هناك سيناريو؟ إنَّ الهنود يتصفون بالحيوية وبالغُلُوّ - كألوان أرضهم الرائعة. قد يمدحونك في إحدى اللحظات وينسون أمرك تماماً في اللحظة التالية. ويحبون هالة الشهرة - مهما كانت باهتة. إنهم شديدو التوق إلى الشهرة على قدم المساواة مع الأميركيين والبريطانيين.

ولهذا لم أُدهَش لوجود نايجل كافنديش وزوجته فيفيان أيضاً في الحفلة. كانت فيفيان في حوالي الخامسة والعشرين وفي أشهر حملها الأخيرة. تبادلتُ مع نايجل التحيّة كأصحاب قُدامى وتعرّف كل منا على زوج الآخر.

يسألُ نايجل «ماذا تفعل أنتَ هنا؟».

قال نايجل «لقد أصبحتُ مشهوراً بجنون في الهند. لذلك اتصلت بوليوود بي. إنني أصوّر فيلماً هنا».

«ما أجمل هذا! حظاً سعيداً! أنت تعلم أنني أتمنى لك نجاحاً عظيماً».

قال نايجل «وهذا ما أتمناه لك - دائماً».

لم يعُد بيننا أي شغف، وشريكانا يعلمان هذا.

مدَّ آشر يده وصافح يد نايجل وفيفيان وتبادلوا قبلات زائفة على كلا الوجنتين.

حسن، لقد كنتُ ونايجل مُخلصَين على طريقتنا الخاصة. وكما كتب كول بورتر «إنني دائماً صادقٌ مع نفسي يا حبيبتي على طريقتي الخاصة...».

وهكذا أصبحتُ أشبه بنايجل - منسيّة في بلدي الأم ومشهورة في آسيا. ما أغرب أنْ أعود مشهورة من جديد. عندما أمشي في بهو الفندق، يندفع نحوي مُعجبون ويُخبرونني كم غيّرتْ بلير حياتهم. كان شيئاً

مُدهشاً. لقد تمنّيتُ أنْ أعود شابة من جديد، وقد تحقّقَ ذلك بصورة ما بمجيئي إلى الهند.

لكنني أصبحت يتيمة الآن. فعندما يعيش والداك عمراً يعادل عمري، تعتقد أنهما لن يموتا أبداً. وأنا لم أتعامل مع كلا الميتتين، بل هربت. لقد تملّكني أبي وأمي. كانا دائماً يتحدثان معي، يَطلبان مني ألا أنساهما.

لطالما اعتقدتُ أنَّ عبادة الأجداد هي أولى الديانات. وأصوات الأبوين في أذهاننا هي أقوى الصلوات فعاليّة. إنَّ الموتى يعيشون داخلنا. ونحن نُبقيهم أحياء. إنهم لا يموتون أبداً.

في المعتاد يقوم السيّاح بزيارة غوا من أجل شواطئها، ولكنْ هناك كهوفاً أثريّة في الجوار – ربما ليست مشهورة كالإيلورا أو إلفينتا، لكنّها موغِلة أعمق في القِدَم وأشدّ إبهاماً. وكنتُ قد قرأتُ عن أفاليم وخاندابار وتقتُ إلى زيارتهما. كان آشر مُتعباً ومُرهَقاً وليس متحمساً للذهاب، ولكن بعد أنْ أخذ قسطاً من الراحة على مدى بضعة أيام، أقنعتُ ظِلَّهُ، بارفاتي، بمرافقتنا إلى هناك.

تردّدتْ، قالتْ إنَّ علينا أنْ نتطهّر أولاً، وإنَّ الكهوف هي اختبار لمُخيّلتنا، وإنَّه ليس من السهل زيارتها. كان جلياً أنها تُثبِط همّتنا – لكنَّ ذلك لم يعمل إلا على دعم فضولي. وأخيراً، اضطررتُ إلى ممارسة اليوغا وعمليات التنظيف معها طوال أسبوع قبل أنْ توافق على مُرافقتنا.

قالت لي «إنَّ تلك الكهوف أكثر من مجرد هدف سياحيّ؛ إنها مُقدّسة وخطرة، والعديد من المسافرين لم يعودوا أبداً. سوف تعودين فقط إذا اتّصفتِ بالاتّضاع المناسب. وحالما تصلين إلى هناك سيكون الأوان قد فات للتطهُّر أو للرحيل إذا أمركِ الإله بالبقاء. يجب أنْ تتحلّي بالاحترام وبالهدوء. يجب أنْ توافقي على أنْ تغفري لأعدائك».

سألتُ «وأيُّ فرق سيُحدث هذا؟»

قالت بافارتي «الفرق كله. إنَّ الذين يملؤهم الحنق لا يعودون أبداً إلى الحياة».

***

إنَّ الوصول إلى الأماكن في الهند أصعب دائماً مما تتوقّع. فالطرقات رديئة، ولا يمكن التكهُّن بتقلّبات أحوال الطقس، ودائماً يكتنفك المتسوّلون، والحيوانات، وازدحام حركات المرور، والحافلات الممتلئة بالسياح، وبقطعان الماشية. وما يحدث على الطريق من هنا إلى هناك لا يمكن تسميته حركة مرور. إنه أشبه بإعصار يضرب سفينة نوح. انتقلنا بحافلة فوكسفاغن صغيرة متهالكة، مُزخرفة برايات من الحرير، ويقودها سائق مع مُستكشف يُجادل بشأن الطريق.

بعد مرور ما بدا أنها عدة ساعات، وصلنا إلى معبد محفور في الصخور يحرسه تمثال كرغل ضخم. بدا كأننا السياح الوحيدون هناك.

قدَّمَ لنا السائق والمُستكشف ماءً، وما نمسح به وجوهنا، ووجبة خفيفة لكنهما أعلنا أنهما يُفضلان الانتظار في الخارج على دخول الكهوف. كان معروفاً عنها خطورتها، وربما تكون مسكونة، ومملوءة بالمنعطفات المجهولة. وهناك بحيرة خفيّة يقال إنَّ سياحاً غرقوا فيها. أوه كلا – لا يمكن أنْ يُرافقانا – مهما دفعنا من روبيات.

أوّ ما شاهدنا، بارفاتي، وأش وأنا، لدى دخولنا كان رمزاً بوذياً ضخماً من الحجارة للقضيب، قضيب كريشنا الذي لا يتعب، الذي خصَّبَ العالم ومخلوقاته كلها. سمعنا هدير مياه جارية، وشعرنا بالرطوبة تنفذ حتى عِظامنا، وسرعان ما وصلنا إلى الغرفة التي تُروى فيها حياة الكائن البشري بالتماثيل الضخمة: الصبي الصغير، المُراهِق، العريس، مع عروسه الجميلة ذات الثديين اليانعَين، والوالد الذي يُحيطُ به أولاده، الأم مع أولادها الذين يعبدونها ويُقبّلون أهداب ثوبها، والأب العجوز على هيئة رجل دين جوّال بأعضائه المغطاة بالرماد ووعاء التسوّل. ومع تجاوزنا لتلك التماثيل وسط الجو الكئيب، أصبح جو الكهف أشدّ برودة وبدأنا نرتجف.

قالت بارفاتي «يمكننا أنْ نرجع. يمكننا أنْ نختصر زيارتنا». لم تعمل كلماتها إلا على دعم رغبتي في المتابعة.

أخذنا نهبط أكثر فأكثر دَرَجاً حجرياً زلّاقاً حتى كدنا نقع. هل ما رأيتُ كان وجه صديقتي إيزادورا يطلّ من فوقه الكهف؟ إذن فكل شيء سيُصبح على ما يُرام. سوف تسامحني لأنني تاجرت بها تحت اسم ويلي وايلد. سوف تضحك لأنني لم أطلب الإذن منها. فقبل كل شيء، لم تكن ستوافق على توزيع المخطوط بنفسها. كنتُ متأكّدة من ذلك وهي أيضاً. ولو أنني طلبتُ منها، لوجدتْ طريقة لتفادي الإجابة. كنتُ أعرف إيزادورا. إنها ككل الكتّاب الحقيقيين، لا تؤمن بما تكتب. وحدهم الهواة يعتقدون أنَّ كتاباتهم مثاليّة. هل توماس مان مَنْ قال «الكاتِب هو الذي يعتبر الكتابة أصعب بالنسبة إليه مما هي بالنسبة إلى الآخرين»؟ كنتُ أعلم أنَّ إيزادورا أرادت أنْ تكون مقروءة كما نرغب نحن جميعاً. يمكن للكلمات أنْ تقهر الموت. إنَّ غالبيّة الكتب تتحوّل إلى تراب، كغالبيّة الناس. لكنَّ حفنة منها تبقى – أحياناً لا تبقى إلا شذرات متفرقة كالتي بقيتْ من كتب سابو. ما علينا. حتى تلك الشذرات يمكن أنْ تطير.

حدَّقتُ إلى الجدار الرطب الذي حُفرَتْ تماثيل لآلهة بصورة بدائيّة، قليلة البروز. وفجأة، ومضٌ من الضوء. أصبحت وجوه الآلهة وجوهاً لآبائنا. ثم خبا الضوء. أكنتُ أحلمُ أم أتخيَّل؟ لقد اختفت تماثيل الآلهة – واختفت معها وجوه آبائنا.

حسبتني سمعتُ والدي يقول قبل أنْ يتحول وجهه الحجري من جديد إلى وجه إله: «لا تَبْكِي من أجلنا، لأننا عشنا حياتنا».

سمعتُ أمي تهمس «***يجب أنْ تعيشي حياتك. لا تخافي. إنَّ الخوف مضيعةٌ للحياة***». وهنا رقّتْ قسمات وجهها الحجريّة ليغدو وجه إلهة.

تابعنا طريقنا إلى موقع أعمق من الكهف، مُتتبعين هدير المياه المتدفقة. فوصلنا إلى بحيرة ينبعث منها البخار حيث عدد غير محدود من الآلهة يقفزون فوق سطح المياه برهة ومن ثم تغوص وتختفي وكأنها لم تكن.

قالت بارفاتي «لقد قيل إنَّ في هذا الكهف سوف نرى جميعاً ما كُتبَ لنا أنْ نرى».

سألتها «وماذا ترين؟».

«أرى نفسي عبدة عند الإله، تُرِكَتْ على دَرَج المعبد، لكي أُصبح محظيّة للأمراء. ذات مرة كانت عائلتي لا تُمسّ. إنني أبكي على الطفلة التي كنتُ».

قلت «إنني لا أرى أي أطفال».

«طبعاً لا ترين. أنتِ فقط ترين ما قُدِّرَ لك أنْ تري».

ونهبط أكثر فأكثر داخل الأرض.

يركض آشر أمامنا ويُعانق صخرة قائمة، ويبكي.

سألت «مَنْ هذا؟».

قال آشر «أعتقد أنه والدي. هل أغفر له، أم أغفر لنفسي؟» لطالما كره آشر والده. نظرتُ إلى وجه آشر في الظلام وعانقته بقوة.

ولكن كل ما رأيتُ كان برجاً من الحجر بطول رجل، يغتسل بمياه تتدفق على الحجارة.

قلت «مِن غير غفرانٍ، نَضيْع».

قالت بارفاتي «هناك العديد من مستويات الحضارة في هذا الكهف. ليس هناك إجماع حول أصوله، ولا وُضِعَت لها خريطة. أعتقد أننا يجب أنْ نعود».

نظرتُ خلفي – ثمة ضباب ينتشر أمام جدار من الصخر. وأمامي هناك دَرَج يُؤدي أعمق إلى الأسفل.

سألت «ولكن نعود إلى أين؟».

تملّكني الرعب. لن نتمكّن أبداً من الخروج. لقد كان السائق والمُستكشف على صواب. لا سبيل إلى الخروج من هذا الكهف المتاهة.

«يقول البعض إنَّ أصل هذا الكهف بوذيّ وإنَّ السبيل الوحيد للخروج منه هو إسكات الثرثرة الدائرة في رأسك. وما دام الخوف يتحكَّم بك، فسوف تبقين أسيرة هذا المكان إلى الأبد» مَنْ قال هذا؟ أكانت بارفاتي، أم إله الكهف؟ من المستحيل معرفة الجواب.

بدأنا نتنفّس بانسجام. كانت بارفاتي تُحصي عدد أنفاسنا في غرفة الأصداء. واستمرت في فعل ذلك إلى أنْ بدا أنها ستظل تحصي إلى الأبد. كانت هناك برهة صمت في نهاية كل نفَس حيث كما قيل قد تُقرِّر إلى أي عالم تدخل. فكّرتُ في الموت، لكنني اخترتُ الحياة.

كم اشتقتُ إلى أمي؟ ليس الأم التي آلتْ إليها في ختام حياتها، بل الشابة النابضة بالحيوية التي طارتْ بنا إلى كاتالينا عندما كنا فتيات صغيرات. أعادتني رؤيا سينت كاتالينا خلفاً، خلفاً، خلفاً إلى مشهد أمي وهي تربط لنا أحذيتنا وتضحك عندما خفنا أنْ نغامر بركوب متن الطائرة. كانت فائقة الجمال وشابة ومتهللة. لم أكنْ أتصور الحياة من دونها.

كل الدموع التي رفضت أنْ تُذرَف في جنازتها، وعند دفنها، تجري الآن غزيرة على وجنتيّ، وتُغرقني كأنما في سائل حامضيّ ثبّتني داخلها طوال تسعة أشهر. ونُقِعتُ بالدموع. أضاء لمعانها الدرب الصاعد نحو الأعلى، والخطوات المؤدية إلى خارج الكهف.

بينما نحن نشقّ طريق عودتنا إلى الفندق، كان الصمت الشامل يرين علينا.

قال آشر «لم أتوقع أنْ أرى والدي من جديد. مَنْ كان يدري أنه كان في الهند – داخل كهف! يجب أنْ أغفر له لكي أتمكن من طلب الغفران لنفسي».

***

كنا قد أتينا إلى الهند لأنَّ الهند هي ماضي الجنس البشري. اخترقنا كهوفها كما نخترق أحشاء أمهاتنا. إننا نبحث عن معنى في أرحام الزمن المذهلة تلك. ذات مرة حلِمتُ بأنْ أعيش من جديد شبابي عبر السِحر. والآن بتُّ أفهم أنني أعيش من جديد شبابي في كل يوم من حياتي. إنني كأمّ، وجدَّة، وزوجة، أعيش في الماضي، والحاضر، والمستقبل في وقت واحد. هذه هي الهدية التي تمنحها الهند. إنَّ الهند موهوبة في محو الزمن.

في أثناء عودتنا بالسيارة إلى غوا في الظلام المتراكم، قالت بارفاتي «لقد أشعلتْ الهند قلبك - كما تكهن طاغور. لقد رأيتُ أميركيين يتحولون بهذه الطريقة مرات عديدة. والسبب ليس الهبوط إلى أعماق الكهوف، بل المقدرة على أنْ تنظري فجأة إلى حياتك من زاوية مختلفة».

سألتُ «ولكن لِمَ؟».

قالت «لا يوجد جواب على هذا، إلا إذا كان الجواب هو الكارما».

قلت «ولكن ما الكارما؟».

قالت «البعض يترجمها بأنها القدَر. أما أنا فأرى أنها أكثر من ذلك. بالنسبة إليّ هي كل تأثيرات تصرفاتك المُخزّنة في حيواتك العديدة. آمل أنْ تكتسبي موهبة الفناء التام - دون أنْ تُضطري أبداً إلى الولادة من جديد بأي شكل. إنكم معشر الغربيين تحلمون بالخلود بينما نحلمُ نحن بنقيضه».

«إذاً تودّين أنْ تستنيري إلى درجة ألّا تعيشي من جديد؟».

قالت بارفاتي «هذه هي الفكرة».

سألتُ «إذن الحياة ليست نعيماً مُطلقاً؟».

قالت «إنها أبعد ما تكون عن هذا».

«نحن لا نفكّر في أنْ نولد من جديد كفناء، بل كاتّحادٍ مع خالقنا».

قلت «إذا فكّرتُ في الأمر بهذه الطريقة، فتلك قصة أخرى. إنني أكاد لا أفهم شيئاً منه».

قالت بارفاتي «إنَّ الأمر ليس سهلاً، ولكن إذا اعتقدتِ أنَّ كل الأفعال في حيواتك العديدة يمكن أنْ تعدِّك للاتحاد بالإله أو لا تعدّك، فهذا مفهوم أكثر. لقد وُلِدتِ من الإله وسوف تعودين إليه - إنها فقط مسألة وقت». ثم سردتْ بارفاتي أجزاءً من قصيدة لطاغور تجري كالتالي:

«لا تذهبْ إلى المعبد لتضعَ أزهاراً عند قدميّ الإله،
املأْ منزلك أولاً بعبير الحب...

لا تذهبْ إلى المعبد لتركع وتُصلّي،
انحنِ أولاً لترفع مَنْ وطأته الأقدام.

لا تذهبْ إلى المعبد لتطلب غفران آثامك،
اغفرْ من أعماق قلبك للذين أثِموا في حَقِّك».

سأل آشر «ما معنى هذا؟ لِمَ يجب أنْ أرغب في الاتّحاد مع الإله؟».

قالت بارفاتي «لتجد النيرفانا، والغفران هو المفتاح الوحيد للوصول إليها. اغفرْ لأعدائك ومن ثم تغفر لك الآلهة. بهذه الطريقة لن تحتاج إلى أنْ تولَد من جديد».

لاحقاً، عندما أصبحنا آشر وأنا وحدنا في غرفة الفندق، قال، «إنَّ كل تلك الكهوف تشبه أعمالاً هندسيّة صخريّة عملاقة. إنها تجعلني أفهم هدفي. لقد انجذبت إلى الفن الترابي لأنني عِلمتُ بصورة ما أنه الأعرق بين الفنون. إنَّ الحفر في التراب يشبه الحفر خلفاً في ذاكرتك لكي تولدي من جديد. إنني لا أفهم هذا التوق الشديد إلى العدم».

قلت «إنَّ الأمر كلّه مُرتبطٌ بالخوف من الموت. نحن لا نكفّ عن ابتكار فلسفات مختلفة لكي نتعامل مع خوفنا. وهذا كله سُخف لأننا

حالما نموت نَتخلَّص من كل خوف. إنَّ الموت هو انعدام الخوف. والمشكلة هي توقُّع موتنا».

«عندما كنا في الكهف، أدركتُ فجأةً لماذا انتابني ذلك الدافع القويّ لأنْ أكون ثرياً عندما كنتُ أصغر سناً».

«لماذا؟».

«لقد ظننتُ أنَّ الثروة ستحميني من الموت. وبعد مرور وقت طويل، حتى بعد أنْ قابلتك، حسبتُ أنني أصبحتُ محمياً. ولكن بعد إصابتي بتمدُّد الأوعية، اكتشفتُ أنني لستُ منيعاً ضد قدر الآخرين. وزال عني إحساسي بأنني نوع خاصّ».

«فهل أصبحتَ الآن أكثر خوفاً - من الموت؟».

«الأمر الغريب، هي أنني أصبحتُ أقلّ خوفاً. إنني أفكّر في الملايين والملايين من الناس الذين عبروا ذلك الممرّ من دون صعوبة، وأنا فضوليٌّ بهذا الشأن ولستُ خائفاً. ربما عشتُ مرات عديدة من قبل وربنا سأعيش من جديد»

«لكنني أعتقد أنكَ قلت إنك لا تستطيع أنْ تؤمن بالتناسُخ؟».

«أنا لم أَقُلْ هذا».

«أعتقد أنك قلت».

«كلا - أنا أعتقد أنَّ التناسُخ سوف يكون أمراً رائعاً - ما دمتُ سأتناسخ معك».

كنتُ وآشر قد كسرنا بعض الحواجز - كأنَّ الهند كانت شهر عسل آخر بالنسبة إلينا. وعندما أُعيد التفكير في هذا، أكتشف أننا لم نحظَ بشهر عسل أول. نحن فقط انغمسنا في حياتنا معاً - لقد تطابقَ جدول أعمالنا مع جدول مدرسة غليندا. أما الآن فنحن وحدنا معاً اكتشفنا أنَّ كلاً منا أحبّ الآخر حقاً. عندما أكون مع آشر، لا أشعر بالوحدة. وهذا ما وعدَتْ به ممارسةُ الجنس مع أشخاصٍ غرباء ولم تفِ به. والآن أعتقد أنني لا بدّ كنتُ مجنونة بسعيي وراء علاقة حميمة هناك.

في تلك الليلة أقيمتْ حفلة هائلة حول أرض الفندق وفي صالات الرقص المُجاورة. كان رُعاة المناسبة واضحين - شركتا كوكا كولا وشيفاس ريغال - لأنهما كانتا تضعان أضواءً كاشفة ضخمة فوق البارات الخارجيّة.

اكتشفتُ أنّه لا يمكنني أنْ أعبر الحديقة من غير أنْ ترافقني امرأة جميلة أكبر سناً ترتدي سارياً رائعاً وهي تقبض على رسغي وتُخبرني أنَّ بلير غيَّرتْ مسار حياتها. كنتُ أرتبك.

وأسأل «لماذا؟».

«لأنها أعطتني الإذن بأنْ أكون صلبة وأيضاً أنثى». وإحدى الممثلات العجائز اسمها رادكا فسّرت قائلة «إنَّ النساء الهنديّات كنَّ في أمسّ الحاجة إلى ذلك الإذن».

«لكنَّ آلهتكن قويّات لكنهن إناث. أليس هذا كافياً؟».

قالت «إننا نعمد إلى تجاهُل آلهتنا. لكنَّ آلهتكم التلفزيونيّة يُعطيننا الإذن لنعبِّر عن أنفسنا. وعلينا أنْ نشكرك على هذا».

«ولكن لماذا تحتاج النساء دائماً إلى إذن ليُعبّرن عن أنفسهن؟». بقيَ سؤالي مُعلَّقاً في الهواء دون جواب.

عندما حان الوقت لأقدِّم مادتي، استخدمتُ هذا كافتتاحية لكلمتي: «لماذا نحتاج نحن معشر النساء إلى الإذن لنعبِّر عن أنفسنا؟ لقد شكرني عددٌ هائل من النساء لإعطائهن الإذن ليكُنَّ حقيقيّات، وصادقات - ولكن لِمَ نحتاج إلى هذا الإذن؟ مَنْ الذي انتزع منا الإذن الذي من حقّنا، ولماذا؟ أعتقد أننا إذا استطعنا أنْ نُجيب عن هذا السؤال، فسوف نُصبح على الطريق الصحيحة لتطوير حياة النساء في العالم أجمع. إذن دعوني أقول فقط: أنْ نعطي الإذن لأنفسنا بأنفسنا. وينبغي أنْ يكون هذا كافياً تماماً لنا!»

إذا كانت بلير قد استقطبتْ النساء، فإنَّ فكرة منح أنفسنا الإذن

حرّكتهن أكثر بكثير. وأثناء سيري على أرض الحديقة، كانت النساء يَمدُدْنَ أيديهن للَمسي. لقد كان الشعور بالحاجة إلى توكيد الذات هائلاً.

سألتني ممثلة شابة جميلة «هل تقبلين أنْ تكوني مُرشدتي؟».

قلت «إنني أحاولُ أنْ أُخبركن أنكنّ أصبحتن مُرشِدات أنفسكن. أنتنّ حقاً قويات ومُفعمات بالطاقة. كل ما عليكن أنْ تفعلن هو أنْ تعلمن كم أنتنّ ممتلئات بالطاقة وبالحياة!».

ومن ثم، وكأنما بإيعاز من الآلهة – انطفأتْ الأضواء.

وبدأ مئات الأشخاص في قاعة الرقص والحديقة، يتجوّلون في الظلام. وجَلَب النُدُل الشموعَ والأضواء الكاشفة. واستمرّ تقديم الطعام. ولكن فجأةً عُدنا إلى عصر الكهوف الموغِل في القِدَم. واستمر انسياب الموسيقى.

وسط الظلام، عانقني المزيد والمزيد من الأشخاص لم أتمكّن من رؤيتهم. استطعتُ أنْ أشعر بدفئهم، وأسمعَ الموسيقى، وأشمَّ عبق عطورهم. فكّرتُ في مدى غرابة الحياة، وكيف أنها تستمر حتى في الظلام. لقد كان الماضي مجهولاً وكذلك المستقبل. ولعلنا ما زلنا نعيش في ذلك الكهف الذي تحولت فيه التماثيل إلى صور لأبوينا ونخشى ألا نتمكن أبداً من الخروج. إننا هنا في الظلام نأمل في أنْ نولَد من جديد. لهذا السبب يجب أنْ نصل إلى المكان الذي خُلِقَتْ فيه الحضارة مراراً وتكراراً.

سأل طاغور «بعد أنْ أغادر هذا الجسد، هل سأعود إلى العالم؟» هل سنعلم هذا يوماً؟

أتلفّتُ حولي بحثاً عن آشر، لكنني لم أستطع أنْ أراه في الظلام. كل ما رأيتُ كانت أشباحاً تتحرّك يمكن أنْ تكون أشباح الموتى. وانتابني إحساس بأننا لم نخرج من الكهف أبداً، وأننا علقنا هناك إلى الأبد بسبب افتقارنا إلى الاتّضاع، وإلى الإيمان.

أدركتُ أنني طوال حياتي وأنا أستبدلُ السخرية بالإيمان. لقد احتميتُ من معرفتي العميقة بنفسي. والآن قطعتُ وعداً أمام الآلهة - وأمام نفسي - بأنْ أطرح عني المسحة الساخرة وأستكشف المغفرة، والاتّضاع، والحب.

ما أقلّ ما كنتُ أعرف نفسي إلى أنْ هبطتُ إلى أعماق الأرض بحثاً عن أجدادي. ما أقلّ ما كنتُ أعرفُ عن الذين ادّعو الحب!

مشيتُ، لا أعرف وجهتي، واستمررتُ في المشي على العشب الرطب إلى أنْ وجدتُ الأمواج تلامس قدميّ. رأيتُ تماثيل والديّ بعين عقلي. شعرتُ بعناقٍ قوي في الظلام. وعندما استدرتُ لأنظر، رأيتُ آشر.

قال «لدينا العديد من الألغاز التي علينا إيجاد حلولها».

قلت «ربما سنجد حلولاً لها معاً في حياتنا التالية».

قال آشر «ما دمنا معاً، نستطيع أنْ نفعل هذا»، وغسلت المياه أصابع أقدامنا وكأنها تهمس بأنها موافقة.

النهاية

كلمات شُكر وامتنان

شكراً لـ:

كين بورو وجيري كاريتسكي، اللذين ظلّا يُردّدان: «أنت دائماً تقولين هذا»، عندما يئستُ من تأليف هذا الكتاب.

وآن بينكرتون وكلاريس كيستنبوم، اللتين عرفتا أنّ في استطاعتي أنْ أكتب حتى عندما نسيتُ.

وإليزابيث شينكمان وأرديان برودور، اللتين قرأتا هذه الرواية قبل أنْ تُصبح جاهزة ودائماً آمنتا بها.

وجنيفر إندرلين التي بيَّنتْ لي أنَّ الإعداد العظيم للكتب لا زال حياً وصحيحاً في عالم النشر.

والدكتور هارولد كوبلوفيتش، الذي ظلّ يُردّد أنَّ العنوان يجب أنْ يكون «***الخوف من الموت***»، حتى قبل أنْ أتمكّن من استحسانه (كان العنوان الأصلي السائد هو «***امرأة سعيدة في زواجها***»).

عندما أعمل على تأليف كتاب، ينتابني دائماً رعب من عَرضِهِ على أحد خشية أنْ يتبخّر سِحره. إنني الآن أوصي بهذا كل طلّابي في درس التأليف. إنَّ فلاديمير نابوكوف في موقع ما قال إنَّه كتب في وقت مُبكِّر قصة قصيرة تدور حول شغفه بفتاة صغيرة جداً واستغرق منه عقوداً كثيرة قبل أنْ يُحوّلها إلى رواية «لوليتا». لقد كانت في حاجة إلى أنْ ينمو لها «جناحان ومخالب جديرة برواية». لقد تعلَّمتُ أنَّ الروايات تستغرقُ قدر ما تحتاج من وقت.

حوار مع إريكا يونغ

- ما هو مفهومك عن السعادة الكاملة؟

العوم على سطح بحيرة في تشيبرياني دي فينيس مع ابنتي، مولي، وحفيدتي، بت. والتخطيط لإقامة وجبة عشاء مع الأصدقاء والعشّاق.

- ما هي أشدّ مخاوفك؟

أنْ أُصبح مُعاقة نتيجة حادث تصادم سيارة. ألّا أتمكّن من أداء تمارين اليوغا، ورفع الأثقال، والمشي في شوارع نيويورك في نهار جميل الطقس. إنّ خوفي من الموت أقلّ من خوفي من الإعاقة.

- ما هي السِّمة التي أشدّ ما تزعجك في نفسك؟

أنّني لا أطرح ما يكفي من الأسئلة وأتّخذُ قرارات بدافع من الحماس الجامح.

- ما هي السِمة التي تزعجك في الآخرين؟

النرجسيّة التي تُعيق التعاطُف. والكذب.

- مَنْ هو الشخص الحيّ الذي أشدّ ما يُثير إعجابك من غيره؟

إنني مُعجَبَة بذوي العزم. تخطر في بالي هيلاري كلينتون. ومارغريت ميد، على الرغم من أنها ميّتة الآن. وأندريا بوتشيللي. ومايكل ج. فوكس. إنني شديدة الإعجاب بالأشخاص الذين لا يستسلمون.

- ما هي أبرز صِفاتك المُتطرّفة؟

حبّي للملابس المُصمّمة الجميلة، والأحذية المجنونة المتعددة الألوان.

- ما هي حالتك الذهنيّة حالياً؟

لم أكنْ يوماً أشدّ مني سعادة الآن. إنَّ كتبي تجد رواجاً واسعاً: إنني أتعاون مع بعض فناني المسرح والسينما الذين يُثيرون إعجابي. أحفادي بحالة جيدة وسعداء. وابنتي وصهري بخير وسعيدان. وزوجي بخير وسعيد - أي شيء أفضل من هذا؟

- ما هي الفضيلة التي تعتبرين أنَّ ثمة مُغالاة في تقديرها؟

الطهارة.

- متى تكذبين؟

فقط لكي أحمي مشاعر الذين أحبهم.

- ما هو أشدّ ما تكرهين في مظهرك؟

كلما تقدّمتُ في السن، يزداد إعجابي بشكلي.

- مَنْ هو الشخص الحي الذي تبغضينه أكثر من غيره؟

دونالد ترامب، الكذّاب المريض. و(؟)، قاتل الأطفال. والمُنتجين السينمائيين الذي يكسبون مبالغ خرافيّة من الدولارات في كل عام ولا يسمحون بعرض أفلام تتحدّث عن النساء.

- ما هي الصِفة التي أشدّ ما تعجبك في الرجل؟

الحسّ الفكاهي والذكاء. المقدرة على الضحك من نفسه.

- وما هي الصِفة التي أشدّ ما تعجبك في المرأة؟

تعاطفها، وذكاؤها، والحس الفكاهي. الشيء نفسه.

- ما هي الكلمات والعبارات التي تُكثرين من استعمالها؟

بوصفي من سكّان نيويورك والطفلة الثانية في العائلة، أنا أعمد إلى تكرار ما أقول. أنا أكره العبارة الرائجة في نيويورك «أريد أنْ أطلب منك شيئاً».

- ما هو أو مَنْ هو أعظم حب في حياتك؟

إنني مُحاطة بأفضل العشّاق في حياتي. زوجي كن، ابنتي مولي، وأحفادي داروين، بن، وماكس.

- متى وأين كنتِ في أسعد أوقاتك؟

الآن.

- أية موهبة تودّين أنْ تكون لديك؟

صوت سوبرانو عظيم.

- إذا كان في مقدورك أنْ تغيّري شيئاً واحداً فيك، فما هو؟

ميلي إلى الانتقاص من نفسي ومن عملي عندما أكون مكتئبة.

- ما هو أعظم إنجازاتك؟

الاستمرار في الكتابة على الرغم من عيوب الثراء الفاحش. إنَّ الكاتبات لا يتلقّينَ معاملة جيدة في مجتمعنا بل فقط في البلاد الأجنبيّة حيث تظهر أعمالهن مُترجَمَة

- إذا كان لا بدّ لك أنْ تموتي وتعودي على هيئة شخص أو شيء، ماذا تريدين أنْ تكوني؟

كلب بودل مقياسي محبوب يتلقّى تعاطف غير محدود من مالكيه.

- ما هو المكان الذي تفضّلين العيشَ فيه؟

مدينة البندقيّة، في إيطاليا، في فصلَيّ الخريف والربيع. ومدينة نيويورك في الخريف والربيع. وفصل الشتاء في جزيرة جميلة في منطقة الكاريبي مملوءة بالطيور النادرة، على سبيل المثال، أنتيغوا أو باربيدوس.

- ما هو أنفس كنز تمتلكينه؟

مقدرتي على الكتابة.

- ما الذي تعتبرينه أسوأ أنواع البؤس؟

الكآبة. المرور بفترة يبدو خلالها كل شيء كئيباً وكأنَّ العالم على وشك أنْ ينتهي.

- ما هو عملك المفضّل؟

الكتابة قبل أي شيء.

- ما هي ميزتك الأبرز؟

أنني أحبّ الضحك. أحبّ اللغة والفنون.

- ما الذي أشدّ ما يُعجبك في أصدقائك؟

الولاء، التعاطف، الفكاهة، والضحك.

- مَن هم كُتّابُك المُفضَّلون؟

دوريس ليسينغ لطموحها الهائل. وإميلي ديكنسون لفلسفتها الجميلة بشراسة. وبابلو نيرودا لصوره. وإدنا سينت فينسنت ميلاي لسوناتّاتها.

- مَنْ هو بطلك الروائي؟

لطالما أحببتُ أوديسيوس لحسّ المغامرة لديه وشجاعته. ولطالما أحببتُ سابو لحسّ المغامرة لديها وشجاعتها.

- شخصية تاريخيّة تتطابقين معها أكثر من غيرها؟

إنها كثيرة. تبدأ بإليانور روزفلت وتنتهي بمارغريت ميد وإليزابيث الأولى ملكة بريطانيا.

- مَنْ هم أبطالك في حياة الواقع؟

الدالاي لاما، الذي يقول إنّ ديانته هي المعاملة الحسنة.

- ما هي أسماؤك المُفضّلة؟

بيليندا. هادريان. بياتريس أو بت (حفيدتاي)، ودانتي، بالدرجة الأولى.

- ما أشد ما تبغضين؟

الذين يكذبون ولا يعرفون أنّهم يكذبون. والذين لا يهلِّلون لأصدقائهم.

- ما أشد ما تندمين عليه؟

كان ينبغي أنْ أكتب مسرحية غنائيّة مع جول ستيرن، صاحب كتاب *«الغجري»*. أراد أنْ يصنع نسخة مسرحيّة غنائيّة من رواية *«الخوف من الطيران»* وفيها ترقص إيزادورا وهي تقفز من أريكة إلى أريكة، وتغني لعدد من المُحلّلين النفسيين. أراد مني وكلائي أنْ أبيع حقوق الفيلم إلى زبونة لهم. وأصبحت الزبونة مُدمنة مخدرات لا أمل يُرجى منها، ولم يصنع الفيلم، وظلت تشرب حتى ماتت. كان ينبغي أنْ أعمل مع كاتب الأغاني.

- كيف تودّين أنْ تموتي؟

بسرعة.

- ما هو شعارك؟

المعاملة الطيّبة هي قمّة الحِكمة.

«إنَّ الخوف من الموت تُثبت مكانة إريكا يونغ الراسخة».
- ذا غلوب أند ميل (كندا)

«لقد اكتسبت [يونغ] إعجابي بصدقها، وحسّها الفكه، وشغفها... إنها ككاتبة ما زال لديها الكثير لتقوله».
- ذا غارديان (بريطانيا)

«إنَّ يونغ تومض، تتحرك برشاقة وهي مُضحكة جداً بالإضافة إلى كونها ذكيّة وحكيمة... لقد ابتكرتْ صوتاً في السرد حميماً ومباشراً بصورة خارقة، حتى يكاد المرء ينسى أنَّ هذا الأداء البارع والواثق هو عمل أدبيّ. إنَّ يونغ منارة تضيء لأجيال عديدة من القرّاء، وروايتها الأولى بعد مرور أكثر من عقد من الزمان سوف تَعِدُ بالكثير من الإثارة».
- بوكليست (مراجعة تحمل نجوماً)

«منذ البداية اندفعتْ يونغ إلى المقدِّمة، قائدة جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى حيث يخشى أنْ يطأ... حتى وهي في سبعينيات عمرها، تبقى يونغ المُغامرة المتهوِّرة، الشهوانيّة، التي يمكن لجنباء العالم أنْ يتبوّلوا عليها، لكنها لا تنوي أنْ تدع هذا يوقفها».
- ذا أتلانتيك

«إنَّ كتاب إريكا يونغ الخوف من الموت يتحدّى أفول الجنس».
- ذا نيويورك تايمز

«إنَّ أسلوب يونغ في الكتابة مُراوغ وجذّاب، تَكدُّسُ المواضيع المُعقَّدة في قصةٍ سوف تجعل القرّاء يضحكون ويفكّرون».
RT - لمراجعة الكتب (أربع نجوم)

«إنَّ رواية الخوف من الموت تدعم رواية يونغ الكلاسيكيّة الخوف من الطيران. في هذه الرواية الجذِلة، المُثيرة جنسياً والحكيمة بخفّتها، تستكشف يونغ بعض الحقائق العميقة عن التقدم في السن، والعائلة، والحب، والزواج بعد سن الستين. هذه الرواية هي مزيج رائع، ممتع في قراءته من التسلية الحِكَمة. لقد أحببتها!».
- سوزان تشيفر، صاحبة الكتاب الرائج
«العودة إلى المنزل قبل حلول الظلام.»

ISBN 978-2843091391
9 782843 091391

لوحة الغلاف : krisztianna